الإسلام في النظرية والتطبيق

تأليف
المهدية "مريم جميلة"

ترجمة
س . حمد

مكتبة الفلاح

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مكتبة الفلاح : تلفون ٥٤٧٧٨٤ - ص ب ٤٨٤٨ - الكويت

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أستعينه وأستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسل بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ، مَنْ يُطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فلا يضرّ إلا نفسه، وبعد :

فهذا كتاب أقدمه للجيل الناشيء المسلم ، الدّاعي إلى الله في هذا العصر الذي كثرت فيه الشهوات ، وغلبت فيه النزوات ، واختلط الحق بالباطل ، وخيم ظلام الجاهلية المادية ، حتى غدا هذا الجيل يجد الصعوبة في تحسّس طريقه في هذه الدياجير المظلمة « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها » .

وأهم ما يميز الكتاب أن كاتبته السيدة مريم جميلة أمريكية الأصل ، يهودية النشأة هداها الله إلى الطريق المستقيم ، طريق الإسلام ، خبرت ديانتها وخبرت الديانة النصرانية الحالية ، وخبرت الثقافة الغربيـة والحضارة المادية ، فعندما اعتنقت الإسلام لبّى في نفسها نداء الضمير ، نداء الفطرة ، وعندما سبرت غور

الإسلام أخذت تكتب منافحة عنه عن تجربة وفهم ودراية وقناعة ، تبين زيف الباطل في معتقداتها السابقة ، وتكشف طلاء الضلال ، وفتنته عن بهارج المدنية الغربية وحضارتها ، وتقارن ذلك بالإسلام وتعاليمه وآدابه وطرق عيشه في الحياة وتسييره لها بحجج لا تقبل الدفع وبراهين ساطعة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأترك للقارىء الكريم الحكم على الكتاب وحججه ، ولعله يكون للداعية المسلم مرشداً ومعيناً ، والله ولي التوفيق .

تصدير الكتاب

١ - بعض التعاليم من القرآن الكريم :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » البقرة ٢١ ، ٢٢ .

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون » البقرة ٢٨ .

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين». آل عمران ٨٥ .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » . آل عمران ١١٠ .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » . النساء ١٤٤ .

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . التوبة ٣٣ .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا » . النساء ٥٩ .

« ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيَرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً » . الأحزاب ٣٦ .

« ... اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم ، واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً .. » . المائدة ٣ .

٢ ـ مبادىء من الحديث الشريف :

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا يا رسول ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » .

ـ عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ، فمات ، مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية ، يغضب لعَصَبَتِه ، أو يدعو إلى عَصَبَتِه ، أو ينصر عَصَبَتَه فقتل ، فقتلةٌ جاهلية . ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ، ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفي لذي عهد عهده ، فليس مني » .

ـ عن أم الحصين قالت قال رسول الله ﷺ : « إن أمرّ عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله تعالى ، فاسمعوا وأطيعوا » .

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

الأحاديث من الصحيحين .

مقدمة المؤلفة

إن المقالات التي تؤلف هذا الكتاب كُتِبَتْ للمثقفين من غير المسلمين الذين يهمُّهم اكتشاف ما يعنيه الإسلام حقيقة للمؤمن الصادق، وكذلك لأولئك الناس من ذوي الأصل المسلم الذين لم تسنح لهم الفرصة لاعتناق عقيدة غير مدخولة بسبب تربيتهم الحديثة .

وهذا الكتاب ليس دراسة شاملة لمبدأ الإسلام ، لأن علماء مسلمين آخرين قد قاموا بهذا العمل أحسن بكثير مما آمل به . فهو مجرد محاولة لأركز على مظاهر إسلامية مختارة، وتطبيقاتها العملية ، والتي هي — في رأيي المتواضع — لم تُبحَث بما فيه الكفاية باللغة الانجليزية .

والغرض من مقدمة الكتاب هو أن أوضح ، من وجهة نظر متحوّلة من اليهودية ، لماذا اخترتُ أن أعتنق الإسلام ، مفضّلة إياه عن عقيدة أجدادي ، أو النصرانية أو اللاأدرية الإنسانية .

والقسم الثاني من هذا الكتاب يركّز على تلك المظاهر في الإسلام التي لا تتقبّلها العقلية الحديثة بدرجة كبيرة ، بطريقة مباشرة لا ممالأة فيها .

وأما القسم الثالث فيظهر كيف أن الإسلام بالفعل طُبّق في العصور الأخيرة. وأثبت للمتشككين الذين يدّعون أن طريقة الحياة التي أوجدها هـذا الدين ، لا تعدو أن تكون « قوة ضائعة » استنفدت قدرتها الخلاّقة منـذ ألف سنة ، عكس ذلك ، بل إن الإلحاح في جميع أنحاء العـالم على بعث إسلامي يكتسب قوة يوماً بعد يوم .

أما الخاتمة فهي تحليل لمظاهر نهضة إسلامية عالمية ، وإجراءات معينة تقود بشكل أفضل لتحويل هذه الرسالة إلى حقيقة واقعة .

لاهور — ٢٥ جمادى الاولى ١٣٨٧ هـ

أول سبتمبر (أيلول) ١٩٦٧ م

مريم جميلة

(سابقاً : مرجريت ماركوس — نيويورك)

تقـــديم لهذا الكتاب

١ ـــ من اليهودية إلى الإسلام .

٢ ـــ الدنيوية النصرانية في ضوء القيم الإسلامية .

٣ ـــ « العـالم المحمدي » : مثل من الاصطلاحات التي تشوّه الإسلام .

من اليهودية إلى الاسلام

منذ نعومة أظفري ، بدأت أتساءل : مـاذا يعني حقاً أن أكون يهودية ؟ وأحسب أنني بدأت أسائل نفسي ذلك ، عندما أخذت زميلاتي النصرانيات في المدرسة ، يدعونني في « عيد الفصح » « بقاتلة المسيح » . وبانتهاء عيد الفصح ، كن ينقلبن ، بكل غرابة ، رفيقات ودودات حتى نهاية العام . وعندما سألت ذات مرة صبياً رومياً كاثوليكياً : لم يعمل ذلك ؟ أجاب ، بأن القسيس أخبره به . وكانت هناك أخبار الحرب الدائمة في الإذاعة والصحافة . ومع أنني كنت في الخامسة عندما نشبت الحرب العالمية الثانية ،وفي الحادية عشرة عندما انتهت ، إلا أن الوصف الرهيب لعملية استئصال اليهود ، على يد الحكم الهتلري النازي في ألمانيا، ترك أثراً لا يمحى من ذاكرتي.وكان هناك الاختلاف الطفيف الملحوظ حتى في المظهر البدني ، بيني وبين أترابي النصرانيات . كل ذلك جعلني أعتقد أن كوني « يهودية » يعني كوني « مختلفة » ، ولا أتبع في الحقيقة ، المجتمع الذي كنا على الفرض نشكل جزءاً منه .

وعندما كنت في التاسعة والعاشرة من العمر ، وطوال السنتين في دراستي الأسبوعية الدينية اليهودية ، استبدت بي فكرة البحث عن حقيقـة شخصي . فالتهمت كل ما وصلت إليه يدي من كتب اليهودية التي وضعت بالإنجليزية . وسرعان ما ألفت تاريخ اليهود المحزن ، حتى أن الصور التي رسمها على صفحات

الكتب التي قرأتها ، بدت ، في بعض الأحيان ، حقيقية أكثر من الحياة الواقعية حولي. بدا لي « راشي » وهو من أبرز علماء اليهود في أوروبا في العصور الوسطى كفتى نحيل ، بقلنسوته الضيقة ، وذؤابتيه الطويلتين ، وعينيه الواسعتين السوداوين الحزينتين ، يجلس متربعاً ، ويتلو من الفجر إلى الغسق ، من سفر من التلمود ، و « موسى بن ميمون » ، وهو مفكر لامع آخر ، وهو يصف ، في رسالة لصديق له ، أيامه العصيبة في مصر كطبيب خاص لصلاح الدين الأيوبي ، ثم ازدهار الثقافة العبرية في اسبانيا المسلمة ، يتلوه أحداث تاريخية ، لا نهاية لها ، للمذابح والاضطهادات المتعاقبة — الحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش الاسبانية — وفي النهاية عزل يهود أوروبا ، بالقوة ، في الأحياء اليهودية « الجيتو » .

وفي الطريق إلى شقة قريبتي في مدينة نيويورك ، كانت مدرسة لتدريب الأحبار اليهود . حيث كان المتدينون ، من الآباء يرسلون أبناءهم ، بقلانسهم الضيقة ، وذوائبهم المتدلية ، وأكداس من الكتب العبرية . فيجلسون يتمايلون إلى الأمام وإلى الخلف ، يرتلون ، بأصوات عالية منسجمة ، من التوراة والتلمود وبأعلى أصواتهم ، تحت إمرة مدرّس شديد قاس ، ذي لحية كثة سوداء ، وعصا طويلة ثقيلة ، يوجع بها عظام تلاميذه الكسالى . ثم يتلو ذلك ترانيم « الكنس اليهودي » الباكية .

ومع أن كل هذه التجارب كانت جزءاً لا يتجزأ من طفولتي ، إلا أن عائلتي كانت لا تمتّ بصلة لهذا العالم . لقد ولدت في بيت « مُصلِح » ، « متأقلم مع مجتمعه » ، وليس محافظاً . ولم يكن والداي ، ولا أقاربي ، يتّبعون الشريعة اليهودية . وكانت عائلتي ، بخلاف الجمهرة الغالبة من يهود أمريكا ، من أصل ألماني لا من أصل روسي . وهم لم يطردوا من ألمانيا ، كما طرد يهود روسيا ، بالمذابح والاضطهاد ، ولكنهم نزحوا باختيارهم إلى أمريكا منذ أكثر من قرن سعياً وراء الازدهار الاقتصادي . وعلى الخلاف عن يهود أوروبا الشرقية فإن هؤلاء النازحين من ألمانيا لم يأتوا من الأحياء اليهودية « الجيتو » بل كانوا قد

ذابوا في مجتمعات الأغلبية النصرانيــة . وإن والدة جدتي ، التي كانت شقراء وجرمانية المظهر كما يمكن أن يكون أي ألماني آخر ، لم تكن أبداً تتوانى عن الإحتفال بعيد الميلاد على أكمل وجه ، بما في ذلك الهدايا المنتقاة لأبنائها وأحفادها وشجرة كبيرة لعيد الميلاد مزينة . ولم يكن اليهود « المتحضرون » يسمون بيت العبادة « كنساً » ، بل « معبداً » . وكانت الطقوس المعبدية « الُمصلَحَة » تقام على شاكلة أساليب الطوائف النصرانية البروتوتستانتية ، بمجموعات مختصة مدربة مختلطة من الرجال والنساء (بعضهم مسيحي) يغنون الألحان المعروفة للتراتيل المسيحية بكلمات أخرى وضعت كي لا تؤذي المستمعين اليهود ، وكانت طقوسنا في المعابد المصلحة إنجليزية بكليتها تقريباً بشيء من العبرية القليلة ، وفي شرائعنا التي يحسبها المحافظون أساسية لنا لم يكن شيئاً ملزماً لنا ، كما أنها كانت تحتقر من قادتنا المصلحين كأشياء بالية ولا قيمة لها في الحياة الحديثة . وبالمثل فإن بيتنا لم يكن يتميز عن بيت جيراننا النصارى ، وكنا نشعر أننا بعيدون عن التمسك بالدين مثلهم . والشيء الوحيد الذي كان يحفظ عائلتنا من أن تفقـد هويتها كلية هو تلك الحقيقة المدهشة ، وهي أننا مع كوننا مذابين « في المجتمع النصراني » فلم نكن نتزاوج معهم ، وكذلك كانت صلاتنا الاجتماعية كذلك منحصرة في جنسنا .

كنت دائماً أحتقر اليهودية التقدمية « المُصلَحَة » غاية الاحتقار ، لأنها في مجاهدتها لتنسجم مع الحياة الغربية الحديثة ، أصبحت لا شيء أكثر من مجموعة تفاهات فارغة ، خالية من كل معنى بالنسبة لي . وكنتيجة لتجاهلها التام للشريعة المقدسة ، فقد أصبح أتباعها يهوداً بالإسم فقط . وفي الحقيقة فقد بدا لي أن « حركة الإصلاح » كانت دوماً تنبذ كل ما في اليهودية ، ولا تستبقي إلا الإسم . وكان كثير من اليهود التقدميين ملحدين ، يتمسكون ببعض العبادات اليهودية من قبيل العادة ، أو التقليد العائلي ، أو تحت ضغط التآلف الاجتماعي .

لقد كان غرض « حركة الإصلاح اليهودية » يُقصد منه ، على الفرض ، جذب

أولئك اليهود الذين كانوا – لولا ذلك – سينشأون، ويفقدون كل أثر لشخصيتهم اليهودية ، والحفاظ عليهم ، ويعيدون بناء عقيدتهم في الصلب و المظهر ، بما يتفق والحياة الأمريكية المعاصرة . ولقد جاءت النتائج الوهمية للفكرة الكاملة « لحركة الاصلاح » واضحة تمام الوضوح ، عندما رأيت بأم عيني أنها لم تفشل في صدّ تلك الثقافة فحسب ، بل شجّعت تلك المسيرة . لقد كان الجيل الأول من المهاجرين اليهود، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا من أصول أوروبية شرقية ، متمسكاً ، متعصّباً لتدينه الشديد . إلا أن أحفادهم ، بعد أن تشرّبوا أساليب الحياة الأمريكية ، بالثقافة المدوسية العامة ، انقلبوا (دون تمييز) على الشرائع والطقوس اليهودية ، التي كانت غريبة في بيئتهم . وعلى السلطة الأبوية التي كانت تحاول أن تفرضها عليهم بالقوة . ولكنهم ، لتمسكهم بفكرة اليهودية عاطفياً وشعورياً ، لم يهجروها كلية بل أصبحوا أتباع « معبد إصلاحي » وذلك كان يرفع من منزلتهم الإجتماعية في عين الجمهور ، إذ كان الإنضمام يتطلب المال . وكانت العضوية مقتصرةً على الطبقات العليا. إلا أن الجيل الثالث لم يكن توّاقاً لنبذ محتويات اليهودية فحسب ، بل لنبذ الإسم كذلك . وهكذا ، فما كدت أبلغ سن المراهقة، حتى أزالت أمي وأبي آخر فاصل يفصلنا عن المجتمع النصراني عندما انضما إلى مؤسسة إنسانية « لا إدرية » تعرف باسم « جمعية الثقــافة الأخلاقية » وبعد سنوات، وعندما أصبحا غير مرتاحين لهذا – وكان من أسباب ذلك أن الغــالبية العظمى من الأعضاء كانت من أصل يهودي – انضما إلى « الكنيسة الموحّدة » المجاورة . ومع أن « الكنيسة الموحّدة » التي انضما إليها احتفظت بظهرها الخارجي النصراني الخلاب ، إلا أن مثلها كانت مطابقة لجمعية الثقافة الأخلاقية . وقد اقتفت أختي الكبرى الأثر حالاً عندما رأت والديّ سعيدين مرتاحين لكونهم « موحّدين » . ولربما لن يعتبر طفلاها نفسيهما يهوديين حتى ولو بالإسم . وهكذا فقد تمّت عملية « الإذابة » .

ويزعم « اليهود الإصلاحيون » عامة أن اليهود شعب مضطهد لأنهم يصرّون

على أنهم مختلفون عن جيرانهم . فإذا أزيل هـــذا الاختلاف أو التمييز فإن الإضطهاد والنزاع سيزول من نفسه . وأنا لم أجد هذه الحجة مقنعة في يوم ما . وبالأخص عندمـــا عرفت تمام المعرفة أن غالبية الملايين الستة الذين قضوا في معسكرات الإعتقال، تحت حكم أودلف هتلر النازي ، كانوا من اليهود الذائبين في المجتمع الغربي مثلنا .

ولقد 'فتنت' ، منذ طفولتي ،بعلاقة اليهود بالعرب . ولقد عرفت من الكتب العبرية التي طالعتها أن إبراهيم عليه السلام كان أباً للشعبين، فقد انحدر اليهود من نسل إبنه إسحق عليه السلام ، بينما يرجع نسب العرب إلى أخيه الأكبر إسماعيل عليه السلام ، أكانت تلك مجرد خرافة أم حقيقة ؟ إن التعبير « اللاسامية » يعني في أمريكا الكراهية لليهود . ولم يكن ذلك ليوجه للعرب أبداً ، مع أن العرب ساميون أكثر منا بدرجة كبيرة جغرافياً ، وتكوينياً ، وثقافياً . وبالمقابل فبينما ضعف التراث اليهودي السامي خلال إقامتهم الطويلة في أوروبا، فإن قرابتهم الأساسية للعرب استمرت . وفي الحقيقة فإن الكثير من اليهود الذين أعرفهم من مواطني ، بما في ذلك بعض أفراد عائلتي ، يشبهون العرب كأي عربي ، مع أنهم من سلالة اوروبية أصيلة .

وصلت الدعاية الصهيونية في أمريكا ذروتها في الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ وصاحَبَ التعاطف مع اليهود حملة منظمة في الإذاعة والصحافة ،تبثُّ الكراهية الشديدة العمياء للعرب . لقـد أحسست بفطرتي دجل الدعاية الصهيونية . ويا لخيبة أسرتي ! فقد انحزت أكثر فأكثر إلى جانب العرب . وبعد أن قرأت كل كتاب عن تاريخ العرب وثقافتهم تيسّر لي في المكتبة المجاورة لنا ، وعلى الرغم من اللهجة الجافة ، بل المعادية ، فقـد اقتنعت جازمة أن الدعاية ضدهم كانت ظالمة . فكل ما قرأت عنهم في تلك الأيام كان يثير إعجابي. وإن الميزات نفسها التي تنفّر الرجل الأمريكي أو الاوروبي العادي هي التي كانت تجتذبني .

وبمرور السنين اتضحت الحقيقة لي تدريجياً . وهي أن ليس العرب هم الذين

جعلوا الإسلام عظيماً، بل إن الإسلام هو الذي جعل العرب عظماء . فلولا النبي محمد – عليه الصلاة والسلام – لكان العرب اليوم شعباً مجهولاً كالأسكيمو أو الزولو . ولولا القرآن لكانت اللغة العربية غير ذات أهمية ، إن لم تكن بائدة . ولأن النبي محمداً كان عربياً ، ولأن القرآن الكريم أنزل بالعربية ، فإن كل مسلم في العالم عربي ، ضمن هذه الحدود ، في ثقافته دون النظر إلى جنسه أو قوميته . لقد قال الرسول ﷺ نفسه : « أحبوا العرب لثلاث: لأنني عربي ، ولأن القرآن عربي ، ولأن حديث أهل الجنة عربي »[1] .

إن الكثير من مثقفينا المصريين يشجبون هذه التعاليم العربية الأصول على أنها إقليمية ، تصلح للمجتمع المحدود الذي عاش فيه الرسول ﷺ ولذا فهي يجب أن تطرح كشيء بال . إلا أن الأصل العربي للرسول ﷺ في نظر المسلم التقي ، لم يكن اعتباطاً . فلولا إرادة الله ، لربما كان رسولنا يونانياً ، أو رومانياً ، أو انجليزياً . وبالتأكيد يجب أن يكون في الأمر سبب لاختيار الله عربياً ليختم به عهود النبوّة ، مفضلاً عن أيّ من أية أمة أخرى .

والصلة بين اليهودية والإسلام أقوى منها حتى بين الإسلام والنصرانية . فإن كلاً من اليهودية والإسلام يشتركان ، على العموم ، في عقيدة التوحيد المتشدّدة ، والأهمية العظمى للانقياد الدقيق لشريعة السماء ، كدليل على خضوعنا وحبنا للخالق عزّ وجلّ ، ونبذ الكهنوت والتبتل ، والرهبنة . وفي الشبه الأخاذ بين اللغة العبرية والعربية . حتى أن المنهاج الثقافي الذي أوجدته اليهودية الصحيحة والإسلام ليس بينهما اختلاف كبير . فالصبي اليهودي الذي يرتّل التوراة والتلمود في أكاديمية الأحبار في نيويورك لن يشعر بالغربة في مدرسة المسجد . وكذلك فإن الحبر يستطيع أن يعيش كما لو كان بين أهله وهو بين طائفة من العلماء يتدّارسون الشريعة الالهية .

---

(١) البيهقي .

إن الدين في اليهودية مختلط بالقومية . ويجد الانسان صعوبة في التمييز بينهما وإن اسم « اليهودية » مشتق من « يهودا » – سبط – . واليهودي هو فرد من سبط يهودا . وحتى الاسم لهـذا الدين لا يحمل أي معنى لرسالة روحية عالمية . فاليهودي ليس يهودياً بفضل اعتقاده بوحدانية الله ، وضرورة اتباع هديه المنزل للبشرية . بل لمجرد أنه حدث أن ولد من أبوين يهوديين . فإن أصبح ملحداً معروفاً ، فإنه لن يعدو أن يكون يهودياً في نظر قومه اليهود . وهكذا ، فإن إفساداً كبيراً بالقومية ، جعل هذا الدين يفلس روحياً في جميع مظاهره . فالإله ليس إله كل البشر . بل إله إسرائيل . والكتب السماوية ليست وحي الله للجنس البشري عامـة . بل هي في الدرجة الأولى كتب التاريخ اليهودي . وداود ، وسليمان ، عليهما السلام ، ليسا رسولين لله بالمعنى التام ، بل هما ملكان يهوديان ليس إلا . والخلاص عند اليهودي لا يكمن في الآخرة كما يكمن في استعادة فلسطين. وباستثناء « يوم كفير » – يوم كفـّارة اليهود أو توبتهم – فإن الأعياد والعطل التي يحتفل بها اليهود ، كيوم هانوكاه ، ويوريم ، وبيساش – هي أيام ذات أهمية قومية أكثر منها دينية . ونتيجة لذلك ، فإن المسيح ويحيى – عليهما السلام – كُذبا واحتقرا في قومهما كمبتدعين منشقين . لأن الرسالة التي جاءا بها لم تتفق مع الشعور القومي السائد آنذاك . ولذلك فقـد نزع الله النبوّة من بني إسرائيل وأنعم بها على أشقائهم العرب .

وكما هو متوقـّع فقد كذّب اليهود نبينا الكريم ﷺ ورسالته بعنف شديد. لقد كانت ضربة قوية لكبريائهم القومية أن يختار الله عربياً أمياً رسولاً له .. يقول ناثان اوزبل في كتابه « تاريخ الشعب اليهودي المصور » ص ٩٣ المنشور في نيويورك سنة ١٩٥٣ :

« إن الدين الاسلامي ، الذي جاء به محمـد في القرن السابع الميلادي ، كان كالنصرانية في نتاج الديانة اليهودية . ومحمد – كالمسيح – لم ينو إيجاد دين جديد. فقد أعلن عن نفسه كنبي يهودي . وسواء من قبيل الاقتناع أو مقتضيات الحال

ـ وبدافع غريب عنه قطعاً ـ فإن محمداً في بداية حياته كنبي ، كان يخاطب في مواعظه الدينية يهود الجزيرة العربية خاصة . ولقد اقتبس الكثير من القصص والشرائع التي في القرآن من التلمود والمدراش ولكن بطريقة محرّفة مدهشة . فاستعمل في تأليف سوره الشاعرية القصص الشهيرة من العهد القديم اليهودي ، لآدم ، وإبراهيم ، ولوط ، ويوسف ، وموسى ، وطالوت ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، وأيوب ، ويونس . ولكن عندما تصدّى له يهود المدينة ، العارفون بكتاباتهم المقدسة ، ليفضحوا وصمه للتوراة كفرية ، أعرض عنهم محمد بفظاظة بعد مشادّات عنيفة مع أحبارهم . وجاءه جبريل مرة أخرى في الوقت المناسب ، وأمره أن يغيّر القبلة من بيت المقدس إلى مكة . وبعد قليل ، انتقم لما لحقه من الأذى من ألسنة اليهود بالحـــديد والنار . ومع أن قرى اليهود الصغيرة ، في الجزيرة العربية ، كانت كثيرة وقوية التحصين ، إلا أنه استطاع أن يقهرها بالحيلة والهجوم العنيف . فضُربت أعناق آلاف اليهود ومُثّلَ بهم » .

وهكذا ، فقـــد أغضب تعاطفي المتزايد مع المسلمين ومثل الاسلام اليهود الآخرين الذين أعرفهم ، والذين اعتبروني خائنة لهم بأخس طريقة ممكنة . فكانوا يقولون لي : إن هذا التنكر لا يمكن إلا أن يكون بسبب العار الذي ورثته عن أجدادي ، وللكراهية الزائـــدة لقومي . وكانوا يحذرونني من أنني حتى لو حاولت أن أصبح مسلمة فلن أقبل ـ بين المسلمين ـ أبداً . وقد ثبت أن هذه المخاوف ليس لها أساس . إذ أنني لم أعيَّر أبداً من أي مسلم بأصلي اليهودي . وما إن أصبحت مسلمـة ، حتى استقبلت بالترحاب الشديد من كل المسلمين ، كواحدة منهم .

ويستعلي اليهود بأنفسهم اليوم على أي شيء آخر . وذلك لبقائهم واستمرارهم كشعب ، رغم الاضطهادات والمذابح المتعاقبة ، على مرّ العصور ، التي قصدت استئصال شأفتهم . إنهم لا يملّون من التباهي كيف أنهم عاشوا بنجاح ، بينما أمم لا تحصى ، غيرهم ، أشد منهم قوة بعددهم وجمعهم ، قد بادت . ولكن

بما أن مظاهر اليهودية قد ضعفت ، وذلك بسبب انهزام اليهود أنفسهم تحت وطأة « الدنيوية » و « المادية الحديثة » ، فهنا يأتي السؤال : لقد عاش اليهود في بقائهم ، ولكن لأية غاية عاشوا ؟ ما من أحد من اليهود الذين عرفتهم في مجتمعي الوطني فكر يوماً في إلقاء هذا السؤال على نفسه . فكيف بالاجابة عليه ؟؟ وهم ، كغيرهم من اليهود المعاصرين في كل مكان، يعتبرون الاستمرار في البقاء ، بالمفهوم الحيوي والسياسي الزمني المجرد ، كافياً تماماً . فيا لسخرية الأقدار في هذه الأمة من القساوسة ، التي كانت رسالتها الوحيدة « كشعب الله المختار » هي أن تنير العالم بمعرفة وحدانية الله وأوامره السماوية .

إنني لم أعتنق الاسلام لكراهيتي لشعبي أو تقاليد أجدادي . لم تكن رغبة في النبذ بقدر ما كانت رغبة في التحقيق . كانت ، بالنسبة لي ، تعني التحوّل من عقيدة منطوية محدودة ، إلى أخرى ثورية ، حركية ، لا تقنع بشيء أدنى من سيادة العالم . وهكذا ، فإنني أستطيع القول مع واحد آخر من بني إسرائيل الذين اختاروا السير في نفس الدرب .

« إن جدي الأول ، إبراهيم ، كان سيدرك تماماً غاية وجودي هنا في مكة . ذلك أن حيرتي الضئيلة ، بالنسبة لمحنته المرغبة ، لم تكن مشكلة . كان سيدرك كما أدركت الآن، أن المعنى لكل ما همت فيه يكمن في رغبتي في اكتشاف نفسي باكتشاف عالم صلته بالمسألة العميقة للحياة ، وبالحقيقة نفسها ، تختلف كلية عما نشأت عليه في طفولتي وشبابي . فمجيئي إلى جزيرة العرب ، ألم يكن في الحقيقة عودة إلى الوطن ؟ كانت عودة للقلب الذي نظر خلفه، إلى بيته القديم، وراء منعطف من آلاف السنين،وهو ينظر الآن إلى هذه السماء — سمائي أنا — بغبطة موجعة . ذلك أن هذه السماء العربية ، الأكثر ظلمة وعلواً وبهجة بنجومها من أية سماء أخرى ، تظل تحتها موكباً طويلاً من أجدادي .. إنني أرى الآن كم كانت طريقي سهلة مستقيمة رغم طولها . طريقي من عالم لم يكن لي ، إلى عالم هو لي حقاً .

« الطريق إلى مكة .. محمد أسد » .

الدنيوية النصرانية
في ضوء القيم الاسلامية

إن الهوّة السحيقة ، التي تفصل النصرانية عن الإسلام ، هي في الأساس « تقبّل الدنيوية ». ونعني « بالدنيوية » تلك الفلسفة التي تزعم أن العقيدة الدينية تختص بأحكام لقطاعات جزئية في حياة الإنسان ، وتنحيها بالذات عن أي تأثير حاسم في المصالح العامة. و« الدنيوية » التي تحصر الدين في نطاق الشؤون الخاصة الفردية المحضة ، هي أساس المدنيـــة الغربية الحاضرة ، وهي أصل كل انحراف لمبادىء النصرانية عن الإسلام .

وبينما يدّعي اليهود أنهم حمـــاة الشريعة الإلهية كما نزلت على موسى عليه السلام ، أو هم – على الأقل – يحتفظون بالاعتقاد القائل بأن شريعة الله يجب أن تُطاع ، نجدهم قـــد ارتكبوا الخطأ المميت عندما زعموا أن ذلك ملزم لهم وحدهم . ووصلت هذه العنصرية ذروتها بعد نفيهم إلى بابل ، عندما سمح لليهود ، في عهد المليك الفارسي الطيب (كورشى) ، أن يعودوا إلى وطنهم ، وعنـــدما رفض زعيمهم (عزرا) أن يعتبر أولئك السامريين الذين تخلّفوا في فلسطين من جنسهم. وبالرغم من أن السامريين يقرّون بأنهم متعصبون للتوراة ، إلا أن عزرا اتهمهم بالكفر لأنهم تزاوجوا مع غير اليهود ليس إلا . ومع أن أتبـــاع المسيح عيسى

عليه السلام ، أدركوا أن « الحقيقة السماوية » عالمية للجنس البشري على السواء ، إلا أن الفكرة التي سادت نهائياً هي ضرورة نبذ الشريعة الموسوية ، وذلك لإزالة الحواجز بين اليهود وغيرهم . وهكذا فإن أتباع المسيح عليه السلام نسوا الرسالة ، وبدلاً منها تعبّدوا الرسول .

إن القرار القائل بأن النصرانية يجب أن لا تصوغ مدنية العصر السائدة ، بل يجب أن تُصاغ هي بهذه المدنية ، فتح الباب على مصراعيه لبدع ومفاسد غير محدودة . والعقائد النصرانية ، كعقيدة الثالوث الأقدس الإله ، التي يُزعم فيها أن الإله أبدى رحمته للبشر ، بظهوره بصورة إنسان في شخص ابنه عيسى المسيح عليه السلام ، وأن المسيح قد كفّر عن خطايا البشر بمتاعبه وبموته المزعوم على الصليب ، وأن صفة الإنسان شرّيرة بالوراثة ، وأن جميع النـــاس يولدون آثمين ، وذلك بسبب الخطيئة الأولى لآدم وحواء ، ولا يتحقق خلاصهم إلا بالإيمان العميق بالمسيح كمخلّص لهم ، كل هــذه العقائد غريبة عن التراث اليهودي الديني . وهكذا ، فإن العلماء المسلمين يقولون بأن هـــذه المبادىء – في النصرانية – اقتبست من الطقوس الوثنيــة الغامضة ، التي كانت واسعة الانتشار في أرجاء الامبراطورية الرومانية . وإن نبـــذ النصرانية للتعاليم الموسوية ، القاضية بتحريم الصور والتماثيل ، وتفضيلهم التراث الفني اليوناني عليها ، عزّز عقيـدة ألوهية المسيح عيسى عليه السلام وقوّاها . ويجب أن نذكر في هذا المقام ، أن العهد النصراني الجديد – الإنجيل – لم يعترف به أبداً بلغة عيسى المسيح عليه السلام ، والتي كانت الآرامية ، وهي لغة سامية أخرى وثيقة الصلة بالعربية والعبرية ، بل كتب أول ما كتب باليونانية بدلاً منها . أوَليس غريباً أن تسجل جميع التراجم الحاضرة للعهــد الجديد ، كل حواري عيسى المسيح عليه السلام بأسماء يونانية ، ورومانية ، كما لو كانوا يأنفون من أسمائهم العبرية ؟ وأن تبديل (شاول) لاسمه إلى (بولس) ذو أهمية عظمى لهذا الاعتبار ؟ ويدلّ دلالة واضحة على نبــذه للتراث العبري لإسرائيل وتفضيله للثقافة اليونانية والرومانية ؟ وبالمثل ، فإن الأسلوب الأدبي للعهد الجديد

لا يأخذ بأسلوب البساطة القوية في الكتب العبرية ، ويفضل السفسطة الغامضة ، التي تتميز بها الفلسفة الهلينية . إن أعظم عيدين يحتفل بهما النصارى — عيد الميلاد وعيد الفصح — هما من أصل وثني على الإطلاق . وإن مـــا يسمى « بالتقويم النصراني » ، بل الأسماء ذاتها التي اتخذت لأيام الأسبوع وأشهر السنة ، لتمجيد آلهة اليونان والرومان ، تنمُّ عن أصلها الوثني . وإن نظام الكنائس الكهنوتي كان، ولا يزال، يشكّل مباشرةً تبعاً للإصلاحات الإدارية للامبراطور الروماني الوثني ديوكليتشيان . وهكذا ، فإن أقدس مدينة للغالبية العظمى لمسيحيي العالم ليست هي القدس ، ولكنها روما الوثنية . وأي شيء أكثر تناقضاً في المسميات من « الكنيسة الكاثوليكية الرومانية » ؟

امتزجت « المثل الدنيوية النصرانية » ، بعـــد الإصلاحات البروتستانتية ، بالتقاليد القومية اليهودية المحدودة ، فولدت المدنية الغربية كما نعرفها اليوم . . .

جاء في كتاب « الإسلام في التاريخ الحديث » لمؤلفه ولفرد كانتويل سميث ص ٢٢٩ — ٣ ما يلي :

« إن المدنية الغربيـــة — منفردة — بين حضارات البشر العظمى ، هي حضارة إزدواجية . فهي مركبة بجلاء من مجموعتين من التقاليد لم تندمجا أبداً ، أولاهما من اليونان وروما ، والأخرى من فلسطين . لقد عاشت هاتان المجموعتان من التقاليد ، وتطورا جنباً إلى جنب عبر تاريخ أوروبا كله . تتناقضان أحياناً وتشدّان إلى بعضهما أحياناً، وتلتحمان أحياناً أخرى . ولكنهما لم تنصهرا أبداً . ومع أن كلا منهما أثرت في الأخرى إلى حد بعيد ، إلا أنهما بقيتا متمايزتين . لقد حملت النصرانية إلى عالم تام التنظيم ، وانقضت القرون التي كونت النصارى ، تحت حكم أناس غيرهم . ومع أن العقيدة النصرانية كانت ، في وقت ما ، عقيدة الجماهير العاملة في الامبراطورية الرومانية إلى حد بعيد ، إلا أن الدّين النصراني قد ابتدأ في عالم له شرائعه الدنيوية الخاصة، ولغته الخاصة ، وحكومته، وبناؤه الاقتصادي. فبينما شغل النصارى أنفسهم بحياتهم الخلقية الخاصة ، نجد أن مهمته

إيجاد نظام اجتماعي قد تمت منذ عهد بعيد . وأن مهمة استمراره وقعت على عاتق آخرين . وفي الواقع ، فإن مجتمع الكنيسة ، لمدة ثلاثة قرون ، كان لديه القليل ليقول : « كيف يجب على التاريخ أن يسير » ولم يكن تشكيل المسيرة التاريخية جزءاً من مخطط النصرانية . وحتى بعد انتهاء عصور الاضطهاد ، وعندما أصبح النصارى أنفسهم يشكلون المجتمع ، لا أقلية تتطلب الحماية منه ، وأصبحوا ، بمرور الأيام ، في مراكز السلطة والقوة ، فقد اتخذوا النظام الاجتماعي الموجود كما هو . لقد أبقوا عليه و كأنه شيء عرضي بالنسبة لعقيدتهم ، ولربما رأوا أن من واجبهم ، كنصارى أن يصلحوه ، لا أن يستبدلوه بشيء جديد .

فبينما لا يقبل الإسلام إلا بمجموعة منفردة من القيم ، متكاملة تماماً في نفسها ، وبمعيار واحد للحقيقة ، ويأمر المؤمنين بأن يعيشوا حياة متكاملة ، لا يقبلون شيئاً إلا إذا كان منسجماً ومتسقاً تماماً مع ذلك النمط من الحياة ، نرى النصرانية تبدو للعقلية المسلمة مضطربة ، متفككة ، غير واقعية عملياً ، لا تصلح عند التطبيق ، أن تعمل البتة ، ولكن علينا نحن المسلمين أن نذكر أن ما نعيبه على النصارى كنقائص يعتبرونه هم ذروة الفضيلة ..

يقول كنيث كراج في كتابه « نداء المئذنة » :

« إن الكثيرين من الكتّاب المسلمين ، في الماضي والحاضر ، يعيبون على النصرانية تقصيرها في التحكم في المدنية الغربية وتنظيمها . فهي لم توقف الاستعمار ولم تصحح طرق الاستغلال ، بل على النقيض من ذلك ، فقد استغلت كوسيلة مساعدة ومشجعة لسيطرة الغرب على العالم ، وتُفهم الكنيسة ، في العهد الجديد — الانجيل — على أنها مجتمع داخل مجتمع . ولم تعرف ، في كل تاريخها ، على أنها مرادفة للمجتمع البشري كله . فهي مبنية على فكرة الخلاص من الخطيئة . وهي لذلك تتضمن تحليلاً للطبيعة البشرية كطبيعة آثمة عاصية . فهناك الانسان « الطبيعي » بتمرده وعصيانه ، وهناك الانسان « الروحي » بالمغفرة والانبعاث الروحي . ويفهم النصراني أن الانسان يحدث أن يقوّم بنفسه وعن طريق الايمان

فالصلاح ، والصدق ، والمحبة ، ليست لها مفاهيم لدى الانسان الطبيعي . بل هي من مفاهيم الانسان التي تكونه النصرانية من جديد . ولأن شروط التحويل هذه شخصية ، فهي إذن ليست اجتماعية . فالنصرانية تختص بأناس مؤمنين وتتأصل فيهم . فهي لا ترادف ، في مفهومها أي مجتمع أو ثقافة . والنصرانية تعتبر الناس لا الأشياء ، غايتها النهائية . وإنجيل الرحمة لا يفترض أن الانسان يمكنه أن يبلغ الكمال باتباعه الشريعة . وتعتقد العقلية النصرانية دائماً أن « مجتمع المخلّصين » سيبقى أبداً داخل الأمة . ولن يكون مرادفاً لها كلها . وإن ذلك الكل ، وهو العالم الدنيوي سيبقى حراً في تكوين نفسه . ولن نقدر ، بالتشريع أو الاصرار أن نجعله يماثل المسيح. وذلك هو السبب الجوهري الذي يجعل العقيدة النصرانية تقرُّ بالتمييز الكامل ، وبالفصل أيضاً ، بين الدين والدولة على ذلك الاعتبار . والنصرانية تتفق مع الإسلام في أن مطالب الإله كلية ، ولا يمكن استثناء شيء متعلق بها . ولا توافق على أنها يمكن أن تقابل بنظام ديني سياسي مؤسس خارج عنها » .

والمفسرون المعاصرون للنصرانيـة ، وبخاصة الطوائف البروتوتستانتية المتحررة ، يقرُّون بالمبدأ الانساني الدنيوي القائل : « بأن كل إنسان يجب أن يعطى الحرية المطلقـة في الإيمان بما يشاء ، وأن يعمل ما يريد ، طالما أن ذلك لا يؤذي جاره » وفلسفة « الحرية الفردية » هـــذه ، التي هي أساس تكوين الحكومات الديمقراطية المتّبعة في انجلترا وأمريكا ،تعمل فقط بسبب اللامبالاة بالدين السائدة هناك . ولو اختلف الحال فإن المجتمع سيرتمي في فوضى لا أمل معها . وذلك لأن الانسان ، وهو مدني بالطبع ، سيحاول أن ينقل للآخرين ما يعتقد بصحته ، وسيجاهد ضد خصومه ، لينشر معتقداته الخاصة ، وبالتدريج ستنتصر مجموعة من الاعتقادات وتسود . ومن هنا تبدو المغالطة في القول بأن الدين منحصر في الإختصاصات الفردية المحضة . فلا يستطيع فرد أن يعيش معزولاً عن المجتمع ، غير متأثر ببيئته . فإن كل مـا يعمله الفرد سيؤثر ، بكل

تأكيد ، على من يعيشون معه ، وبالتالي ، فإن كل ما يعمله المحيطون به سيكون له الأثر المباشر عليه. فكيف يمكن عزل الشئون الفردية عن الشئون الاجتماعية؟

وما دام الانسان مدني بالطبع ، فلا يمكن لأية قيمة أخلاقية أن تنتعش أو تحيا دون أن تنتظم في إطار نظام إجتماعي . ومن هنـــا جاء نظام الكنيسة النصرانية بنظامها الكهنوتي . وكان دمجها للسلطة الروحية بالسلطة الزمنية منذ عهد الأمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣ ، إلى بداية الاصلاحات البروتوستانتية . وبالتأكيد، فإن النصراني الروماني الكاثوليكي، بخلاف البروتستانت المتحررين لن يزدري هذه الحقبة من تاريخ أوروبا . ولكن سيلتفت إليها بحنين زائد بل سيعتبرها المثل الأعلى · ومع أن الكنيسة الكاثوليكية تعترف « بالدنيوية » كمبدأ ، إلا أنها ، بلا ريب ، لا تؤيدهـــا في كل أمر ، كما يفعل البروتستانت المتحررون، وعلى النقيض من البروتستانتي المتحرر فإن الكاثوليكي ، وهو يعلم أن التدهور الاجتماعي والتشريعي المؤقت للسلطة النصرانيـة حدث في نفس الوقت الذي ازداد فيه الإلحاد ونمت المادية ، لا يؤمن بالحرية الفردية المطلقة . ذلك أن المؤمنين بدين لا يقرّون بينهم خصوماً معتدين ، يعملون لهدم دينهم . وإن الحق لا يقبل ، دون مبالاة ، الدعوة إلى الباطل على حسابه . وإن القبول المطلق لمبدأ حرية الفرد يعني جوهرياً ، عدم مقاومة الشر . ويعني أيضاً اعتقادنا أن الحق سينتصر دون بذل الجهد من جانبنا .

وهنا حتماً يرد هذا السؤال:

بما أن صالح الفرد وصالح المجتمع متشابكان ،فأين هو الحدّ الفاصل بالذات الذي يميز بين ما هو ديني ومـــا هو دنيوي ؟؟ وبتعبير آخر : أين نجد السلطة الالهية التي تقرّر ما هو لقيصر وما هو لله ؟

« العـالم المحمـدي »

مثل من الاصطلاحات التي تشوّه الاسلام

إن المقـــالة البارزة التي نُشرت في عدد مارس سنة ١٩٦٢ لصحيفة العطلة (Holiday) في فلادلفيا ، للكاتبة الأمريكية المعروفة « اوبري مينون » ، وهي من أصل هنـــدي انجليزي ، هي نموذج للأسلوب الذي تشوّه به الإسلام لقرون عدة في اوروبا وأمريكا. ونحن نستطيع أن نؤكد أن كل تحريف هناك قد تضاعف مرات عديدة ، وسيستمر كذلك في المستقبل .

إن عنوان هـذه المقالة نفسها « العالم المحمدي » هي تسمية خاطئة . فنحن « مسلمون » ولسنا « محمديين » ، وإن هـذه التسمية « المحمدية » و « المحمدي » ابتكرها الصليبيون ليثيروا الكراهية للإسلام في اوروبا ، وذلك بنشر الفرية القائلة بأن رسولنا الكريم محمد ﷺ ، كان يسمى لأن يعبده المسلمون كما يعبدون الله. وهذا هو السبب الذي من أجله يأبى المسلمون بشدّة أن يُسمّوا « محمديين». لقد وُجد الإسلام منذ العصور الأولى. فكل الأنبياء العظماء : إبراهيم ، وموسى وعيسى ، عليهم السلام ، كانوا مسلمين حقاً . والإسلام يعني الخضوع لإرادة الله ، وكل مَن يختـــار ذلك ويريده هو مسلم . ولذلك فإنا لن نفكر مطلقاً بتسمية عقيدتنا باسم « محمد » .

واوبري ميفون، كغيرها من أعداء الإسلام في كل مكان، تذكر زيجات الرسول المتعددة كدليل على حبه الشديد للنساء. إن الرسول الكريم ﷺ، بعد موت زوجته خديجة رضي الله عنها، وفي العشر الأواخر من عمره، كان يتزوج لسببين: أولها - لكي يرعى الأرامل اللواتي قضى أزواجهن في الجهاد من أجل الإسلام، واللواتي لم يكن لهنّ مَن يرعاهنّ. وثانيها - لكي يقوّي أواصر الصداقة والتماسك بين العشائر والقبائل. إن رجلاً في الخامسة والعشرين من العمر يقصد إشباع غرائزه ليس إلا، لن يتزوج امرأةً في الأربعين من العمر، ترمّلت مرتين، ثم يبقى وفياً لها كل الوفاء مدة ربع قرن، حتى بعد وفاتها، ويحفظ ذكراها للنهاية. وإن رجلاً يتزوج للذاته الحسية، لن يتخذ زوجاته من المعدمات والمتوسطات في العمر، والأرامل المسنّات.

وكما هو متوقع، فإن تركيزاً كبيراً يدور حول ما يسمى «بالمنزلة المنحطة» للنساء المسلمات. لقد غمرتني صديقاتي المسيحيات بالزيارات والمكالمات الهاتفية عندما علمنَ أنني سأعيش في الباكستان، يحذرنني من الشقاء المرعب الذي سأقاسيه هناك حتماً. وذلك بسبب «انحطاط المرأة في الإسلام»، «ومنزلتها المنحطّة» في المجتمع الإسلامي. وكم سرّتني المفاجأة عندما وصلت ديار المسلمين ولم أجد شيئاً من ذلك. وبخلاف ما تقوله أجيال من الإرساليات المسيحية ومناصريهم للعالم غير الاسلامي، فإنني لم أشاهد في أي بيت مسلم أي دليل على انحطاط المرأة، ولم أرَها تعامَل معاملة قاسية أو ذليلة بأي شكل. فأينما رحلت في بلاد العالم الإسلامي، سواء في مصر، أو السودان، أو العربية السعودية، أو الباكستان - وبغضّ النظر عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية - وأينما حللت ضيفة في بيوت المسلمين، فقد وجدت النساء المسلمات يحظَينَ من رجالهن بكل حبٍّ واحترام وتقدير. وأنا نفسي الآن أجد ذلك كزوجةٍ وأمٍ وفردٍ من عائلة باثانية [1] هنا في لاهور.

---

(١) نسبة إلى الباثان، وهم قبائل معروفة في شمال باكستان.

وأكثر من ذلك ، تصر « اوبري مينون » – وبدون تروٍ – أن رسولنا الكريم ﷺ كان يبشر بجنة حسية ، ليجذب الأتباع . ومن الطبيعي أن ذلك هو النوع في الجنان – كما تقول – الذي يروق سكان الجزيرة العربية الصحراوية. والحقيقة أن ما يسمى « الجنة الحسية » هذه تنحصر في عقول الكفرة العفنة . إنها أبعد ما تكون عن أفكار المسلم الصحيح . أمِنَ المعقول أن العدد الذي لا يحصى من شهدائنا وأوليائنا ، قضى في سبيل فردوس لا يحقق لهم إلا الشهوة الجنسية ؟ وهل يعقل أن يضحي الإنسان بما يملك وبمن يحب ، ثم بالنفس ، لينغمس في ملذات الجسد ليس إلا ؟ إن كان هذا الإشباع الجنسي هو كل ما أرادوا ، فكان بالامكان أن يتيسر لهم بسهولة ووفرة في هذه الدنيا. فلا المسلمون الذين عرفتهم ، ولا الأدب الإسلامي الذي قرأته في حياتي ، يفسّر الآخرة بطريقة مادية حسية ، كما تفعل أجيال الإرساليات المسيحية . إن جميع المسلمين يعرفون من القرآن الكريم ، ومضمون الأحاديث النبوية الصحيحة ، أن السعادة الأخروية ستكون روحية وبدنية . وأن منتهى سعادتنا سيكون برؤية الله القدير .

ولقرون خلت ، دأبت الإرساليات النصرانية في اوروبا وأمريكا على تشويه الاسلام « كدين حسي » . حتى أن كل العالم الإسلامي صار يعتبر ذلك كشيء بديهي . فلا غرابة إذن إن وقعت « اوبري مينون » في مقالتها تلك في نفس الهاوية . وهي لا تترك فرصة تفوتها لتقنع قرّاءها أن الإسلام دين حسي بقيم أخلاقية دنيئة . وأن المسلمين ، تبعاً لذلك ، منحلّون مُحبّون للمسرّات . ولا شيء أبعد من ذلك عن الحقيقة من بين جميع الافتراءات التي يبثها المبشرون النصارى . فكيف يكون هذا الدين حسياً ، وهو الذي يفرض صلوات خمساً يومياً على كل من يؤمن به ، ويفرض صياماً شديداً لمدة شهر كامل ، ويفصل بين الجنسين بعد سن البلوغ ، ويحرّم تناول أي من المسكرات ، ويمنع القمار ، وألعاب الحظ ، والتصوير ، والموسيقى ، والرقص . وهو الذي يفرض أقسى العقوبات الشرعية على الجنس المنحل ؟ فهل هناك دين آخر متشدد كهذا الدين بما في ذلك المسيحية؟

والإسلام متشدد ، ولأبعد حد ، في طلبه الامتثال التام لكل مثله .

لقد اغترّ الرحالة والكتّاب الغربيون بجمال الشرق وسحره ، فأخذوا من بيئته بعض المظاهر المنحطّة لبعض البلدان الإسلامية ، ثم جعلوا ذلك صفة مميزة عامة لكل المسلمين . ولذلك ، نجد أن الرجل العادي في اوروبا وأمريكا لا يعرف إلا ترجمة « ألف ليلة وليلة » – والمعروف أيضاً بليالي العرب – لريتشارد بيرتون . وترجمة « رباعيات الخيام » بالانجليزية ، لفتز جيبران . وذلك من بين الأدب الإسلامي الهائل المتوفر بالعربية ، والتركية ، والفارسية ، والأردية . لقد شاعت هذه المؤلفات في البلدان التي تتكلم الانجليزية ، حتى أصبحت أدباً انجليزياً كلاسيكياً . ولربما يدهش الغربيون عندما يعلمون أن ما يسمى بألف ليلة وليلة ، ليس له قيمة أدبية تُذكر في البلاد التي تتكلم العربية . ولا يعتبر أكثر من أدب رخيص . وبالمثل ، فإن عمر الخيام ، في موطنه الأصلي ، يعتبر ملحداً . ويزدرى شعره كشعر محدود الجدارة . وهذا الإيضاح يجب ألا يدع أية بلبلة لدى أية عقلية حول موضوع هاتين المدنيتين ، وأيتهما لها المنزلة العليا بمثلها .

وتدعي « أوبري مينون » بكل حمق ، كأسلافها الكثيرين ، إن عقيدة التوحيد في الاسلام ليست أصيلة ، ولكن محمداً ﷺ أخذ هذه الفكرة من اليهود . إن التقليد السائد لدى المتعلمين اليهود ، أن يصفوا كل ما يوافق اليهودية في الاسلام بأنه مأخوذ منهم . ولقد أنفق العلماء اليهود الكثير الهائل من الوقت والجهد ليحاولوا إثبات ما أخذه نبينا الكريم من « التوراة » و « التلمود » ، « والمدراش » ليشكل منه القرآن . ويعزي أي تناقض بين القرآن من جهة والكتب اليهودية والنصرانية المقدّسة من جهة أخرى إلى ذاكرته ومعرفته المحدودتين . وهكذا فقد تخبط النصارى واليهود قروناً عدة ليثبتوا أن القرآن الكريم ليس كتاباً سماوياً مُنزلاً ، بل مجرد كتاب ، كأي كتاب آخر ، مليء بالأخطاء . إن رسولنا الكريم كان أمياً ، لا يعرف إلا لغة قومه العربية . فكيف يتأتى لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من الكتب اليهودية

والنصرانية المقدسة ، في حين أنه لم يكن يستطيع القراءة ، وإن هذه الكتب لم تكن ميسرة إلا بلغات غريبة ؟

ويظهر جهل الكاتبة في أبشع صوره في موضوع القرآن . لقد كتبت تقول: إن آيات القرآن دونت واحدة بعد أخرى على عظام الغنم ، ثم خلطت كيفما تأتي في صندوق دون اعتبار لترتيبها. واحتار المسلمون بعد موت الرسول كيف سيجمع القرآن . فرتبوا السوَر بصورة إعتباطية ، وبطريقة ميكانيكية ، واضعين السور الطوال في أوله والقصار في آخره. وعلى النقيض مما قالته الكاتبة، فإن كل آية كانت تنزل على رسولنا كان الوحي الالهي يخبره بالموضع المحدّد لها . ولقد اتبع الصحابة تعاليمه بكل أمانة وصدق ، ولم يبقَ للصدفة شيء .

وتصف « أوبري مينون » مشاهداتها للجيل الجديد الذي يدرس القرآن في الجامع الكبير في دمشق ، والجامعة الأزهرية في القاهرة ، لتقنع قراءها بضيق أفق العقلية المسلمة .. وهي تشارك جميع المفكرين الماديين في العصر الحاضر الاعتقاد بأن إيماننا بمحمد كخاتم الأنبياء ، وبالقرآن كآخر الكتب المنزلة للبشر، هو أكبر نقطة ضعف عندنا. إن الحقيقة إذا عرفت مرة لا يمكن تغييرها. وإن الايديولوجيات العصرية كلها تتميز بأنها تعتبر التطور، لأجل التطور، فضيلة عظمى. وإن أي اعتقاد ذي حقيقة خالدة ، أو قيمة عظمى ، يعتبر من مخلفات القرون الوسطى . ومن عادة العصر أن يعتبر الحقيقة كشيء غامض ، ولا يمكن إدراكها أبداً . ولذلك ، فمن الضروري للبشرية أن تعدّل مقاييسها للأخلاق والحقائق ، بما يتفق مع كل حالة تقابلها. ولقد أدّى ذلك إلى الفوضى الأخلاقية والروحية الشاملة التي نعيشها اليوم .

والقرآن الكريم هو أفصح ردّ على مفاسد العصر الحاضر . وهو بعيد عن العتق والبلى . فحيثما طبق الاسلام تطبيقاً تاماً نجد ثورة تصم كل ما سواها بالخزي . فتتلاشى كل أشكال الطغيان والجمود وكأنها لم تكن . ففي اللحظة

التي يمتنع فيها الناس عن الخضوع لأمثالهم ، ويخشون الله فقط ، فإن هذا العالم سيتغير كلية وسيستقيم .

وتعد « لوبري مينون » ضعف المسلمين في الوقت الحاضر كدليل على عدم صلاحية الإسلام . وعلى هذا أجيب : إذا وصف طبيب عظيم دواءً فعّالاً ليعالج مريضه من سقمه ، ولكن المريض يرفض تناوله ، فعلى مَنْ تقع اللائمة ؟

وعند هذا الحدّ يبرز أعظم سؤال وهو : لماذا يتلهّف الكتّاب الغربيون على المضي إلى أبعـد حد في إيذاء الإسلام ؟ لا جدوى من مجرد شجب أقوالهم كلامياً ، والرد عليهم ، في سورة الغضب . بمكيالهم الذي يكيلون لنـا فيه . يجب علينا أن نتفهّم ما الذي يدفعهم ، بالتحديد ، لما يفعلون .

وقد ورد في كتاب « الإسلام في التاريخ الحديث » لويلفرد كانتول سميث ما يلي :

« إن العالم الإسلامي لا يدرك الجهود الجادّة المضنية التي يبذلها الغرب لفهم الإسلام . وليس عندهم بالتأكيد فكرة عن صعوبة هذا الفهم الزائدة . والحقيقة الواقعة ، إن الفرق بين المدنيتين العظيمتين للعالم دقيق ، وفي نفس الوقت عميق . فلا الثقافة الغربية ، في أي مستوى ، شاملة حتى تكون فعّالة ، ولا الثقافة الإسلامية أدركت لغاية الآن ، أبعاد الفجوات الثقافية . فمن الجانب الاسلامي ، كان هناك قصور في الادراك عند المسلمين ، بل وتقبّل صعوبة الفهم للثقـافة الاسلامية بالنسبة لغير المسلمين . وعلى الأخص الدين الذي يميز هـذه الثقافة . فالاسلام ، بالنسبة للمسلم ، قويم ، واضح ، معقول ، بيّن تماماً . وسوء الفهم للإسلام بالنسبة له يبدو شيئاً مفزعاً ... وحمقاً وخبثاً محضاً وهو ، أي المسلم لم يميز ، ولم يقبل الافتراضات السابقة التي يرتكز عليها النظام ، والتي يعتبرها المسلم معروفة ، والنظرة العالمية الشاملة للإسلام التي تحمله عليها بعض العقائد . وهو لا يعرف كم تختلف هـذه الافتراضات الأولى عن الفرضيات الأساسية للمدنيات الأخرى . فعليه ، هو والغربي ، أن يتعلما أن الأديان العظيمـة لبني الانسان

تختلف فيما بينها في تكييفها للعالم ، ليس فقط بمجرد وضع حلول لمشاكله ، بل بإثارة المسائل المختلفة » .

وبكلام آخر ، فإن السبب الجذري لسوء الفهم كله هو استحالة التوفيق بين قيم روحية وأخلاقية متعارضة . والآن دعنا ننظر إلى الاسلام كما يراه الغرب إذا استطعنا . فمن خلال المنظار البشري اللاإدري ، فإن الأسس العقيدية الأزلية والتحكم الأخلاقي في الاسلام ، تبدو نظماً جامدة ، رجعية ، قروسطية — [من القرون الوسطى] — غير قادرة على التطور والنماء . وتحصر متبعيها في الثقافة البدائية لعصر الرسول . وبالتالي ، فهي تمنع كل أمل في تقدم الانسانية . إن الشمول المحيط التام في المثل الاسلامية ، الذي تندمج فيه الدولة بالدين ، يبدو للمعتقدين « بالدنيوية العصرية » وكأنه نظام استبدادي خانق للحريات ، ولحرية الرأي في التفكير . وعدم الفصل بين الأخلاق والفرائض الدينيـة ، والشرائع العديدة التي تتحكم في كل مظهر في حياة المؤمن تفسّر بأنها جدليات في أمور تافهة ، وشكليات لا روح فيها . فالحجاب ، أو الفصل بين الجنسين ، يعني في نظرهم تدني مكانة المرأة المسلمة وانحطاطها . ويُشجب من قبل المرأة العصرية على أنه « إنكار لحرية المرأة في المشاركة في حياة الأمة ، والمساعدة على التقدم الاجتماعي خارج البيت » ويبدو تحريم الصور ، والتماثيل ، والموسيقى ، والرقص ، للرجل المثقف الغربي وكأنه « تدمير لأنبل الدوافع الخلاّقة لدى الانسان » .

ولعل الفرق في وجهة النظر للمستشرق الغربي وللمسلم المتمسك بدينه ، هو أنه في الوقت الذي يعتبر فيـه الأول الاسلام كمجرد ظاهرة تاريخية ، صاغتها البيئة التي عاشها الرسول ، فإن الآخر يعتبر أن ما حدث في تلك السنوات التي كوّنت الاسلام هو شيء أزلي عالمي . وإن الحقيقة الالهية صالحة لكل زمان ومكان على السواء . إلا أنّ المستشرقين يعتقدون بأن الاسلام هو مجرد دين من الأديان العديدة الأخرى — يعتبرونه حضارة بين حضارات أخرى عديدة — .

واشتهرت خلال فترة ازدهارها الدنيوي فقط . والآن، وقد خلفته ثقافة الغرب العصرية ، كما يزعمون ، فقـد أصبح شيئاً مضى عليه الزمن ، ولا يمكن بعثه من جديد .

هذه بعض الأسباب التي تجعل من غير الممكن للعالم الغربي أن يدرس الاسلام موضوعياً . فإذا ما وضع الانسان نظارة سوداء على عينيه، فإن إبصاره سيبقى مشوهاً إلى أن يزيلها . وبالمثل ، فإن لم يتغير سلوك المدنية الغربية المعاصرة من جذوره ، باستثناء الأفراد القلائل المتفردين فإننا ، نحن المسلمين ، لا نتوقع شيئاً آخر منها

الفصل الاول

« الاسلام في النظرية »

١ – العقلية المسلمة .
٢ – الاسلام والصحة العقلية .
٣ – الاسلام والنظافة .
٤ – الآداب الاسلامية وقواعد السلوك [« الإتيكيت » الغربية] .
٥ – الاسلام والثقافة العربية .
٦ – الاسلام والفنون .
٧ – المرأة المسلمة ودورها في المجتمع .
٨ – أساسيات المجتمع الاسلامي .

العقلية المسلمة

إن الدخول في الإسلام يعني أكثر من مجرد القيام بالشعائر الدينية بكثير ، ومع أن هذه الشعائر لا يُستغنى عنها أبداً إلا أنها لا تحقق غايتها المرجوة ما لم تتغير فكرياً وخلقياً وروحياً نظرة الداخل في الاسلام إلى الكون عامة ، إن أعظم تطور حدث لي بعد أن اعتنقت الاسلام هو تحوّل عقليتي من عقلية كافرة إلى أخرى مسلمة ، ولكي يكتسب الأجنبي عن الاسلام فهماً أعمق لما تفكر به العقلية المسلمة فإنني سأحاول أن أصف من خلال تجربتي الشخصية كيف ينظر المسلم إلى العالم. كيف ينظر إلى الحياة ، وكيف يجد تأثير إيمانه في سلوكه وذوقه وطموحه ، وإن الكثير من ذلك سيفاجيء هذا الأجنبي ، بل سيهزه إلى أن تتسنى له الكفاية من البصيرة النافذة إلى المعاني الداخلية والفضائل الجوهرية للقيم الاسلامية الأصيلة .

إن أسس الإيمان في الاسلام هو الاعتقاد بأن الانسان عبد لله . والمدلول العربي لهذا المفهوم هو « عبد الله » الذي هو من أشهر الأسماء في كل بلد إسلامي والاسلام نفسه يعني حرفياً « الخضوع لإرادة الله » وإن جميع من يختارون العمل بذلك هم « مسلمون »،وبما أن الله هو الحاكم الأعلى والأوحد لهذا الكون فإن الاعتقاد المسيحي ، الذي يفصل الكنيسة عن الدولة ، يبدو للعقلية المسلمة غير منطقي تماماً ، وغاية الحكم الإسلامي هي تطبيق شريعة الله كما جاءت في

الكتاب والسنّة . والحاكم المسلم لا يستطيع أن يجعل القانون يوافق هواه ، وليس له الحق أن يبتكر تشريعاً جديداً من عنده . والشريعة والقانون السماوي لا يمكن تغييرهما بل يمكن تفسيرهما في نطاق محدود فقط . فكل شيء لله . والانسان لا يملك شيئاً ، ويعتمد كلية على الله . وكل ما للإنسان ، حتى جسده ، معار له من الله تعالى لينتفع به على أحسن وجه . فإذا قصّر إنسان في هذه المسئولية فسوف يعاقب عقاباً شديداً . والانسان إذا أراد أن يطيع الله كعبد لله ، يجب عليه أن يكون مستعداً للتضحية بكل شيء ، فيضحي إذا لزم الأمر بسعادته ، ومسراته ، ورغباته ، وراحته ، وماله ، وممتلكاته بل وبحياته . وإن المسلم الصحيح لن يتوانى عن التضحية بكل مسراته ، الزائلة ، في سبيل المنفعة العظمى . وهو بعمله هذا يحصل على السعادة الدائمة والصفاء في الذهن. والعبودية لله تعني التحرر من طغيان البشر . فالمسلم الحق لا يخاف أي انسان ولا يخشى إلا الله .

والمسلم يقسم العالم إلى معسكرين متقابلين : دار الاسلام ، ودار الحرب أي دار الكفر . وإن أقبح ما تبتلي به البشرية ليس هو الفقر أو الجهل أو المرض ، ولكنه الكفر . فالحوامل من العرائس المراهقات ، والأمهات غير المتزوجات ، والأمراض التناسلية والاجهاضات وحوادث الاغتصاب ، والانغال ، و الأطفال غير الشرعيين » والمنبوذون من المدمنين،والقوميات العنجهية — كل ذلك يعكس نتائج الكفر — وكل ما يوافق تعاليم الاسلام فهو ذروة الخير ، ولكن الكفر عصيان صريح لله لا يمكن قبوله أبداً . والمسلم يحكم على أخيه الانسان على أساس صحة عقيدته فقط،وتطبيق تلك العقيدة عملياً في حياته اليومية ،وإن جنس الانسان وقوميته وماله ومركزه الاجتماعي لا يمتّ بصلة لمزيته الجوهرية ككائن بشري . وإذا لم يطبّق الانسان ما يقرّ باعتقاده فهو لا يعدو أن يكون أكثر من منافق ، وليس لديه في الحقيقة أي إيمان أبداً . والمسلم يعتقد أن عمل الانسان يعتمد على عقيدته ، وهو لا يصدق أن السلوك والأخلاق تنفصل عن أسسها النابعة من العقيدة الدينية أو لغوطبيعية .

المسلم والموت :

والمسلم الصحيح لا يخشى الموت ، فما الموت إلا طريق المرور لحياة خالدة في رحاب الله. وإذا أصابه المرض عمل كل ما يمكنه طبياً ليعجل من شفائه، ولكن بعد أن يعمل كل ما في وسعه ، وإذا فشلت الوسائل الطبية في إعادة صحته إليه وفي إنقاذ حياته ، أو حياة المصابين أمثاله ممن يحب ، فإنه يتقبّل الموت بتسليم خالص، إن المسلم يعتقد أن الله قد قدّر أجل كل انسان مقدماً، ولذلك فلا يمكن أن يموت انسان قبل انقضاء أجله المقدّر. كما أنه لا يمكن لكل الأطباء مجتمعين، والأدوية في العالم أن تطيل من أجله لحظة واحدة .

الاسلام وتسامحه :

وليس المسلم الصحيح بالأعمى في تعصبه . والقرآن الكريم يحرم التجسس والغيبة ، ولا يؤمن بالانشقاق في صفوف الجماعة. ولا يصح أن يكفّر مسلمٌ كان مخطئاً من مسلم آخر ما لم يدع إيمانه ، والمسلم لا يضطهد الأديان الأخرى ، ولا يحاول أن يجبر الآخرين على اعتناق دينه . والأقليات الدينيـــة تعيش في الدولة الاسلامية بمجتمعاتها المستقلة ذاتياً ، والمتميزة ، حيث يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية وتربية أولادهم كما يرون ذلك ملائماً لثقافتهم والاحتفاظ بها . ذلك إلى جانب التأمين التام لأرواحهم وممتلكاتهم ، ولكنه لا يمكن اعتبار غير المسلمين مساوين للمسلمين ، مع أن جميع الحقوق الآنفة الذكر ، محفوظة للأقليات . ومع أن جميع الناس ، في نظر تعاليم الاسلام، يستحقون العدل على السواء ، والمعاملة الحسنة كبشر ، وغير المسلمين يستثنون من الخدمة العسكرية في ظل الحكم الاسلامي . ذلك أن المؤمنين بدعوة الاسلام هم وحدهم الذين يقاتلون من أجله . ولهذا السبب نفسه فإن غير المسلمين لا يصلحون لشغل المناصب العسكرية في الدولة . ويحس المسلم بأقوى الروابط الأخوية مع غيره من المسلمين دون اعتبار للجنس والوطن ، ولكنه وسط غير المسلمين لا يشعر أنه في وطنه أبداً .

عالميـة الاسلام :

والاسلام دين عالمي يسعى دائماً لكسب مسلمين جدد. ونحن بخلاف المسيحيين لا نحسُ بالحاجة لمبشرين محترفين، فكل مسلم مبشّر . وواجبه المقدّس أن ينشر الاسلام بكل ما في وسعه ، ولعله من المدهش لغير المسلمين أن يعلموا أن بقاعاً شاسعة من العالم (وعلى الأخص جنوب شرقي آسيا وافريقيا) اعتنقت الاسلام بنشاط التجار المسلمين العاديين العرب والهنود ، فلم تستعمل القوة ولا العنف على الاطلاق . ولم تخضع لهم أي من هذه البلدان سياسياً ، وكان هذا الانتشار ممكناً لأن التجار المسلمين يضعون الاسلام نصب أعينهم أولاً ، ثم أعمالهم بعد ذلك . وكاليهودي المتدين فإن المسلم يعتقد أنه يتقرّب إلى الله باتباع شرائعه ، فهو لذلك لا يضع حداً فاصلاً بين الشعائر الدينيـة والسلوك الشخصي . فهي متداخلة لا تقبل الانفصال . والمسلم لا يسلخ الروح عن جسدها . لأنه يعتقد أن العقيدة لا تكون فعّالة بغير التعبير الملموس . والوضوء والصلوات يجب أن تؤدى بطريقة دقيقة كما أدّاها الرسول ﷺ والمسلم الذي يؤدي صلواته كما يجب يزكي في نفسه ضميراً حياً وخلقاً عالياً . ذلك أن ليس هناك من يراقب صحتها إلا الله . ولا يوجد دين آخر يصرُّ على ضرورة الصحة الشخصية والنظافة بهذا التأكيد الشديد . فالطهارة البدنية تؤثر في الطهارة الروحيـة ، والانسان في ظاهره صورة عن الانسان في داخله .

العقوبات في القرآن والسنّة :

وقانون العقوبات في القرآن والسنة هو موضوع سوء الفهم الشديد لدى غير المسلمين. فما يعتبره الاسلام جريمة في حق المجتمع لا يكاد يعتبر جريمة على الاطلاق في بلاد الغرب ، وباستثناء السرقة فالعقوبات القانونية – إن وجدت – نادراً ما توقّع – والمسلم لا يؤمن أن مزية القـانون في تساهله ، كما أنه لا يؤمن أن المجرم جدير بالعطف أكثر من المجتمع . فقانون العقوبات المستمد من الكتاب

والسنّة ، في نظر المسلم ، غير قاس ، أو بربري من نتاج جزيرة العرب في القرن السابع ، أو غير صالح للعصر الحديث . بل على النقيض من ذلك فهو يعتقد أن هذا القانون أكثر انسانية من سجوننا العصرية اللاأخلاقية واللانفسية ، وهـذا القانون ، في نطاق المجتمع الاسلامي الصحيح ، ذو فعالية في وقف الجريمة أكثر من أي قانون آخر من صنع البشر .

الاسلام والمرأة :

والمسلم يعتقد أن الفصل التام بين الجنسين ضروري للمجتمع السليم ، وهذا يعني أن الرجال والنساء ممنوعون من الاختلاط الحر ، وهذا هو السبب الذي من أجله لا يقبل المسلم بالوظائف الاجتماعية المختلطة ، أو مدارس التعليم المختلط ، أو التودّد قبل الزواج ، فالرجال يجب أن لا ينظروا إلى النساء الأجنبيات ، ولا النساء إلى الرجال الأجانب ، ولباس الحشمة مطلوب في كل وقت ، والنساء ملزمات بتغطية جميع أجسامهن عندما يجدن ضرورة للخروج وعليهن أن يمشين دون تكشف ما أمكنهن بين الناس ، وجمال المرأة لها فقط ، فجسدها يجب أن لا يعرض لنظرات الأغراب بأية حال ، ومظاهر الحب المفضوح بين الرجـال والنساء يعاقب عليها بشدّة . والرجل في الاسلام مسؤول عن واجباته الاجتماعية خارج البيت ، بينما المرأة مسؤولة عن كل شيء داخله ، ولذلك فليس من واجب المرأة أن تنافس الرجل في الأعمال أو السياسة . ويدرك المسلم جيداً أن المرأة إذا تركت البيت مرة فلن يكون هناك « بيت » .

الاسلام والزواج :

والتبتّل – العزوبية – مكروه في القرآن الكريم والسنّة ، ومن المفروض أن يتزوج كل رجل عادي وكل امرأة ، ومع أنه مسموح للرجل بأن يتزوج إلى أربع نساء فالاسلام لا يأمر بتعدّد الزوجات بل لا يشجعه ، فهو مرخص به فقط ، والغالبية العظمى من المسلمين يقتصرون دائماً على واحدة . وتعدد الزوجات

الضيق المسموح به في الاسلام يقلّل الجنس المبتذل إلى أدنى حد . ذلك أن الرجل ، إذا أراد الاتصال بإمرأة أخرى فعليه أن يتزوجها أولاً . ويتحمل مسؤولية إعالتها و كفالتها . والاسلام يعارض تحديد النسل ، على مستوى وطني ودولي. كما تعارضه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولنفس الأسباب ، وبالنسبة للعقلية المسلمة ، فلا شيء أسوأ من ممارسة العلاقات الزوجية ثم تعطيل الغاية منها بعد ذلك ، واستعمال موانع الحمل مرخصٌ به في حالات فردية استثنائية وعلى أسس طبية . والأسباب الاقتصادية المجرّدة غير كافية لتقليل عدد الأولاد المتعمد ، ذلك لأن الله هو الذي يوفر الرزق للانسان وليس الانسان .

الاسلام والفنون :

ويختلف الاسلام عن غيره من الأديان في عدم تشجيعه للفنون . ورجل مثل مايكل آنجلو أو رامبراندت ، أو بتهوفن ، أو شكسبير لن يجد تهليلاً في المجتمع الاسلامي ، وبالتالي فهذا هو السبب لعدم وجود قاعات للحفلات السيمفونية ، أو دور الأوبرا ، أو المسارح ، أو المتاحف الفنية . وعبقرية الفن الاسلامي عبرت عن فنها تماماً في فن العمارة ، لدرجة أنها لم تسبق في ذلك المضمار ، و كذلك في فن الخط العربي .

الاسلام والموسيقى :

والموسيقى ممنوعة في المساجد ، ومكروهة في أي مكان آخر . والمكانة الاجتماعية للموسيقيين المحترفين منحطّة جداً في العالم الاسلامي ، فالموسيقى تشغل العقل عن ذكر الله ، وتقود تدريجياً إلى الفحشاء ، وإذا رأى الانسان ضرورة للترويح عن نفسه فيرخّص له أن يغني ليطرب نفسه ، إلا أنه من الأفضل أن يتورع عن ذلك ، ولا تغني أية امرأة مسلمة محترمة في مكان عام . والموسيقى الوحيدة المستحبّة هي ترتيل القرآن الكريم والأذان والمدائح النبوية .

الاسلام والرقص :

ولأن الرقص هو أقوى مهيّج للجنس المبتذل فهو محظور كلية ، إلا إن أمكن في العيدين ، أو لإثارة الحماس عند الجهـــاد ، أو حفلات الزواج .. ومثل هذه الأعياد يجب ألا تكون مختلطة أبداً ، فالرجال يرقصون مع الرجال والنساء مع النساء ليس إلا .

الاسلام والتمثيل والسينما والتلفزيون :

والتمثيل في المسرحيات سواء على المسرح أو في السينما أو على شاشة التلفزيون لا يشجّع لنفس السبب ، ولأن الروايات التمثيلية تشغل الناس باللهو باطراد دائم فيقللون من اهتمامهم بحياتهم الحقيقية ، وبالاضافة إلى تشجيعها للفساد الخلقي ، فقد كره الاسلام هـــذه الروايات سواء شارك الفرد فيها كممثل أو كمشاهد ، والقصة الأدبية ، سواء في شكل مسرحية ، أو رواية ليست مألوفة في أي بلد مسلم ، ولكن الخطابة والشعر يرتقيان إلى مستوى عالٍ ، ويتفهّم المسلمون اللغة الفصيحة جيداً في كل مكان .

منهاج الحياة الاسلامي :

ومنهاج الحياة الاسلامي مبني على قيم ثابتة ، فالصدق والأخلاق الفاضلة قيم تامة خالدة عامة ، فهي موضوعة من الله لا من الانسان . فليس من حق الانسان إذن أن يتلاعب بها . والقرآن بالنسبة للمسلم كتاب الله ، لا كتاب محمد ، وهو يعتقد أن كل كلمة فيه صحيحة حرفياً ويجب أن تُطاع . والقرآن مصدر كل المعرفة ، والمجادلة في أي جزء منه تعني رفض الهداية الالهية . والحديث ، وهو أقوال الرسول الكريم ، والسنّة ، وهي أعمال الرسول الكريم ، أساسيات للفهم الصحيح للقرآن ، فواحدها ليس له معنى دون الآخر ، وطالما أن القرآن هو وحي الله التام المعصوم الأخير للبشر فالاسلام لا يمكن تعديله أو تغييره . وهو لن

« يُمس » أبداً . فالاسلام تام متكامل بنفسه ، ولا محل فيه لاختيار الأفضل . والمسلم يعتبر التقدم هو أن تكون حياته أقرب ما تكون مطابقة لحرفية القرآن وروحه . وهدفه على هـــذه الأرض ليس هو الفوز الدنيوي بل الاعداد للحياة الآخرة .

والاسلام يطلب من المسلم الولاء التام ، فالمسلم مسلم في كل لحظة من يومه ، والاسلام دقيق جداً لدرجة لا يمكن تصورها من قبل شخص في أي دين آخر ، وإن قوانينه تنتظم كل مظهر من حيــاة الانسان من مهده إلى لحده ، والاسلام يرافق المسلم في يقظته ونومه فهو لا ينسى نفسه طرفة عين .

الاسلام والصحة العقلية

إن من أخطر المشاكل التي تواجه المجتمع العصري هو وباء الاضطرابات العقلية . فمن مظاهر التناقض أنه كلما ازداد تقدم العلم والتكنولوجيا ، وكلما ازدهرت البلاد الأوروبية والأمريكية - التي تسمى متقدمة - اقتصادياً ازداد مرضى العقول، وازداد اكتظاظ المستشفيات العقلية بالنزلاء لدرجة فوق طاقتها وازدادت حوادث الانتحار . ولقـــد أصبح واضحاً غاية الوضوح للمفكرين الجديين في جميع أنحاء العالم أن الفلسفة المادية مسئولة عن ذلك إلى حد كبير .

وطبقاً للفلسفة « المادية » السائدة في هذا العصر ، فإن خلق هذا الكون بكائناته الحيّة كان مجرد صدفة . ولقد تطور الجنس البشري تدريجياً على مرّ العصور خلال عملية التطور الميكانيكية ، من الحيوانات الدنيا ، وبما أن قوانين الطبيعة لا علاقة لها بالأشخاص ، فليس لها ارتباط إذن ، بقوانين الأخلاق ، أو بحياة الأفراد الجوهرية ، وطالما أن الحياة تعتمد على المادة العضوية فالروح ليس لها وجود ، والادراك لا يوجد بدون العقل . وهذه الحياة هي الحياة الوحيدة . ولا شيء يستطيع حفظ شخصية الفرد بعد الموت . وهكذا ، فالانسان المخلوق من العدم سيعود حتماً إلى العدم تماماً ، وليس له وجود بعد موته كما لم يكن له وجود قبل حمله . ومن هنا فأي اعتقاد بالحياة الآخرة هو مجرد اعتقاد ليس له أساس عقلي .

وغاية الكائن البشري هي خلق أحوال معيشية أكثر ما تكون ملائمة لسعادته وانتعاشه المادي دون مساعدة أية قوة غير طبيعية .

وأبرز شخصية في العصر الحديث اهتمت بالصحة العقلية هو سيجموند فرويد (١٨٥٩) - (١٩٣٩) . والعلاج النفسي للأمراض العقلية والعصبية إلى هذا اليوم يحدد على أسس نظرياته إلى حد كبير. ولقد اعتقد فرويد، استناداً إلى الأساطير اليونانية الوثنية ، أن السلوك الانساني يرجع إلى حد كبير لدوافع قهرية غريزية في العقل والباطن . وتكاد تكون جنسية على الإطلاق ، والاضطرابات العقلية ، في رأيه ، ترجع لقهر الدوافع الجنسية التي لا يرضى عنها المجتمع المتمدين . وتزعم نظرية فرويد أن العقل البشري ، حتى في طفولته المبكرة ، مملوء بالعواطف المدمرة لصاحبه وللغير . وإن كل ما حققه الجنس البشري روحياً ومادياً ليس إلا تصعيد لدافع الجنس .

يقول فرويد : « يبدو أنه ليس من الصحة أن هناك قوة (إله) في هذا الكون تسهر على صالح كل فرد برعاية أبوية ، وتحوط الكل في رحابها إلى نهاية سعيدة ، وعلى النقيض من ذلك فإن أقدار الرجال (أي حظوظهم) لا تتفق مع أية قاعدة عامة عادلة ، فنحن لا نجد حقاً أن الفضيلة تثاب والجريمة تعاقب ، فكثيراً ما نرى أن العنيف الماكر الجاهل يحوز الخيرات المرغوبة في هذا العالم بينما يفلس التقي ، فالعدل الالهي الذي يتحكم في العالم طبقاً للدين يبدو أن ليس له وجود . وإن أية محاولة للتقليل من سيادة العلم لن تغير الحقيقة . ذلك أنها تضع في حسابها أننا نعتمد على العالم الحقيقي الظاهري ، بينما لا يعدو الدين أن يكون ملهاة طفولية ، يستمد قوته من تصادف أنه يرضي رغباتنا الغريزية . والبعض من إخواننا الذين لا يرضيهم هذا الأمر ، ويريدون منا شيئاً أكثر ليحققوا الاتزان العقلي المؤقت ، يستطيعون أن يبحثوا عنه في أي مكان يجدونه ، وأما نحن فلا نستطيع أن نساعدهم » .

إن النبذة السابقة تثبت بوضوح أن الملحدين والماديين يفندون الدين

بنظرياتهم السلبية فقط . وليس عندهم مـا يشبع حاجات الانسان الروحية وليسدّ مسدّ الدين . ومن المشكوك فيه أن تكون نظريات فرويد قد أضافت أي شيء بنّاء للتقليل من شقاء الانسان . وإن تأثير هـذه النظريات وشيوعها يرجع إلى أنها تقوي نوازع الفلسفة المادية لتتدنى بالانسان إلى مستوى الوحوش. وبالتالي فهل يكون أمام من يعتنق هذه النظرة العقلية للحياة ، إذا انتابته الشدائد والحظ السيء ، سوى أن يفقد عقله أو ينتحر ؟ فإذا كان الدين ملهاة طفولية ـ كما يدّعي الماديون ـ فإنهم عاجزون إطلاقاً عن تفسير السبب في ضرورة إشباع هذه الميول الغريزية العامة في الجنس البشري في كل زمان ومكان للمحافظة على السلامة العقلية .

وبعض الأسباب الرئيسية للانهيارات العصبية هي : كراهية النفس، والعجز عن تحمّل النوازل ، والفشل في تحقيق نجـــاح دنيوي ، والخوف والقلق من المستقبل ، والوهم بأن الحياة ليس لها أهمية قصوى .

لقد كتب وطليام فوث في كتابه « يا ناس ! People » وهو دفاع عن تحديد النسل عالمياً ، كتب يقول :

« الموت في الوقت المناسب حسن في حدّ ذاته ، فهو نادراً ما يكون حسناً للشاب ، أو للسليم أو للسعيد، أو للنافع . ولعله يكون حسناً في الحقيقة للمسن، وللمريض ، وللذين يعيشون في الآلام ، ولأولئك الذين يحيون بدون أمل . والمنتحر الذي يحدد وقت انتحاره في ظروف معينة ، فإنه يغادر هذه الحياة ، مغادرة شريفة ، ويستحق الاحترام منا لا الرثاء والتجريم » .

وأما الإسلام فإنه يشجع المحافظة على النفس ، فالمسلم هو تشخيص الإسلام نفسه ، فالإسلام لا يكون بدون المسلم. والمسلم مكلف بتفضيل مجتمعه على نفسه في حالة تصادم مصلحة الفرد المسلم مع مصلحة مجتمعه ، ولا يكون بالامكان تحقيق الواحدة دون فقدان الأخرى ، ذلك أن الفرد المسلم هو جزء من مجتمعه ،

وأن جزء الشيء لا يكون أهمّ من الشيء نفسه ، ويرخص للمسلم ألا يحمي نفسه – أي أن يضحّي بها – في الجهاد فقط ، وفي غير ذلك فلا يجب عليه أبداً أن يؤذي نفسه باختياره ، أو أن يقوم بأي عمل مدمر لشخصه ، وهذا هو السبب الذي من أجله يحرّم على المسلم أن يتناول الأطعمة القذرة ، كلحم الخنزير ، إذ أن هذه الأطعمة تتلف صحته البدنية والعقلية والخلقية . وهو ممنوع من تناول المشروبات السامة ، أو أي مسكر ، كالمخدرات والكحول التي تدمّر الجسم والعقل ، وهو ممنوع من الانغماس بالإسراف بأي شكل . ذلك أن هذه الأشياء جميعها تؤدي إلى تدمير الشخص نفسه . وعليه أن يحب الآخرين ويساعدهم حتى يجد المساعدة ويكون محبوباً ، وفوق ذلك كله فالانتحار محرم عليه لأي سبب كان .

عن أبي هريرة رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار والذي يقتحم يقتحم في النار » – أو كما قال – رواه البخاري .

ولأن الموت والحيـــاة يحدثان بقضاء الله فالاسلام يعتبر الانتحار من أقبح الذنوب لأن القضاء على الحياة الشخصية يدل على الفقدان التام للايمان بالله واليوم الآخر . وبالتالي فإن الانتحار بين المؤمنين الخلص غير معروف تماماً .

والانحلال الاجتماعي الذي تتميز به المجتمعات المعاصرة في البلدان التي تسمي نفسها متقدمة ، كان هو السبب في انهيارات عصبية لا حصر لها .

كتب الدكتور م. نسيم في جريدة الضياء الناطقة باسم الحركة الأحمدية في لاهور في الأول من فبراير سنة ١٩٦٦ يقول :

« إن التأكيد الزائد على الفردية في المجتمع الحديث يمزق الروابط العائلية ، والناس الذين يقاسون من الوحدة يتزايدون أكثر فأكثر ، نتيجة لإهمال حق الجار بل وحق الصديق والقريب . فالشبان كالسكرتير ، والموظف المدني ،

والمدرّس ، والممرض وحتى الطبيب يشكون الوحدة ، إن عملهم يشمل الناس ، وهم غير انفراديين بالفطرة ، ولكنهم ليس لديهم الفرص ليكوّنوا الروابط الشخصية في المدينة حيث يعيشون لوحدهم ، والانعزالية لدى الشبان والشيوخ لها تأصلٌ في نفس الانحراف . فهـذا له وظيفته ، وذاك له معاشه ، ولا أحد يكترث فيما إذا احتاج هؤلاء أي شيء آخر ، ومصيبة كبار السن محزنة أكثر من ذلك ، فلربما يهملون في عيشتهم من أولادهم وأصدقائهم على السواء ، تحبسهم الروماتزم والتهاب المفاصل داخل غرف أو شقق صمّاء أحياناً أو أحياناً عمياء ، وأكبر ما يخيفهم أنهم لربما يمرضون أو يموتون دون أن يشعر بهم أحد ، وإن عدد الناس الذين يعيشون في عزلة في بريطانيا والبلاد الغربية وحتى في الولايات المتحدة التي هي أغنى بلاد العالم ، إن عدد هؤلاء الناس قد ازداد في السنوات العشرين الأخيرة . وذلك يضع قضية هامة أمام الأطباء النفسانيين والاجتماعيين كمرض خطير في تلك البلاد التي مـا زالت تتحول أكثر فأكثر إلى مجتمعات لا شخصية كلما ازدادت هـذه المجتمعات اختلاطاً . ففي انجلترا يحتل مرضى العقول ثلث الأسرّة في جميع المستشفيات ، ومئات من الناس قضوا على وجودهم عاجزين عن تحمّل ضيق الحياة في العزلة » .

وهذا هو السبب الذي من أجله يؤكد الإسلام كثيراً على الأهمية المترابطة للزواج وللحياة العائلية السليمة . ولقد أمر الرسول الكريم ﷺ إن من الواجب على المؤمنين في الاسلام ، أن يولوا صغارهم الحب الكبير ، وكبارهم الاحترام الكثير . وعندما اقترب أعرابي من الرسول الكريم ﷺ وقال بأن له عشرة أبناء ، ولكنه لم يقبّل واحداً منهم أبداً ، زجره الرسول ﷺ بعنف وقال له: « مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم » ، والإسلام لم يأمر المسلمين بتعاليمه أن يحبوا ويعاونوا أسرهم فحسب بل أن يوثقوا عرى التعاون المتبادل مع جيرانهم وإخوانهم في الدين ، وشعور الجماعة القوي هذا هو خير حافظ للصحة العقلية .

وطبقاً لتعاليم الإسلام فليس المقصود من هذه الحياة أن تكون نزهة ، بل

هي أقسى امتحان تتحقق نتائجه في الحيـــاة الأخرى ، وعلى ذلك فالشدائد والمصائب التي نقاسيها في هذه الحياة ليست نهائية ، بل هي اختبارات لأصالة إيمان الفرد وقوته ، وذلك كما يقول القرآن الكريم :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » : آية ١٥٥ — البقرة .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » : آية ٢١٤ — البقرة .

« أحسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون » : آية ٢ — العنكبوت . « لتبلون في أموالكم وأنفسكم » : أول آية ١٨٦ — آل عمران .

وينبئنا القرآن الكريم والحديث الشريف أن ما يعانيه المؤمنون في هــذه الدنيا يكفّر عنهم خطاياهم ، علّهم ينجون من العذاب بعد الموت ويتمتعون بالجزاء الأوفى في الحياة الأخرى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من يرد الله به خيراً يصب منه » البخاري . وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله تعالى بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيـــا ، وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة » الترمذي .

والصبر في الضرّاء برجاحة عقل هو علامة المسلم الصحيح . « إن الله مع الصابرين : البقرة — ١٥٣ .

« واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» : البقرة — ٤٥ .

« ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » : النحل — ٩٦ .

« والعصر ، إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ مرّ بإمرأة تبكي على قبر فقال لها : اتقي الله واصبري فقالت : « .. إليك عني ، فإنك لم تُصب بمصيبتي » ، ولم تعرفه، فقيل لها « إنه النبي ﷺ » . فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : « لم أعرفك » ، فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » — مشكاة المصابيح .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصبر نصف الإيمان » ويؤمر المسلمون بتأدية واجباتهم نحو الله ونحو إخوانهم واثقين أن الله معهم . ويؤمرون بالمثابرة حتى يدركوا غايتهم موقنين بأنه « حسبنا الله ونعم الوكيل » : آل عمران — ١٧٣ .

والمسلم الصحيح يفعل الخير خالصاً لوجه الله ، ذلك لأن الأعمال التي يقصد منها الشهرة في الدنيا ليس لها أية فضيلة دينية . ولذلك فالمسلم لا يشعر بالخيبة إذا عجز الغير عن تفهّم أعماله الانسانية . « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً » : الدهر — ٩ . والذي يتوكل على الله ويؤدي واجباته امتثالاً للقرآن الكريم ولسنّة الرسول العظيم لا يذوق مرارة الفشل ولو لم تثمر جهوده في حياته .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » : البقرة — ١١٢ .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » : الكهف — ١٠٧ .

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » : النجم — ٣٩ .

وجاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ حذّر أتباعه من أن يحسدوا الرجل لحظّه في الدنيا ، إذ لا يمكن معرفة نصيبه بعد الموت .

عن عمر بن الخطاب قال : دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال في جنبه ، متكئاً على وسادة من أدم ، حشوها ليف قلت « يا رسول الله . أدع الله فليوسع على أمتك ،

فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ». فقال : أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » ، وفي رواية: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ – مشكاة المصابيح .

والخوف والقلق هما ألدّ عدوين للصحة العقلية ، فلا أضرّ للتوازن العقلي للرجل من القلق لما سيحدث له في المستقبل ، والمسلمون الأقوياء في إيمانهم لا يساورهم القلق لأننا لا نعرف المستقبل ، فعلمه عند الله ، ولذلك فمن المستحيل أن نحكم ما الذي فيه الخير لنا .

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » : البقرة – ٢١٦ .

والخوف على الرزق من أعظم المشاكل الانسانية انتشاراً، وهذا مثل نموذجي لما يعمله غير المؤمن إذا واجهته هذه المشكلة . كتب ليلاند جلوفر في كتابه « الحياة الجنسية للمراهقين المعاصرين في أمريكا » : « سيبل زوجة في الثامنة عشرة وأم لطفلين ، وقد وجدت نفسها حاملا بالثالث في عامها الثالث ، وكان زوجها قد يحضر كل أسبوع لبيته بشيك ضئيل القيمة ، إذ لم يكن عاملا ماهراً، وأخبرت سيبل الحسيرة الكئيبة زوجها أنها سوف تتخلص من الطفل ، ولو كلفها ذلك حياتها . وفي قنوط وعزم طلبت من صيدلي مجاور أن يعينها على ذلك فباعها بعض الحبوب التي لم تسبّب لها سوى المرض ، وحاولت بنصيحة صديقة لها أن تجهض نفسها برأس ريشة أوزة ملوثة بالشحم . فلم يسعفها الحظ ، فجرّبت وسائل مماثلة ولكن جهودها كلها باءت بالفشل ، ولم تنفّذ تهديدها بقتل نفسها للخلاص من الطفل ، وتمّ الحمل إلى أجله فجاء الطفل في وقت غير مرغوب وغير محبوب ، وحلّ ضيفاً ثقيلا على أم مضطربة العواطف ومنزل حل به الفقر » .

وعلى النقيض مما سبق هو ما يؤمن به المسلم الصحيح . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله

حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ، ــ الترمذي وابن ماجة .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنني لأعلم لو أخذ الناس بهـا لكفتهم . « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » : الطلاق ٢ ــ ٣ ، رواه أحمد وابن ماجة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قرأ عليّ رسول الله ﷺ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » رواه أبو داود والترمذي .

والرعديد لا يؤمن بالله إيماناً صحيحاً ذلك لأنه يخشى الخلق ولا يخشى الخالق. والمسلم لا يخشى إلا الله . ويثق أنه خير حافظ له ، والله دائماً معنـا ويحمينا . وبما أن أجلنا قد قدّر مسبقاً ، فلا أحد يستطيع أن يميتنا قبل أجلنا المكتوب. والتصديق بهذا المبدأ يكسب الشجاعة وقوة التفكير ... عن جابر أنه غزا مع النبي ﷺ قِبَل نجد . فلما قفل رسول الله قفل معه . فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق النـاس يستظلون بالشجر ، فنزل رسول الله تحت سُمرة فعلق بها سيفه ونمنا نومة ، فإذا رسول الله يدعونا ، وإذا عنده أعرابي فقال : إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً ، قال : مَن يمنعك مني ؟ فقلت : الله ثلاثاً . ولم يعاقبه ، وفي رواية : فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال : مَن يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ ، فقال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وإني رسول الله ، فقال لا ، ولكنني أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلوك . فخلى سبيله ، فأتى أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس ــ المشكاة .

فمهما حدث من الأمر ، فإن المسلم يكون إيجابياً بنـاءً في عمله . فإن كان خيراً أفاد من نفعه وإن كانت مصيبة فكّر في جانب الخير فيها فقط . إذ أن في كل شدة موعظة ، فإذا ما أصيب المسلم برزية مقدّرة استقبلها بتسليم تام .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » التوبة – ٥١ . والبعض يخدعون أنفسهم بمحاولة الهروب من القدر المحتوم. فعندما تدهمهم الضراء يغرقون أنفسهم في الكحول أو ينتحرون ، والانسان إذا حاول الهروب من القدر المحتوم فإنه يدمر عقله ونفسه . والتشاؤم في الإسلام محرم . ذلك أنه يخنق الأمل وروح الجهاد. والتطلع إلى الموت لوضع حد لمتاعب الانسان الدنيوية لا يجوز في الإسلام . وذلك أن المسلم قد يفوز بالنجاة ، إذا ما عمّر طويلاً بزيادة فعل الخير فيكفر عن خطاياه . ولكن الموت ينهي هذه الفرص إلى الأبد .

فالذين يعتنقون الإسلام يملكون كل ما يحتاجون كي يكونوا سعداء ، و كلمة الإسلام في العربية تعني « السلم » السلم مع الله ، ومع الذات ، ومع الإخوة من بني الانسان ، والسلم الأبدي في الحياة الأخرى .

الاسلام والنظافة

إن القذارة الزائدة التي تميز البلدان الإسلامية أكثر من أية صفة أخرى تغشي الأغراب وتسيء إلى سمعة البلاد. ولو سألت أي سائح أمريكي أو أوروبي كيف يجد البلاد الإسلامية وشعوبها فسوف يجيبك بدون اختلاف « ما أقذرها ». والحقيقة المحزنة أن هذا النقد مصيب في أغلب الحالات، لدرجة أن المهتدين الجدد للإسلام من الأصول الأوروبية يصلون إلى شفا الردة أحياناً لهذا السبب نفسه، وعلى سبيل المثال، ذكرت صديقة لي وهي البيجوم فاطمة هيرن ساركا، مسلمة جديدة المانية، في رسالتها الشخصية إليّ بتاريخ ١٩٦٤، بينما كانت تحاول جاهدة هي وزوجها العيش في إحدى البلدان الإسلامية كتبت تقول :

« لقد اشمأزت نفس زوجي للنهاية من القذارة في هذه البلاد. حيث الجدران في مكتبه، خصوصاً في السلّم، أصبحت حمراء قاتمة من التبوّل – وهناك شجر من النخليات تؤخذ أوراقه فتمضغ وتتفل – وحيث لا يزرّر الرجال سراويلهم في الحمامات، بل يعملون ذلك وهم راجعون إلى مقاعدهم، وحيث يتوضئون من صنبور واحد. بينما ينظف الآخرون أسنانهم الصناعية، جاعلين كل ما حولهم أحمر من التبول، وبينما يعيد الخدم ملء قواريرهم في نفس الوقت، وحيث يجتمع الناس في المساجد أيام الجمع بملابسهم المنتنة، بدلاً من الحضور بأنظف الملابس وأحسنها مظهراً .

ولقد فكر زوجي ، والحالة هذه في الباكستان ، أن من واجبه أن ينعزل بأسرع ما يمكن عن المسلمين ، ليبقي فكرته المثالية عن الإسلام حية . ولعله يكون في ألمانيا أكثر نفعاً في جهوده بالتبشير برسالته » .

وبعد أن بذلت الكاتبة جهوداً يائسة للعيش في المجتمع الباكستاني المسلم ، فشلت وعادت مع زوجها إلى موطنها الأصلي في السنة التالية .

وأي قول مؤسف أكثر تعارضاً من أن البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر موصومة بالقذارة ، في الوقت الذي لا نجد ديناً كالإسلام يؤكد بشدة على ضرورة المحافظة على النظافة في شخص الانسان ومحيطه .

حدث ابن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « الطهور شطر الإيمان .. » رواه مسلم ، ومشكاة المصابيح .

وعن جابر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور » – مسند أحمد ، والمشكاة .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « لا تُقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة غلول » – مسلم ، والمشكاة .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » – البخاري .

وعن عمر بن سليم أن رسول الله ﷺ قال : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وأن يستن وأن يمس طيباً إن وجد » – البخاري .

فقابل تعاليم الإسلام هذه بالقذارة التي كانت النصرانية تجيزها في أوروبا في القرون الوسطى .

جاء في كتاب الإسلام والعالم لأبي الحسن علي الندوي ما يلي :

« اعتبرت النصرانية الأولى نظافة الجسم تدنيساً للروح وكان أكثر الناس

احتراماً هم أولئك القدّيسون الذين أصبحوا كتلاً بشعة من القذارة . فقد ذكر القديس أثناسيوس باعتزاز كيف أن القدّيس انتوني لم يرتكب إثماً قط بغسل قدميه لسن متقدمة جداً . والقديس أبراهام الذي عمّر خمسين عاماً بعد اعتناقه المسيحية ، كان يتورع عن غسل يديه أو قدميه منذ ذلك التاريخ . وكان أبوت الاسكندر يندب الأيام الماضية بقوله : إن آباءنا لم يغسلوا وجوههم قط بينما نحن نرتاد الحمامات العامة ... » .

والإسلام يضع كل تأكيده على النظافة الشخصية والصحة وذلك لسلامة البدن في هذه الحياة ، ونجاة الروح في الحياة الأخرى . فالوضوء مفروض بعد قضاء الحاجة ، وبعد النوم العميق قبل كل صلاة ، ويجب الغسل التـــام قبل الصلاة الجماعية الكبرى ، وبعد الجماع والاحتلام والحيض والنفاس وتغسيل الجنازة . وهذه الأفعال الأساسية للنظافة لا يعمل بها حتى في البلاد الأوروبية والأمريكية التي تدّعي التقدم .

والإسلام يؤكد ضرورة نظافة الأسنان وصحة الفم :

روت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » – البخاري . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بتأخير العشاء وبالسواك عند كل صلاة » – متفق عليه .

ومن السنة أيضاً غسل الفم وتنظيف الأسنان بعد كل وجبة . ولقد أثنى الرسول ﷺ على الفم النظيف ، حتى أن آخر عمل عمله قبل وفاته استعمال السواك ، فلو اتبعت تعاليم الإسلام في صحة الفم بحذافيرها في البلدان التي تدّعي التقدم ، حيث يعم صدأ الأسنان ، والنفَس المنتن ، لاستطعنا القول دون تردد إن أطباء الأسنان سيعانون خسارةً كبيرةً في أعمالهم لعدم وجود المرضى .

ولا يجب على المسلم أن ينظف جسده فحسب . بل يجب أن يحفظ ملابسه

طـــاهرةً من النجاسة . ولتحقيق ذلك : فتنظيف الأجزاء الخاصة في الجسم – السبيلين – بالحجارة أو المدر (أو بغيرها كالورق والقماش) ثم إتباع ذلك بالماء بعد الاستجابة لنداء الطبيعة ضروري جداً . ولقد قال رسول الله ﷺ : « إن من أسباب عذاب القبر إهمال الشخص في حفظ ملابسه من ركس البول والغائط » . فعن أبي هريرة قال : « كان النبي ﷺ إذا أتى الخلاء أتيته بماءٍ في تورٍ أو ركوة ، فاستنجى ثم مسح يده على الأرض ، ثم أتيته بإناء آخر فتوضأ » رواه أبو داود .

وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ » – البخاري .

وهذه الأعمال مجهولة في البلدان الغربية . حيث لا تكفي أوراق النظافة – التواليت – المستعملة لهذا الغرض .

ولا يجب على المسلم أن يحفظ بدنه وملابسه نظيفة قبل الصلوات حتى تقبل ، بل إن مكان صلاته أيضاً يجب أن يكون نظيفاً من النجاسة . وهذا يستوجب نظافة البيت والشارع ، لأن الرسول الكريم ﷺ يقول : « بأن الأرض جميعها مسجد » . قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد أحدكم أن يبولَ فليَرتَدْ لبوله » رواه أبو داود – المشكاة .

وقال جابر : « كان النبي ﷺ إذا أراد البراز ، انطلق حتى لا يراه أحد » – رواه أبو داود .

فياللعار عندما نرى أن تعاليم الرسول الكريم يستهان بها كل حين من مسلمي العصر . فهنا في لاهور ما أكثر أن يُرى رجالٌ وحتى النساء ، في بعض الأحيان يقضون الحاجة في الشوارع المكتظة ، وعلى مرأىً من الناس .

عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الملاعن الثلاثة : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » – رواه أبو داود . والبصق في الأماكن العامة مكروه من حديث رسول الله .

عن أنس رضي الله عنه قال : « بزق النبي ﷺ في ثوب له ، أي منديل » - البخاري - وفي البخاري : أن الرسول ﷺ رأى نخامة في واجهة المسجد ، فآذاه ذلك حتى بدت علامات الأذى في وجهه - ثم أخذ طرف ردائه وبصق فيه - ثم طوى إحدى ثنيتيه على الأخرى وقال : « أليس من الأفضل هكذا ؟ » .

ويحذرنا الحديث أن المسلم الصحيح يجب أن لا يؤذي جاره برمي قشر الفاكهة أو النفايات الأخرى أمام بيته . إلا أن هذه السنّة تبدو وكأنها قد نسيت في لاهور بشوارعها القذرة . إذ لوثتها البواليع والنفايات من كل نوع . فجعلت الحياة بائسة لسكانها .

وإنه لمن الزعم الخاطىء أن النظافة ، وعلى الأخص النظافة العامة ، هي من ثمار العلم والتكنولوجيا ، ومقصورة على المدنية الغربية الحديثة ، فهي لا تفقد ، حتى في هذه الأيام ، في بعض المجتمعات الإسلامية المنعزلة . وكما يصف محمد أسد في كتابه – الطريق إلى مكة – إحدى المدن الصغيرة في العربية السعودية سنة ١٩٣٢ ، وقبل أن يمسها أي تأثير عصري :

« (حائل) عربية أكثر من بغداد أو المدينة مثلاً . فليس فيها أي عنصر من البلدان غير العربية أو من شعوبها . هي نقية صافية كوعاء من الحليب الطازج . فلا ترى لباساً أجنبياً في السوق ولا غير العباءة العربية والكوفية والعقال . والشوارع أكثر نظافة من أية مدينة أخرى في الشرق الأوسط ، بل وأنظف من أية مدينة أخرى في نجد التي عرفت بنظافتها غير المعهودة في الشرق وربما لأن الناس ، وقد ظلوا دائماً أحراراً ، قد احتفظوا بقسط وافر من احترام الذات ، أكثر من أي مكان آخر في الشرق » .

ففي النبذة السابقة ، لعل محمد أسد أدرك السبب الأهم الذي جعل بلدان العالم الإسلامي معروفة بقذارتها . ولا يشكل الفقر إيضاحاً كافياً لهذه الظاهرة . بل هو أقل من أي مبرر آخر ، طالما أن النبي ﷺ وأصحابه عاشوا في زهد

متناه ، يبدو الفقير في (بون) إزاءهم موسراً . والفقر لا شك يزيد من صعوبة المحافظة على النظافة . ولكن رسولنا الكريم ﷺ وأصحابه لم يكونوا أبداً بغير وضوء . وكذلك لم تكن بيوتهم وشوارعهم قذرة في بلد حار ، جاف كجزيرة العرب . حيث ندرة المـاء الشديدة . وفي وقت لم تعرف فيه وسائل الراحة : كالمياه الجارية في الأنابيب ، ومع أن قروناً من الاحتلال الأجنبي أفقدت المسلمين كبرياءهم واحترامهم ، فلا يبقى لنا عذر بعـــد اليوم ، وقد استعدنا حريتنـا واستقلالنا ، أن نهمل تعاليم ديننا هذه التي لا يمكن الاستغناء عنها .

الآداب الاسلامية وقواعد السلوك

« الاتيكيت » الغربيـة

المفتونون بالحياة الغربية :

كتب الرائد أ. ف. م. محسن علي ، من نقابة الصحافة الباكستانية في كتاب « التقاليد الباكستانية وأدب السلوك الانجليزي » يقول :

« إن أسلوب الحياة المعاصر وفّر للإنسان درجة أعلى من الراحة ، وتشارك في الحياة الرفيعة المترفة التي شاركت بدورها في تقدم العالم في مختلف النواحي ، ونحن هنا في الباكستان أيضاً تقدمنا بعض التقدم في هذه الأمور منذ عهد آبائنا وأجدادنا تحت النفوذ البريطاني... إلا أننا في الشرق لم نقطع الشوط الذي قطعه الناس في الشرق الأوسط. فالفرس ، والأتراك ، وحتى العرب ، وبعض مواطنينا قد وقعوا في أخطاء اجتماعية مع الناس هناك ، وذلك بسبب حاجتهم لمعرفـة أساليب الحياة الغربية . ولقد كان بعض النقد في الصحافة أن زواراً من الباكستان في مناصب رسمية مرموقة ، قد سلكوا سلوكاً جعلهم لا يليقون بمقابلة الغربيين اجتماعياً . إن الواجب أن تسلك كما يسلك الرومانيون عندما نكون في روما . وهذا قول حقيقي وليس كلاماً مبتذلاً .. (ص ٢٣ ، ٢٤) وهم عندما يزورون بلداً غربياً يجب عليهم أن يلبسوا الملابس الغربية المعتادة . ذلك أنهم إن لم يفعلوا بدوا مستهجنين وكانوا موضع سخرية بين الأمم . ص (٥٤) » .

هذه هي عقلية هؤلاء الناس الذين يقنعون بتأثير مخلفات السيطرة الأوروبية . إن السلوك الغربي في اعتقاده أرقى لدرجة أن حضارتنا يجب أن تقاس بمقدار اتباعنا لهذا السلوك !!! ولهذا السبب فإن الأوربيين والأمريكيين عندما يزورون بلداً مسلماً لا يعملون « كما يعمل الرومانيون » !! إنهم لا يغيرون طريقة لبسهم أبداً ، ولا عاداتهم لتنسجم مع عادات مضيفيهم، بل إنهم يتوقعون – على سبيل الكلام – أن ينحني الكل ركعاً في طريقهم !! فلو لم نكن نحن المسلمين مصابين بمركب النقص إلى هذا الحد فيما يتصل بحضارتنا الخاصة لتصرفنا كما يتصرفون .

إن الأساليب الغربية لا تختلف كلية مع تعاليم الإسلام فحسب ، بل تتعارض معها في كل شأن، إن هؤلاء المسلمين الذين يعيشون أو يرغبون في العيش – كما يعيش الغرب المعاصر – لا يعلنون عبوديتهم العقلية والعاطفية فقط للغرب بل ينتهكون سنة نبينا الكريم ﷺ . وبما أن الاسلام طريقة متكاملة للحياة ، ارتضاها لنا الله ، فلذلك لا يمكن تعديله بالاقتباس من أية جهة أخرى .

اللباس في الاسلام :

والمسلمون الذين اختاروا الزي الغربي يحتجون بأنهم أحرار فيما يلبسون لينسجموا مع المجتمع الذي يعيشون فيه ، طالما أن الاسلام دين عالمي لم يحدد أي زي خاص . وهذا زعم خاطىء . ذلك أن القرآن والسنة يشتملان على تعاليم واضحة لا غموض فيها حول ما يجب أن يلبسه المسلمون .

يقول الله في كتابه العزيز : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . . » النحل ٨١ . «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً، ولباس التقوى ، ذلك خير » الأعراف ٢٦ . وهذا يعني أن غرض اللباس في الاسلام هو ستر العورة والحماية من قسوة الطقس ، تبعاً للأحوال الجغرافية ، وزينة منظر اللابس . بينما الغرض الأول من اللباس الغربي هو عرض ما يجب أن

يستر من الجسم إلى أبعد حد . وذلك بالملابس الشفافة ، والنصف ساترة الضيقة المبرزة للأعضاء .

وقال تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يُبدينَ زينتهنّ إلا مـا ظهرَ منها ، وليضربنَ بخُمُرهنّ على جيوبهن ... » النور ٣٠ .

عن عائشة ، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق . فأعرض عنها وقال : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لن يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفّيه » .. رواه أبو داود .

فاللباس الاسلامي أنيق نظيف ذوقي ، يمتـاز شكله بالبساطة والحشمة والوقـار . بينما يرمي الذين يلبسون الزي الغربي إلى أن يظهروا قبل كل شيء بمظهر الأنيق « وعلى الموضة » . « فالموضة الغربيـة تفرضها دوافع الإسراف والغرور .

عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَن لبس ثوب شهرة في الدنيـا ألبسه الله ثوب عذاب يوم القيامة » ... أبو داود . وعن ابن عمر ، أن الرسول ﷺ قال : « مَن جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » ... البخاري . وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلوا واشربوا وتصدّقوا والبسوا ما لم يخالط إسراف ولا مخيلة » رواه أحمد والنسائي وابن ماجة .

وعن أم سلمة قالت : « كان أحبّ الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص » ، رواه الترمذي وأبو داود ، وعن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالعمائم فإنها سيماء الملائكة ، وارخوها خلف ظهوركم » رواه البيهقي .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحسن ما زرتم الله في قبوركم ومساجدكم البياض » ... رواه ابن ماجة .

آداب الأكل في الاسلام :

وسنة نبينا الكريم ﷺ تعطي المسلم التعاليم المفصّلة لطريقة الأكل الصحيحة والتي تتعارض كلية مع ما هو سائد في الغرب الحديث .

« فقبل الأكل يتوجب على كلٍّ أن ينظر فيما إذا كان مـا سيتناوله من طعام حلالاً أم حراماً حسب تعاليم الإسلام . فإن كان حراماً فيجب أن لا يتناوله البتـة ، ذلك أن صلاة الرجل آكل الحرام لا تُقبَل » .. « الحديث » ، لمولانا الحاج عبد الكريم – كلكتا .

فالأطعمة الغربية تحوي الكثير من أنواع المشروبات المسكرة ، ولحم الخنزير . وهي لا تُؤخذ مستقلة فحسب ، بل تُمزج بغيرها عند طبخ أنواع الطعام الأخرى . ولحوم ذبائحهم غير مباحة . ذلك أنها لا تُذبح من قِبَل الذباح – عدا تلك التي تُذبَح من قبل المتدينين اليهود – . وفيما عدا هؤلاء فإن شعوب الغرب لا تفرق في الأطعمة بين الحلال والحرام ، بل يستسيغونها حسب المذاق ليس إلا .

وجاء في « كتاب الحديث » السابق الذكر :

« يجب أن يوضع الطعام على مائدة الطعام على الأرض ، لا على الطاولة ، كما هي العادة . والجلوس إلى مائدة الطعام يجب أن يكون على هيئة تريح الآكل . كأن يجلس متربعاً ، أو على ساق ، أو جاثماً على الساقين . ولا يتنـــاول الطعام أبداً في حالة الاستناد إلى شيء – كالكراسي – مثلا . ويجب أن تسبق النيـة الطعام ، ذلك ليتمكن الجسد من أداء واجباته الدينية التي أمر بها الإسلام . ولا يكون ذلك لمجرد التشهي ... ويجب أن تشترك أيدٍ كثيرة في الإناء الواحد . ذلك أن بركة الطعام تكون في الجماعة . وأول واجب أوجبه على الشخص قبل الطعام ، أن يذكر اسم الله . إذ أن ذكر الله في كل شأن هو حقيقـــة الإسلام الأساسية » .

والحديث التالي يصف بإسهاب طريقة الأكل طبقاً لسنة نبينا الكريم : عن

عامر بن أبي سلمة قال : « كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة . فقال لي رسول الله ﷺ : سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » متفق عليه .

وأخبرنا ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها » .. رواه مسلم .

وعن كعب بن مالك « أن رسول الله ﷺ كان يأكل بثلاثة أصابع ، وكان يلعق يده قبل أن يمسحها » ... رواه مسلم .

وعن جابر « أن رسول الله ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة . وقال : إنكم لا تدرون في أية البركة » ... رواه مسلم .

عن أبي هريرة قال : « أتيَ رسولُ الله ﷺ بلحم. فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها » ... رواه الترمذي وابن ماجة .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقطعوا اللحم بالسكين، فإنه من صنع الأعاجم . وانهشوا فإنه أهنأ وأمرأ » ... أبو داود والبيهقي .

وإن أولئك الذين اتخذوا عادات الغرب في الأكل – الطاولات، والكراسي، والسكاكين ، والشوك ، والملاعق – ليعتبرون ذلك الحديث منفراً غير متمش مع المدنية . وبالتالي فلن يكون لديهم إلا الاحتقار لسنّة نبينا الكريم . وإن طريقة « البوفيه » الحديثة ، حيث يملأ المدعوون أطباقهم بقدر ما يستطيعون أكله ، ثم يتناولون الطعام وقوفاً في أي مكان من المنزل ، هي طريقة مقيتة جداً في نظر الإسلام . فالإسلام يلزم أن كل كسرة من طعام يجب أن تؤكل ، وأن كل لقمة تطرح فيها إثم ، بينما يعتبر « الاتكيت » الغربي الحديث أن من سيىء العادات أن تأكل كل شيء في الطبق، وأن من قمة الأدب الرفيع أن تترك جزءاً من طعامك على الطبق دون أكل ليذهب إلى الإتلاف .

وقد جاء في كتاب « العادات الباكستانية والاتكيت الانجليزي » :

« إن جميع الخدمات على المائدة تسير بإشارات إلى الخدم . فإذا ما تركت ملعقة الحساء ، فتلك إشارة للخادم أن يرفع طبق الحساء ، حتى لو لم تكن قد انتهيت من شربه .. وإن من واجب المضيف ، أو المضيفة ، أن تعين مكان الجلوس لكل ضيف . وتجري المحاولة عادةً لتجلس كل امرأة بين رجلين ، وأن لا يكون الزوج بجانب زوجته . فإن كانت حفلة عشاء كبيرة ، فبإشارة من المضيفة ، تترك السيدات المائدة ، تاركات الرجال خلفهن ، حيث يجلسون ويشعلون سجائرهم ويتحدثون كما يشاؤون . وتتحدث السيدات في نفس الوقت كما يرغبنَ فيما بينهن ، أو يضعنَ المساحيق ثانية على وجوههن في غرفة المساحيق. وبعد فترة ، وبإشارة من المضيف يرجع الرجال إلى قاعة الاستقبال حيث ينضمون ثانية إلى السيدات .

وهكذا نرى أن حفلة العشاء ، أو الغداء ، تكون ذات وظيفة اجتماعية أكثر منها طعامية . ولذلك فمن المحتم عليك ، عندما تغادر أن تقول لمضيفك أو مضيفتك : شكراً للفرصة السعيدة .. لا للعشاء » .

إن الرجال المسلمين ـ ما لم يكونوا أزواجاً مع زوجاتهم ، أو أقارب شديدي القرابة ـ يأكلون دائماً دون اختلاط . ولا توجد عادة تفزع المسلم المتمسك بدينه ، أشد من أن توضع امرأة أجنبية بين رجلين غريبين عنها . فقابل عادات الغرب في الأكل بالسنة كما يلي :

جاء في كتاب « الحديث » السابق ... :

« إذا ما سقطت لقمة من طعام بالصدفة على فراش المائدة ، فيجب أن تُلتقط وتُؤكل ، ذلك أنها إذا طُرحت تناولها الشيطان . فإن تلوّثت بالتراب ، فيجب أن توضع في مكان حيث يصل إليها كلب أو قط أو طائر ... ويجب أن ينتهي كل واحد من الأكل قبل الامتلاء التام ، وأن يبقى ثلث الأمعاء خالية ، ويلعق الآكل يده ووعاءه ، قبل أن يذهب للغسل ، فإن في ذلك بركة . ثم يحمد الله الذي رزقه طعامه وشرابه » .

النظافة الصحية :

وتفاخر المدنية الغربية بنظافتها الصحية . ويتهم الغربيون المسلمين بالقذارة . ولكن دعنا نتفحص عن كثب نظافة الغربيين .

فقد جاء في كتاب « العادات الباكستانية » السابق الذكر :

« ثم تأتي المغسلة الحديثة الصحية » وذلك موضوع آخر صعب » فالناس في الغرب يستعملون هـذه لغسل أيديهم ووجوههم ومضمضة أفواههم أيضاً . فهم في الغرب يملأون هـذا الحوض بالماء الدافىء » فيغسلون ويبصقون في نفس الماء القذر . فحتى مع تقدم نظام المياه الصحية الجارية الحديث » فإن الشرقي في البلاد الباردة عليه أن يصبر على المياه الباردة في كل الأوقـات » أو أن يسمط يديه ووجهه بالماء الحار الجاري في الأنابيب » إذا لم يستطع أن يتكيف مع عادات الغرب» بعمل مزيج لطيف دافىء من صنابير المياه الحارة والباردة» ويستمرىء عادة الغرب باستعمال الحوض الواحد لكل شيء » .

ولا شيء أكثر كراهية للمسلم المتمسك بدينه من النصيحة السابقة . إذ انه طبقاً للسنة » لا يجوز استعمال الماء الذي استعمل من قبل في الغسل أو الاستحمام » ومن أجل ذلك كان أسلوب الحمام في الغرب هو عنوان القذارة في نظر المسلم . فقد جاء في الكتاب السابق :

« وتلحق غرفة الحمام بغرفة النوم . ولا تستعمل هذه الغرفة للحمام فحسب » بل لقضاء الحاجة أيضاً . ففيها حوض الحمـام بالحجم الكامل يجري فيه الماء الساخن والبارد من صنابير كما يشاء الإنسان . وعلى الشخص أن يدخل هـذا الحوض عارياً تماماً » فيجلس أو يتمدد مغموراً إلى رقبته . وبعـد أن يرغي الصابون على جسده » فهو إما أن ينضح الماء على نفسه أو يغسل نفسه باسفنجة حمام بنفس الماء المتسخ . وهو لا يستطيع أن يغير الماء بماء نظيف إلا إذا أخلى الحوض من الماء الوسخ » وانتظر حتى يمتلىء الحوض ثانية . ففي تلك الأثناء ربما

يصاب بالقشعريرة، أو ربما لا يتمكن من عمل المزيج الثاني بنفس درجة الحرارة السابقة ، وبالتالي لا يؤدي ذلك إلى راحة الشخص » .

ولعل الحمام الغربي الحديث بين عادات الغرب هو الأشد مقتاً . ذلك أن وضع المرحاض في نفس الغرفة التي يستحمُّ فيها النـــاس ممنوع كليةً من قبَل السنّة . وثمة عادة مقيتة ، وهي أن المرحاض الغربي يجبر الرجل على التبوُّل واقفاً ، وذلك يمنعه الإسلام . فقد جاء في نفس الكتاب السابق :

« وهنـــاك المبرزة — التواليت — وفيها أكبر صعوبة للشرقي المسلم . فهم في الغرب يستعملون ورق النظافة عنـــد قضاء الحاجة ، فيجففون به الأعضاء ويمسحونها ، ولا يستعملون الماء لهذا الغرض أبداً . والمسلم الشرقي يعدُّ هـــذه عادة قذرة . فإنه يشعر أنه لن يكون نظيفاً حقاً ما لم يغسل أعضاءه بعد قضاء الحاجة فوراً ، ولكنه إن حاول استعمال الماء لهذا الغرض في الحمام الغربي فإنه لن يوفق . إذ انه لن يستطيع فعل ذلك جالساً القرفصاء على أرض الحمام ، التي يجب أن لا تبتلَّ في أية حال . وبالإضافة إلى ذلك ، فهو لن يجد الإبريق لهذا الغرض ، وعليه أن يتلاءم مع عادات الغرب بكل عناية . وعليه أن يتذكر أن أي سوء استعمال لغرفة الحمـــام ، وبالأخص المبرزة ، سيجعله في نظر سكان الفندق ، أو صاحبته ، غير متمدن ، إن لم يكن همجياً . وإن خير شيء يفعله هو أن يعالج هـــذه المشاكل المربكة ، إلى أن ينجح في تطوير نفسه ويطرح عاداته الشرقية » .

وهكذا ، فالشخص المسلم لا يستطيع التكيُّف بأساليب الغرب ما لم يفسد طاعته لتعاليم الإسلام ، إن لم يهجرها كليةً . وتعليقاً على الخوف على المسلمين من أن يتخذوا أساليب الغرب في العيش :

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مَن تشبَّه بقوم فهو منهم — يعني الكفار — » ... مسند أحمد ، وسنن أبي داود .

الاسلام والثقافة العربية

تتسلط على عقول « المجددين » بيننـــا فكرة إقناع الجماهير بأن نمط العيش الإسلامي لا ارتباط بينه وبين الثقافة العربية ، واللغـة العربية على الأخص !! فهم يزعمون أن انتشار العربية الفصحى ، لغـة القرآن ، والعربية كلغة رسمية لكل بلاد المسلمين ، لن يخدم الإسلام بأية حال !! ولربمــا يرغبون أن يتكلم المسلمون اللغة الانجليزية ، ويستعملون الأحرف اللاتينية ، إذ ان في ذلك فائدة أكثر – حسب زعمهم – طالما ان الانجليزية لغـة عالمية ، والإسلام دين عالمي . ذلك هو تفكير المجددين بيننا ؟!

والبعض منهم يخلط في هذه المسألة خلطاً بشعاً عندما يشكون في رغبـــة المعتنقين الجدد للاسلام في اختيار أسماء عربية . ولا يفعل ذلك إلا مجدد ثقة . وهم ، ليعززوا حجتهم ، يشيرون إلى بعض المشاهير من الداخلين الجـــدد في الإسلام ، مثل محمد مرمادوك بكثال (١٨٧٥ – ١٩٣٦ م) ، المترجم الجليل لمعاني القرآن إلى الانجليزية ، ويصرّون على أنه كان حسن الإسلام ، مع أنه اكتفى بإضافة « محمد » فقط واحتفظ باسمه الانجليزي . وليس ثمة شك بأن مرمادوك بكثال كان حسن الإسلام ، وأن خدماته العظيمة للاسلام في الغرب لا تمارى ، دون أي اعتبار للاسم الذي اختاره لنفسه . إلا أن المسألة هنا ليست هي المباح فقط ، ولكن المسألة « ما هو الأفضل ؟ » . ومع أنه يُبـاح للمسلم كل الإباحة

– طبقاً للشريعة – أن يحتفظ باسم غير عربي ، أفلا يكون مع ذلك من الأفضل للداخل الجديد في الإسلام أن يختار اسماً إسلامياً صرفاً بنيّة قطع كل أثر لأي ارتباط سابق بأي نمط من أنماط الحياة غير الإسلامية ؟ ويصدق ذلك بالنسبة للملبس ، فالمسلم المتمسك بدينه ، الذي اختار طريقة الغرب في اللباس ، قبل استحداث الزيّ الحديث الضيّق المحكم ، قد لا يكون ضرورةً أخلّ بتعاليم الشريعة . فطالما أن الملابس كانت بسيطة محتشمة ، فلا غبار على ذلك . ولكن حتى والحالة هذه ، ألم يكن من الأفضل بكثير لو أنه ، من قبيل حبه للرسول الكريم ، فضّل نفس النوع من الثياب التي يلبسها المسلمون ، وذلك كي يتمشى مع السنة ؟ وفوق كل ذلك ، يتمشى مع الحديث الذي يحذّر المسلمين من أن يتخذوا نفس أزياء الكفار وعاداتهم ؟.

فكل ما أوصى به الرسول ﷺ واستحسنه، هو السنة . وهذه السنة تشمل حتى الأمور البسيطة ، كأن يأكل قوم بأصابعهم من إناء واحد ، والجلوس والنوم على الحصير والبُسط على الأرض ، واللحى ، والثياب ، والعمائم ، واللغة العربية . وفي الحقيقة ، إن هذه الأمور ليست فرائض كالصلاة والصيام في رمضان ، والزكاة والحج . وإن مجرد عدم القدرة على العيش بذلك النمط قد لا يكون في حدّ ذاته إثماً ، إلا أنه في احتقار ذلك، والسخرية منه ، على اعتبار أنه يصلح فقط لحياة البدو في القرن السابع في جزيرة العرب ، واعتبار أنماط الحياة الغربية أرقى من ذلك ، احتقاراً لسنة نبينا الكريم وسخرية بها . وكيف يتأتى لإنسان يحمل ازدراءً لأي شيء من أعمال رسولنا الكريم ، أن يعتبر نفسه مسلماً حسن الإسلام ؟.

فالمسألة مجردة هي : ما الدافع لهؤلاء الناس للتقليل من أهمية « العناصر العربية » في الإسلام ؟ إن ما يسمى بالمميزات العربية ، هي التي تعطي الإسلام ثقافته وهويته المتميزتين . وهذا هو تماماً ما يعارضه المجددون بعناد . فإن قصد حركة التجديد أن تقتطع من الإسلام أكثر ما تستطيع ، بحيث لا يثير ذلك

حفيظة الغافلين . فهم يحاولون أن ينزعوا لحم الإسلام حتى يُعرّوا عظمه . وسيسلبونه العظم أيضاً لو استطاعوا ذلك . وهم يهاجمون كل مظاهر الإسلام التي تحمل ميزات ثابتة وثقافة مستقلة عن كل أنماط الحياة المختلفة . ويصرّون على أن الإسلام ليس إلا مجموعة قليلة من القواعد العامة . وهكذا — حسب زعمهم — فالإسلام تسامح ، وأخوّة ، وإرادة خيّرة ، وسلام عالمي !! والإسلام اشتراكية ، وقومية ، وانتعاش ، وحرية ، وعلمانية ، وأفكار عملية وإنسانية ، وتقدم مادي . فالإسلام — في نظر هؤلاء المجددين — مرن ، انتقائي ، لدرجة أنه يمكن أن يكون أي شيء وكل شيء !! وإذا أمكن أن يكون الإسلام أي شيء فهو إذن لا شيء . وهذا ما يهدفون إليه بالضبط .

الاسلام والفنون

من الانتقادات التي تحكم بتفوّق المدنية الغربية ، هو تفوّقها الذي لا يجارى – كما يُزعم – في كل فرع فيما يدعى « بالفنون الجميلة » . فأمثال هؤلاء المؤلفين القدامى كبتهوفن ، وباخ في الموسيقى ، وفردي وواجنر في الأوبرا ، وشكسبير في المسرح ، ودستويفسكي وثيكري وهاردي في القصة ، ومايكل انجـلو في النحت ، وليوناردو دي فينشي ورامبراندت في الرسم ، كل هؤلاء يُنظر إليهم بعين التبجيل والاحترام في أوروبا وأمريكا ، حتى أنهم يلقبون « بالسادة العظام » . بل وإن تفهّم أعمالهم واستيعابها يعتبر في حدّ ذاته ديناً تقريباً . ويُنظر إلى كل مَن لا يتذوقهم وكأنه همجي غـير مثقف . فالسيمفونية في الغرب هي أعلى أشكال الموسيقى ، وكذلك الأوبرا ، ووصلت الباليه في الرقص أعلى درجات الترقي في الاتحاد السوفييتي ، وكذلك التراجيديا كما وضعها روائيو اليونان القدماء ، وشكسبير ، والقصة الطويلة التي تجسّد الطبائع الإنسانية في الأعماق .

وفي ميدان الموسيقى الكلاسيكية ، والرقص ، والمسرح ، ينقسم الفنانون إلى مؤلفين ومؤدّين . وبالرغم من أن عدداً كبيراً اشتهر من الممثلات وراقصات الباليه ومغنيات الأوبرا من النساء ، نجد أن أعظم المؤلفين – في هذه الميادين – من الرجال . ويعتبر تكريس الحياة لأي فرع من هذه « الفنون الجميلة » من أشرف المقاصد وأكثرها جدّية .

وإذا عرفت موهبـــة شخص ما بالتفوّق الفني – وغالباً لا يكون ذلك في حالة المؤلفين إلا بعـد سنوات من موته – حُسِبَ في زمرة العظماء الخالدين . ويحقق الروائيون الكلاسيكيون خلودهم الفني عندما تُطبَع كتبهم مرات ومرات ، وتُمتدَح « كأعمال أدبيـــة عظيمة » ، يلزم كل طالب في المدرسة أن يدرسها . ويخلّد مؤلفو الموسيقى السيمفونية والأوبرا ، بأداء إنتاجهم مراراً وتكراراً ، في قاعات الاحتفالات العظمى في المدن الكبيرة . وأعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم بالجراموفون . والتماثيل المعظمة والرسوم تُحفَظ في في متاحف الفنون حيث تُحاط بأقصى عناية .

وقويت هيمنة القيم الثقافية الغربية في بلاد المسلمين حتى دفعت الكثير من النخبة المثقفة عندنا إلى الاعتقاد بأننا متأخرون ، وذلك لأن فنوننا الجميـــلة المتواضعة ، لم تصل في يوم ما إلى هذه المرحلة من الرقي . وهم يعتقدون أن من الواجب أن نستورد ، وبالجملة ، كل تلك الأشكال الفنية من أوروبا ، كي نُحْيِي ونُغْنِي ثقافتنا الناقصة . وباسم التقدم ، فهم ينادون بإقـامة المؤسسات الثقافية على الطريقة الغربيـــة ، فتعطى الموسيقى والرقص والمسرح والسينما والأقصوصة الأدبية والرسم والنحت ، الرعاية الرسمية أكثر ما يمكن . وكل مَن يجرؤ على انتقاد هذه النشاطات على أنها غير إسلامية ، يوصَم بالتعصب والرجعية . وهنا يرد هذا السؤال بالذات : لِمَ تتعارض هذه الفنون مع الإسلام ؟

فمنذ العصور اليونانية القديمة ، كان تحصيل الفن الرفيـع يعتبر غايةً في حدّ ذاته . ومن هنـــا جاء المثل « الفن لأجل الفن » . وكذلك القولة المأثورة من أشعار جون كيت « الحقيقة هي الجمال ، والجمال هو الحقيقة ، وذلك هو أقل ما تحتاجون لمعرفته » . وبالتالي فإن القيم الفنية في العقلية الغربية مستقلة منحصرة في ذاتها . فالجمال والأخلاق ليس من الضرورة لأن يكون بينهما أي ارتباط . فحياة الفنان الخاصة لا شأن لهـــا بحب الفن ، بغضّ النظر عن مدى فسادها وتدهورها خلقياً . ولذلك فلا يهمه بأدنى شيء أن يتنكر فنان ، مثل جاجوين ،

لزوجته وأولاده ، ثم يتنصّل منهم تماماً ، وبعد ذلك يهجرهم ، ثم يصبح مدمناً ويموت أخيراً بالسفلس ، بسبب مخالطته العاهرات . فطالما أن ذلك - زعماً - من أجل الفن ، فإن منجزات عبقريته تغتفر له في الواقع كل هفواته . فالمعايير الغربيـــة للمجهودات الفنية قلّما تعتبر المادة الموضوعية ذات اهتمام متداخل . وذلك هو السبب الذي من أجـله كثيراً ما تعرض أفلام سينمائية تصوّر أبشع المفاسد الجنسية . ويدافَع عن نبذها على أساس أن تصويرها الجميل ، وحوارها الجيد ، وتمثيلها الرائع يجعل منها عملاً فنياً بديعاً . فيجب أن تتبرّأ من النقد . وبكلمة أخرى ، فإن الجمـــال الخارجي يجعل أي محتوىً أخلاقي صحيح غير موضوعي وحشوي .

والقيم الثقافية الغربية ترسم حدّاً فاصلاً بين « الفنون الجميـــلة » ، التي نحن بصددها هنا ، وتلك التي هي مجرد تسلية تجارية تافهة . فأي أوروبي أو أمريكي ذوّاق للفن سيحتقر في الحال بشاعة صورة بنت عارية وهمجيتها ، كما يرسمها الفنانون التجاريون على رزنامة مثلاً . ولكنه أبداً لن يلصق تلك الصفات لأي تمثال يوناني قديم . فمع أن الصورة العـــارية على الرزنامة ، وتمثال « فينوس دي ميلو » تعرض موضوعاً متشابهاً تماماً ، إلا أن الأخير يقـدّر على أنه غاية الجمال الذي لا يقدّر بثمن ، بل يكاد يكون موضع تقديس . فما السبب الذي من أجله لا تضع العقلية الإسلامية مثل هذا التمييز ؟

وهنا نضع أصابعنا على أحد الفروق الأساسية بين القيم الثقافية الإسلامية والغربية . فالعقلية الغربية لا تهتم قدر أنملة لما يوحي به موضوع أي عمل فني ، طالما ألبس ذلك العمل ثياباً خلّابة من اللغة العظيمة ، أو الخطوط المتناسقة ، أو الألوان الجميلة ، أو العواطف العميقة المثيرة . ولنضع الحقيقة مجردة : فإن ما يقدّر عند الغرب كأجمل أعمالهم الفنية ، ليست إلا المادية والوثنية ألبست الثياب الفاخرة ، وهُذّبت بالذوق لترضي الحواس .

وإن طبيعتهم المادية الجوهرية تظهر بجلاء في حقيقـة أنهم لا يتورّعون عن

الانحدار من مثاليتهم الأصيلة القومية ، إلى هاوية الهمجية والفجور . وخير ما يوضح ذلك هو مقـــابلة الثقافتين القديمتين في اليونان وروما . فمع أن الثقافتين كانتا متماثلتين في التردي في الوثنية والمادية ، إلا أن اليونان لم يألوا جهـــداً في إلباس ثقافتهم أجمل الحلل . بينما لم يعر الرومان ذلك أي عناية أو اهتمام . وتصح الظاهرة نفسها في المقارنة بين النهضة الأوروبية والوقت الحاضر ، فلم يخرج أمثال بتهوافن ، أو رامبراندت ، أو شكسبير ، لأن المجتمع الغربي ، تحت نير المادية ، قد انحدر إلى درجة من الانحطاط ، حتى ان التعطش لمظاهر الجمـــال قد مات . ومن هنا فإن الفنانين يظهرون براعتهم في إظهار البشاعة عارية مجردة .

ويجد الزائر الغريب للمتاحف الشهيرة ، مثل اللوفر في باريس ، والمتروبوليتان في نيويورك ، الجو في هذه الأماكن شبيهاً للغاية لبيت العبادة ، فلقـــد ربي كل متفرج منذ طفولته ليعظم كل الصور والتماثيل المحفوظة في هذه الأمكنة ، وكأنها ذروة الكمال . ولكل منها قيم لا تقدر بثمن ، وليس له بديل . فعندما يقف أمام فينوس دى ميلو ، أو الموناليزا ، لليوناردو دى فينشي ، يؤخذ فيعجز عن الكلام . فما هو هذا إذن إن لم يكن وثنية ؟! إن كل ما تعمله يد الإنسان ، إذا أحيط بمثل هـــذا التعظيم المسرف ، ليس إلا وثنية . والإسلام لا يسمح بالوثنية بأي شكل ... جاء في كتاب الثقافة الإسلامية للسيد محمد مرمادوك بكثال :

« لا شك أن البعض منكم يذكر البحث الذي ورد في الصحف البريطانية منذ سنوات . ولقد كان السؤال ما يلي : لنفرض أن تمثالاً يونانياً شهيراً وجميلاً فريداً من نوعه ، وهو لذلك لا يعوض ، كان في غرفـــة واحدة هو وطفل حي ، واندلعت النيران في الغرفة ، ولم يكن بالإمكان إلا إنقـــاذ الواحد أو الآخر ، فأيهما يجب إنقاذه ؟ إن كثرة عظمى من الذين أجابوا برسائلهم من الرجال ذوي الثقافة ، والمكانة المرموقة ، قالوا – حسب ما أذكر – بأنه يجب إنقاذ التمثال وترك الطفل يهلك . وكانت حجتهم في ذلك أن ملايين الأطفال يولدون يومياً ، بينما لا يمكن تعويض ذلك العمل الفني اليوناني العظيم . فعبادة الأعمال الفنيـــة ،

التي تصل إلى هذا الحد ، تعود إلى عدم الإيمان بهدى الله وإرادته تجاه بني البشر . فهذه الأشياء هي خير ما أنتجه إنسان منذ قرون .

« وتقضي الحاجة فنقول :

« إن الجمال يتناقص . فيجب علينا أن نتشبث بهذه الإنتاجات الجميلة القديمة كمثال فريد تُرك لنا . فوجهة النظر هذه لا يمكن أن يحملها أي مسلم ، وهي أحدث ما أنتج من أشكال الوثنية . ومع أن المسلم يعتبر حياته رخيصة في سبيل الله ، فإنه لا يفكر مطلقاً في التضحية بأية نفس إنسانية ، مهما كانت حقيرة ، في سبيل أي إنتاج بشري . فإن الثقافة الإسلامية لم تهدف لتزيين مصاحبات الحياة الإنسانية وتنقيتها ، بل تهدف لتزيين حياة الإنسان نفسها وللرفعة من قدرها » .

أما بالنسبة للمسرحية ، فإن الإسلام يعتبر التمثيل واللبس والظهور بشكل آخر انحطاطاً بالشخصية الإنسانية . ولا يعقل إطلاقاً للمرأة المسلمة الوقور أن تظهر كممثلة أمام الجماهير . وهناك ضرر قاتل آخر مساوٍ لما سبق ، مع أنه يلاحظ بدرجة أقل ، وهو السلبية الناشئة عن هذه الفنون جميعها ، وبالأخص المسرح والسينما والأقصوصة الأدبية . فإن التأكيد على ما يسمى بالفنون الخلاّقة كائن بديلي (عن تقديس الإله) . فإن مَن يشاهد المسرح ، أو يقرأ رواية ، يدخل دنيا خيالية ، ويصبح هذا التحوُّل السلبي عادة متكونة كأقوى مخدِّر يطلب مدمنها المزيد منها ، حتى لا يستطيع العيش بدونها . وذلك لأن العالم الخيالي ، الذي يضعه الفنان في قصته ، يشبع انفعالات المشاهد أكثر من حياته الحقيقية . وهو يقضي ساعات فراغه في عالم الخيال فقط . حتى أنه لا يحلم هو بنفسه ، بل يعتمد على الغير ليحلموا له . ولا شك أن هذا من أقبح المفاسد الاجتماعية التي يجلبها الراديو والتلفزيون والسينما .

فالإسلام يجعل همّه الأول في العمل الفعّال الإيجابي البنّاء لتزكية نفس الفرد

دائماً ، وفي الجو الاجتماعي الخلقي والروحي ، مصحوباً بالعبادة . من أجل ذلك نحن نقـــدّر عمر بن الخطاب ، وعليّ بن أبي طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، وصلاح الدين الأيوبي ، وأمجيرا ورانجزيب وفوق مايكل انجلو ، وليوناردو دى فينشي . وإن أرفع فن ، في نظر القيم الإسلامية الصافية ، هو الجهاد الذي لا ينقطع ، والذي لا يتخاذل ، في سبيل رفعة الخلق الإنساني إلى درجة الكمال في الحياة الواقعية ، كاستعداد للحياة الأخرى . ويجب أن ينبذ أي جهد يحاول صرف إنتباه الفرد عن هذه الغاية .

المرأة المسلمة ودورها في المجتمع

يعتبر أولئك المؤمنون بتفوّق القيم الغربية مكانة المرأة المسلمة منحطّة على أساس تعاليم الإسلام ، فيما يتعلق بـ (١) الكفالة في الزواج (٢) تعدّد الزوجات (٣) الطلاق (٤) الحجاب أو الفصل التام بين الجنسين . ومن هنا تقوم (حركة إصلاحية)[١] نامية على قدم وساق في جميع بلاد المسلمين ، لتنبذ ما هو أساس للمجتمع الإسلامي منذ نشأته . وتصفه بأنه غير إسلامي ، ثم تفرض شرائع توافق الشرائع السائدة في البلاد غير الإسلامية . والغرض من هذا المقال هو إظهار التفوّق الأصيل للتعاليم الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة ، ولهذا كان التلاعب بها إضراراً عظيم الخطر .

إن أبطال نظرية المساواة بين الجنسين يضيعون الكثير من العطف على البنت المسلمة المسكينة ، التي لم يكن لها الفرصة في اختيار زوجها ، بل يجب عليها أن تقبل الزوج الذي يختاره لها والداها أو كفيلها . فهي دوماً مجني عليها بأب مستبد غير جدير بأي حق شخصي على الإطلاق .

يقول السيد محمد مرمادوك بكثال في كتابه « الثقافة الإسلامية » :

---

(١) طبعاً في نظر أصحابها ـ المترجم .

وكثيراً ما يُثار اعتراض حول نظام الإسلام على أساس أن الوالدين يختاران زوجاً للبنت ، التي من الواجب أن يسمح لها أن تختار لنفسها . إلا أنه من المتفق عليه في جميع البلدان ، وعند جميع الشعوب ، أن البنت الغرّة التي تختار زوجها ولا يرضاه والداها ، ستجلب المصائب التي تؤدي إلى خراب العائلة. وفي المقابل ، فإنه لا يوجد والد مسلم يطلب من ابنته البقاء في صحبة رجل تكرهه . إنها سترجع إلى بيتها ثانية . «وفي تركيا ، حيث اتسعت دائرة التعارف بين البنات والرجال ، لدرجة تشمل علاقات الزواج ، أخبرَتْ بنتُ صديقٍ لي والداها بأنها ترغب في الزواج من فلان بك . فقال والدها : حسناً ، ولكن يجب أن تفهمي بوضوح ، أنكِ إذا حطمتِ عادة قديمة ، حطمتِ كل العادات القديمة التي تترتب عليها . فإذا تزوجتِ من فلان بك ، الذي لا أرضاه زوجاً لكِ — واذكري أنني أعرف أشياء عن الرجال لا تعلمينها أنتِ — فإنكِ لن تستطيعي الرجوع إليّ في حالة عدم الاتفاق أو الطلاق ، لأنني لن أقبلكِ كما لو كنتُ ملزماً بالشرع أن أعمل ، فيما لو أن زواجاً غير موفق نتج عن اختياري زوجاً لكِ . فخذي ما أستطيع أن أعطيه لكِ ، وأباركُكِ ، واذهبي في طريقك . وسلّمت البنت ، وعزمت أن تسترشد بمعرفة والدها وتجربته » .

لم يُفترَ على أي نظام إسلامي كما افتري على نظام تعدُّد الزوجات ، وهو يعتبر إزاء هذا برهاناً لا يقبل الرفض على انحطاط المرأة في الإسلام. ويفسَّر بأنه رخصة حسية محضة. وإن مصلحينا المجددين ، في أحسن الأحوال ، ينتقصون من أهميته ، فيعتبرونه خاصاً بالمجتمعات المتأخرة فقط ، ولا يُقبل إلا في أحوال استثنائية جداً وغير عادية . وعلينا أن نفهم أن هذا التفسير ، الذي يدافع به مجددونا ، ليس له أساس لا في القرآن الكريم ، ولا في الحديث الشريف . وإنما هو النتيجة المطلقة للعبودية الفكرية لقيم الحضارة الغربية . والفزع الذي ينظر به الغرب لتعدُّد الزوجات معزوٌّ إلى الفردية الغالبة التي تسيطر على المجتمع الحاضر ، لدرجة أن الزنا يعتبر أقل منه بغضاً .

جاء في كتاب « تعدُّد الزوجات من وجهة نظر المرأة » لأنور علي خان ما يلي :

« لا شك في الحقيقة أن أقوى حجة في جانب حظر تعدُّد الزوجات . هي أنها لا توجد امرأة تتقبّل فكرة منافسة دائمة شريكة في فراش زوجها . وإن حجة السيدة « مريم جميلة » تفتقد الكثير من وزنها في نظر المرأة المسلمة العادية ، لأنها صادفت أن كانت هي الزوجة الثانية لزوجها . فمن المعروف جيداً أن المرأة الأولى ، وليست الثانية ، هي التي تعاني ، عادة ، في أسرة تأخذ بتعدُّد الزوجات . إلا أن تعدد الزوجات ضروري . . لا ليحد من اللاأخلاقية ، والنزعات الفطرية المختلطة عند الرجال فحسب ، بل ولينقذ ، إلى حد بعيد جداً ، النساء البريئات من الارتماء في أيدي الوحوش . فالزوج ، الذي صمم على الزواج بأخرى سيفعل ذلك مهما كان القانون . وأولئك الذين يطالبون بالتحريم التـــام لتعدد الزوجات يريدون – بقصد أو بدون قصد – أن كل من يريد الزواج بأخرى عليه أن يخرج زوجته الأولى من بيتـه (مع كل أبنائها) . وإلا كان من الواجب أن يطالبوا لا بتحريم تعدد الزوجات فقط بل بعدم السماح بالطلاق أيضاً بأي حال . وأنه يجب على الرجال أن يعيشوا مع زوجاتهم الأوليات مهما كانت الظروف . وهذا ما فرضته المسيحية قبل حلول العصر الحاضر . وثبوت الفشل المفجع لهذا الشرط لم يعد خافياً » .

إنه من المخجل المؤسف أن تبتر أنظمة الأسرة في جميع البلدان الإسلامية . وعلى ذلك ، فإن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، وصحابته وعلمـــاءنا الأجلاء ، الذين تزوجوا بأكثر من واحدة ، قد يعتبرون « مجرمين » في نظر تشريعاتنا الحديثة .

والقوانين الإسلامية التي تتعلق بالطلاق ، قـد هوجمت بقسوة كما في تعدد الزوجات تقريباً ، واعتبر الحق الشخصي ، الذي أعطته الشريعة للرجل لطلاق زوجته ، دليلاً آخر على انحطاط منزلة المرأة في التشريع الإسلامي . وهم يصرُّون

على أن الطلاق أو التنكر من جانب واحد سيئة لا تغتفر . لأن ذلك يسمح للرجل أن يطلق زوجته إذا شاء لأتفه الأسباب وأبسطها . ولذلك فيجب أن يعتبر الطلاق جريمة يعاقب عليها ، إلا إذا كان لأسباب قاسية ، كالزنى أو الأمراض المستعصية . فيعتبر إذ ذاك جائزاً بواسطة القضاء . فبينما تعطي شريعتنا للزوجين التعيسين الشقيين بصحبة كلّ منهما للآخر طريقة فاضلة شريفة كريمة ليفترقا بسلام ، نجد أن مصلحينا التقدميين يصرّون على أن يلزم الرجال والنساء من ذوي الأمزجة الميئوس من توافقها ، على البقاء أزواجاً . وبما أنه لا يوجد قانون زمني يلزم الرجل والمرأة أن يحب أحدهما الآخر ، إن لم يريدا ذلك فإن لم يجدا المسرّة مع بعضهما ، فسيجبران على البحث عنها في مكان آخر . والبديل الوحيد لذلك هو أن يقنعا المحكمة بالكذب والافتراء لتمنحها الطلاق. ويختلقان فضيحة عامة . تنتهي لكل منهما إلى حطام خلقي . ولأن الرجل الذي يطلق زوجته بدون سبب معقول ، لا بد أن يكون سيء الخلق ، فخير للمرأة على الإطلاق أن تتخلص منه ، وتكون لها الحرية في الزواج من غيره . إلا أن مصلحينا التقدميين يجاهدون لوضع تشريع يلزمه الاحتفاظ بها ويحتقرها أكثر من ذي قبل .

وتعرض الحجاب ، أو الفصل التام بين الجنسين ، لنيران ليست بالأقل وطأة من مثقفينا الجدد ، الذين يصرون على إزالة الحجاب ، على اعتبار أنه غير إسلامي ، ويصرون على التعليم المختلط ، وتحرير المرأة ، وتشجيع المرأة بأقصى الطاقة على طلب العمل خارج البيت ، وعلى مشاركتها التامة في الحياة العامة . فذروة تحرر المرأة تتمثل في الاستعراضات الحكومية للفتيات السافرات ، في الأزياء الخاصة ، وهن يسرن في شوارع العاصمة ، يلوحن بالأعلام ، ويصحن بالشعارات القومية . وفي السيدات اللاتي يدلين بأصواتهن في أوقات الانتخابات وفي مسابقات الجمال ، حيث تفحص المتنافسات نصف العاريات ، بحكام ، تماماً كمسابقات المواشي الرابحة في أسواق النساء . وبالنساء اللواتي يلبسن كالرجال ، فيحاربن مع الجيوش أو يعملن في مصانع تجميع الآلات . ففي

المدنية الحديثة تقدّر المرأة وتحترم على أساس المدى الذي تنجح فيـه في أداء وظائف الرجال فقط . بينما تعرض في نفس الوقت أعلى حدّ من جمالها وسحرها للجمهور .

والنتيجة هي اختلاط دوري للجنسين في المجتمع المعاصر كلية . وتعـاليم الإسلام لا تسمح بقيم ثقافية فاسدة كهذه . فدور المرأة في الإسلام ليس في صندوق الانتخابات ، بل في تعهد بيتها وأسرتها . ونجاحها كإنسان يقاس طبقاً لإخلاصها لزوجها ، ورعاية أبنائها الغالين . فمن المنتظر لذلك أن تعيش المرأة المسلمة في انعزال . والحجاب هو الوسيلة اللازمة لهذه الغاية . فبينما يلعب الرجال على مسرح التاريخ فإن وظيفة النساء أن يكن مساعدات لهم ، محجبات عن أنظار العامة من وراء المشاهد . ولعل تلك المنزلة تكون أكثر تواضعاً ، وأقل إثارة . إلا أنها ليست أقل أهمية في المحافظة على نهجنا في الحياة .

أساسيات المجتمع الاسلامي

الشخصية الاسلامية المتميزة :

إذا كنا نقرُّ أننا مسلمون يقدّرون كمال دينهم فيجب علينا أن نصرّ على شخصيتنا الدينية والثقافية بحماس . فلا يكفي أن نشجب الالحاد والمادية في المدنية الحديثة وأنظمتها المدمرة لكل ما نقدس . وبدلاً من ذلك علينا أن نؤكد على القيم الايجابية البناءة في نمط الحياة الإسلامية ، وأن نكوّن منها بدائل عملية . ولا يمكن إزالة الآثار الغربية نهائياً إلا بعد تهيئة هذه البدائل . ولكي نحقق هذا فلا بد لنا من أن ندخل حرب حيـــاة أو موت مع ذوي النفوذ الموجودين في صفوفنا ، الذين لن يألوا جهداً في تضييع جهودنا ، إنهم أبداً سيحتقرون مناهج العمل المقترحة في هذا المقام ، ويعدونها غير عملية تماماً ، ونتاج تفكير رغبي محض . وسيظهرون أنه لا يمكن لشعب أن يعيش بمنأى عن المدنية الحديثة ،ولن يكون له أمل بالعيش بسبب أن جميع أطراف الدنيا يعتمد بعضهـــا على البعض الآخر بسبب التقدم والتكنلوجيا . وهم يزعمون أنه من المستحيل لأية حكومة أن تسير في العالم الحاضر وفق شريعة أنزلت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً . ويصرُّون على أن الشريعة شيء قديم ، والخلافة شيء لا يعدو أن يكون قطعة في متحف .

الواقعية والايمان الحق :

ومن المشكوك فيه، أن أولئك الذين يضعون المادية والعلمية فوق أي اعتبار قد تفكروا وتأملوا أنه لو أن رسولنـــا الكريم ، الذي قام بنفس الدور ، وأصحابه القلائل في المدينة ، لو فكروا أنه من المستحيل أن يحاربوا ضد أقوى القوى الاستعمارية في ذلك الزمان ، لاستسلموا للقنوط . وكان من المؤكد أن معركة بدر لن تحدث . طالما أن المسلمين المبتلين بالفقر كانوا من القلة حتى أنه كان من الصعب عليهم أن يشكلوا جيشاً قوامه ثلاثمائة رجل بأقل عتاد ، ومن مشاة ، مقابل أكثر من ثلاثة آلاف قرشي بأحسن سلاح على خيولهم . وهل ينسون أن « الواقعيين » كانوا هم الذين تخوفوا من هدم الأصنام في الكعبة، لأنها كانت تعتبر مصدر دخل لا لمكة فحسب بل لجميع بلاد العرب ؟ ولعل المعجبين « بالواقعية » منطقياً يمتدحون النصر الدنيوي الذي حققه معاويـة على حضرة الإمام علي – رضي الله عنه – ويعتبرون حضرة الحسين متهوراً حقاً، لأن فرصة النصر عنده في كربلاء كانت منعدمة . وفي الحقيقة فإن الصفة المميزة بين المؤمن حقاً وغير المؤمن ، هي أنها في الحالة التي فيها غير المؤمن يكون أساس أعماله الانتهازية والنفعية ، فإن المؤمن يعمل ما هو حق، دون اعتبار للنتائج الدنيوية .

إننا لن نصل إلى مجتمع إسلامي حتى نعترف بتفوق الشريعـة . فطالما أن الحاكم والمحكوم يخضعان، دون تمييز، لنفس القانون الالهي، فالاستبداد والطغيان لن يكون لهما مكان في الدولة الإسلامية . ولكي ننتفع الانتفاع التام بالشريعة ، فيجب أن تفسر دائماً بطريقة حرفية كاملة ، بدون إجراء أي تآلف أو توفيق بينها وبين ما يسمى « بالعصر المتطور » .

الاجتهـــاد :

وهذا يثير مسألة الاجتهاد – استعمال العقل المستقل في تفسير الشريعة ويقابله التقليد – أي الاعتماد على رأي المشرّعين السابقين . ولقد أصبح من عادة العصر

الحديث أن يلام العالم الإسلامي لانحطاطه وتأخره وانحلاله بسبب التقليد . وهذا الاعتقاد الشائع الخاطىء يجب أن يُكشف بسبب المغالطة التي يحملها . إذ أن التقليد كان نتيجة لهذه الأحوال البائسة ، وليس سبباً لها. ففي أثناء الحروب الصليبية ، والغزو المغولي ، التي دمرت الكثير من مراكز العلم ، فإن المشرّعين البارزين ، وعلماء الدين ، كانوا على بعد نظر جعلهم يتأكدون من أن المجتمع سيفضي إلى الفوضى الشاملة إذا سمح للجهلة وغير ذوي الكفاءات من الناس أن يتلاعبوا بالشريعة كما يحلو لهم . ولقد أوجد أثر المدنية الغربية الحاضرة حالة مشابهة بأخطار أبعد مدى . ففي أيامنا هذه فإن القادة ذوي الثقافة الغربية ، القليلي الفهم — أو العديمي الفهم — للقيم الإسلامية يطلبون لأنفسهم حق الاجتهاد ليشوهوا الشريعة ، جرياً وراء العرف . وهم يعملون ذلك عندما يرفضون فقه المشرّعين القدامى ، على اعتبار أنه لا يصح تطبيقه في الوقت الحاضر ، وعندما يبثون الشكوك حول صحة الحديث . وذلك ليسمح لهم بأكبر قسط من الحرية لإدخال البدع الغربية . وهذا هو ما يفهمه المجدّدون اليوم من الاجتهاد .

ومهما يكن فالاجتهاد أداة من أدوات الفقه الإسلامي. وهو أساسي لا يمكن الاستغناء عنه . ولم يكن بأقل تقديراً عند رسولنا الكريم نفسه . فالاجتهاد ، كقاعدة ، لا يمكن عيبه . بل تعاب إساءة استعماله كما يفسر ويعمل به حالياً . ويصلح الاجتهاد فقط عندما لا يكون هناك أوامر مميزة من القرآن أو السنة أولاً . وعندما لا يتعارض مع القرآن والسنة ثانياً . وعندما لا يستعمل الجدل ليطمس القواعد الأساسية في القرآن والسنة ثالثاً. ومن الواضح تماماً أن مصلحينا المجددين أفسدوا كل واحدة من هذه القواعد لا سيما الأخيرة .

خطر محاولة مراجعة الشريعة :

يقول محمد أسد في كتابه « قواعد الدولة والحكومة في الإسلام » :

« إن أية محاولة لمراجعة الشريعة في ضوء الأحوال الحاضرة من شأنها أن

تدمر آخر أثر للثبات والبقاء ، اللذين يعتقد المسلم غريزياً، وعن حق ، بوجودهما في الشريعة الالهية . فإذا كانت المراجعة ضرورية في الوقت الحاضر ، فبالتأكيد انها ستصبح ضرورية بعد بضع عشرات من السنين منذ الآن عندمـــا تتغير « الأحوال الحديثة » . وهكذا حتى يصبح شرع الإسلام لا وجود له . فإذا أجيز ذلك فأي حق يمكننا ادعاؤه في أن المشرّع يعتقد أن شرع الإسلام فرض أزلي ؟ ألا يكون من الأنسب في تلك الحالة أن نقول أن هـــذا الشرع تبع للأحوال عوضاً عن أن يكون موجداً لها . ولأجل ذلك لا يمكن أن يكون شرعاً سماوياً » ؟

التعليم وكيف يتم :

والتعليم هو أهم وظيفة للمجتمع الإسلامي . ونهضة الإسلام لا تكون بدون الدعم الجماهيري . ولا أمل في نجاحها ما لم يفهم الجيل الناشىء ويستوعب قيمة ديننا . فكيف يتم ذلك ؟

أهميـــة المسجد :

فأولاً ، يجب أن نعرف أن المسجد هو المكان الصالح الوحيد لتعليم شبابنا . فكل مسجد يجب أن يكون مدرسة أيضاً . وثانيـــاً ، يجب أن تكون دراسة العربية إلزامية في كل مستويات التعليم ، وأن تعطى الأولوية العليا . فكل طفل مسلم يجب أن يتعلم لا أن يقرأ القرآن ويحفظه فحسب ، بل وأن يفهم معانيه من نسخ القرآن الكريم العربية الأصلية . فالعربية يجب أن تكون الواسطة في التعلم ، ويجب أن يكون القرآن هو المحور الذي يدور حوله منهج التعلم بكليته ، بدلاً من أن يكون مجرد موضوع إضافي . وكل المواد الأخرى يجب أن تعلم على أساس علاقتها بالقرآن الكريم ، ليتجنب أي تمييز دقيق بين التعلم الديني والدنيوي . وبهذه الطريقة تتكامل جميع برامج التعلم بانسجام تام . ودراسة اللغـــات

الأوروبية ، والأدب ، والفلسفة ، والقانون ، يجب أن تنحصر في الجامعات . ومن الأفضل أن تكون في المستويات العليا. ويجب أن لا نعرض أطفالنا وشبابنا للثقافة الحاضرة ، فلا شيء أشد فتكاً من هذه السموم للعقول النقية الناشئة . ومن جهة أخرى ، فمن الضروري أن يكون أولئك الذين هم في مراكز المسؤولية والتأثير لديهم المعرفة التامة بالحضارة الحديثة ، حتى يقنعوا بالفعل تأثيرها تماماً .

تنقية التاريخ الاسلامي :

ويجب علينا أن نطوّر موقفنا تجاه التاريخ الإسلامي ، حتى تزوّد شبابنا بفهم واضح للماضي وعلاقته بالحاضر . فالكثرة الغالبة من مثقفينا الممتازين يعتبرون نقل الفلسفة الإغريقية ، بواسطة المعتزلة – أهل العقل – إلى أوروبا في العصور الوسطى ، كأعظم ما قدمته الحضارة الإسلامية للانسانية . فالفلاسفة الهلينيون – أي ذوو الفلسفة اليونانية – مثل الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، نالوا من الثناء أكثر مما يستحقونه . فالنظرة الأصح للتاريخ الإسلامي تجعلنا ندرك لماذا كانت منجزات عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي وألجيرا ورانجزيب أعظم بكثير . وبدلاً من التفاخر بإضافات الإسلام المدنية الغربية الحديثة ، يجب أن نعي الحقيقة : وهي أن نقل العلوم الإغريقية إلى أوروبا في العصور الوسطى كان اتفاقاً ، ولا شأن له بالإسلام نفسه . ولما كان الإسلام ذا أصول سماوية لا تخطىء ، وهو لذلك متكامل في نفسه ، مستقل عن أية فلسفة من صنع البشر ، فمن الخطأ القاتل أن نحاول أن نثبت صلاحية عظمة المدنية الإسلامية بالمفاخرة بإضافتها لأوروبا في العصور الوسطى ، ذلك أن الإسلام يحيا مستقلاً بذاته وليس تابعاً للثقافات الأخرى .

الحكام والتعليم :

ومع أنه من الواجب على حكامنا ، أن يبذلوا كل طاقاتهم الشخصية ،

ومساندتهم المعنوية الكاملة ، وإمداداتهم المالية السخية ، لتعهّد أنظمتنا الثقافية وإغاثتها ، كما أن مدارسنا يجب أن تتحرز من رقابة الدولة المباشرة ، وأن يسمح لها أن تنشط على أسس مستقلة . ويجب أن يُحَثّ أهل الثروات ، ليشاركوا مالياً بالزكاة والصدقات ، في إنمـــاء المدارس على جميع المستويات . وسيكون بالإمكان جعل التعليم مجانياً ، من الابتدائي إلى مستوى الجامعات ، بواسطة نظامنا الثقافي المدعوم بالزكاة ، والصدقات ، والوصايا ، والأوقاف . ومع أن المدارس الابتدائية ، يجب أن تفتح لكل الأطفال ، فإن التعليم الثانوي والجامعي يجب أن ينحصر في الشبان الذين لديهم الاهتمام والقدرة العقليـة للانتفاع منه . ومع أن الآباء يجب أن يشجعوا بكافة الوسائل على إرسال أبنائهم للمدارس ، إلا أنهم يجب أن لا يُجـــبروا على ذلك ، ذلك أن الأب هو الذي يقرر كيف ينشأ أبناؤه وليست الدولة .

حمـــاية الأسرة :

ومن وظائف المجتمع الإسلامي الهامة ، حماية الأسرة . فالروابط الأسَرية القوية ، والمودّة المتبادلة ، والمسؤولية ، كل ذلك لا يستغنى عنه للمجتمع السليم . فالطاعة من الأبنـــاء ، والاحترام والاعتبار لكبار السن ، يجب الإصرار عليها وتشجيعها بكل وسيلة ممكنة . وأفضل الوسائل الفعّالة لذلك هو وضع حـــدّ لعـــادة تقديس الشباب . فعندما تجعل النساء يشعرْنَ بالتقدير والاحترام في حملهن القسط الأوفر من مسؤولية حفظ الحياة العائلية السليمة ، فلن تكون لهنّ رغبة في تمثيل دور الرجل ، ولن يعـــدنَ يعتبرنَ أن احترامهن ، ككائنات بشرية ، يعتمد على منافستهن للرجال في الأعمال ، والسياسة . والمجتمع المسلم يجب أن يصرّ على فصل الأولاد والبنات بعد البلوغ ، وعلى منع الكتب اللاأخلاقية ، ونشر الصور في المجـلات ، والصحف والكتب ، والإعلانات التجارية . وعليه أن يمنع بيع المشروبات الروحية ، وأن يفرض العقوبات الشرعية الكاملة على الجنس المنحلّ .

وليس هناك سم قاتل للقيم الإسلامية أشد من صناعة السينما الحديثة . فلذلك من الواجب منع استيراد جميع الأفلام الأجنبية ، وتحريم إنتاج الأفلام المحلية . ويجب أن تقتصر السينما والتلفزيون على الأغراض التعليمية والدينية .

وعلينا أن نبذل كل جهد في مقاومة مفاسد القومية ، وأن نقوّي روابط الأمة من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه . فإن لم تكن الأقطار الإسلامية قادرة على أن تتحد في الحال سياسياً . فإنها تستطيع أن تمهد الطريق لذلك ، بإزالة معاملات تأشيرات الدخول ، والجوازات ، والمكوس ، والجمارك المفروضة ، لتشجع حرية التجارة والسياحة المطلقة .

والأقليات التي تعيش تحت حكم الإسلام يجب أن يسمح باستقلالها الديني والثقافي داخل مجتمعات منحصرة خاصة بها . ويجب أن تراعى حقوقهم بدقة طبقاً للشريعة .

إننا لن نجد الحيوية والنشاط حتى ندرك النتائج المهلكة من تقليد الثقافات الأجنبية . وحتى نعمل كل ما يمكن لوضع حد لذلك . وليسمع كل من يشك في الأهمية المتداخلة لتجنب اختيار الأزياء الغربية وعادات العيش لمؤرخنا العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٦٠٤) وما قاله في هذا الموضوع [١] :

جاء في المقدمة في الكتاب الأول الفصل الثالث والعشرون في « أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله » :

« والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه . إما لنظره بالكمال لما وقر عندها من تعظيمه . أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي وإنما هو لكمال الغالب . فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً . فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به . وذلك هو الاقتداء ،

---

(١) لم أضع هنا ترجمة ما جاء في كتاب السيدة مريم جميلة وإنما نقلت الفصل كاملاً من كتاب المقدمة لابن خلدون . – المترجم .

أو لما تراه ، والله أعلم ، من أن غلب الغالب ، ليس بعصبية ولا قوة بأس . وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب ، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب . وهذا راجع للأول . ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه ، في اتخاذها ، وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله . وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً . وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم . وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر . لأنهم الغالبون لهم. حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ، ولها الغلب عليها ، فيسري إليهم في هذا التشبه والاقتداء حظ كبير ، كما هو في الأندلس مع أمم الجلالقة . فإنك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم ، وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى في رسم التماثيل على الجدران وفي المصانع والبيوت . حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله . وتأمل في هذا سر قولهم « العامـة على دين الملك » فإنه في بابه . إذ الملك غالب لمن تحت يده . والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال منه اعتقاد الأبنـــاء بآبائهم ، والمتعلمين بمعلميهم ، والله العلي الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق » .

ففي هذا الفصل الفريد ، وصف ابن خلدون بنظر العبقري الثاقب الأخطاء التي نحن بها تماماً والعلاج واضح. فإن كانت عزتنا بإيماننا وتراثنا أصيلة . فيجب أن تنعكس على مظهرنا الطبيعي . فإن لم نرد أن نكون كأعدائنا ، يجب أن لا نرغب في التشبه بهم أيضاً . وإنه ليس من حقنـــا أن نسمي أنفسنا مسلمين إذا اتفقنا أن نكون كذلك .

كتب الحاج أبو بكر سراج الدين ، وهو مسلم انجليزي ، وكان اسمه دكتور مارتن لنجز ، في صحيفة (Muslimnews International) بلندن في عدد يناير سنة ١٩٦٣ .

« العالم النفسي المسكين هو فقط الذي يقول أن هذه مجرد مظاهر . ولذلك لا أهمية لها . فملابس الرجل وبيته ، بعد جسمه ، هي أقرب الأشياء لنفسه .

ولها تأثير لا يقدر عليها . فكان من السهل عليها أن تنسجم مع الإسلام فيما يحيط بها بما هيأته لها الحضارة الإسلامية . أما الآن ، وبدون سبب معقول ، وضعت الحضارة الالهية جانباً ، ولذلك فإننا نجد في أغلب ما يسمى بالبلدان الإسلامية ، رجالاً حلقوا ذقونهم ، وطرحوا عمائمهم ، واتخذوا ملابس تضع الكثير من الصعوبات في طريق الوضوء ، وتجعل حركات المصلي تبدو بشعة بل ومخيفة . وبالنسبة لبيوتهم ، فلا يوجد ما يذكر الانسان بالله ، ويوجد الكثير مما يجعل الانسان ينساه . فالعمامة هي إحدى العلامات الظاهرية ، التي تدل على الاحترام الداخلي عند المسلم . فالنبي الكريم ﷺ أثنى على العمائم في كثير من أحاديثه . وأوصى الرجال بإطالة لحاهم . كما يمكن أن يقال أن الملابس الواسعة الفضفاضة ، كالتي كان يلبسها هو وأصحابه ، هي الملابس الاسلامية الصحيحة ، ذلك أن هذا هو النوع الوحيد من الملابس التي تتفق وحركات الصلاة . ومنزل رسولنا الكريم ﷺ في المدينة ، كان امتداداً لمسجده . ولمدة تزيد على إثني عشر قرناً كان كل بيت مسلم امتداداً لأقرب مسجد . فكان الرجال ينزعون أحذيتهم إذا أرادوا دخول بيوتهم . وكانت أرضيات البيوت مفروشة بالحصير أو السجاد الطاهر . وكانوا يجلسون في بيوتهم كما يجلسون في المساجد . وكل الزينات على الجدران كانت مذكرات بالله ، أسماء إلهية ، آيات من القرآن الكريم ، أحاديث للرسول ﷺ . هذه هي روح الحضارة الإسلامية . ولا يوجد قطعاً أي سبب لتغيير أي شيء مما ذكرت آنفاً ، أو لعدم بقاء البيت المسلم ، في الوقت الحاضر كامتداد للمسجد . ففي ظروف كهذه حقاً يستطيع الإسلام أن ينتعش فقط » .

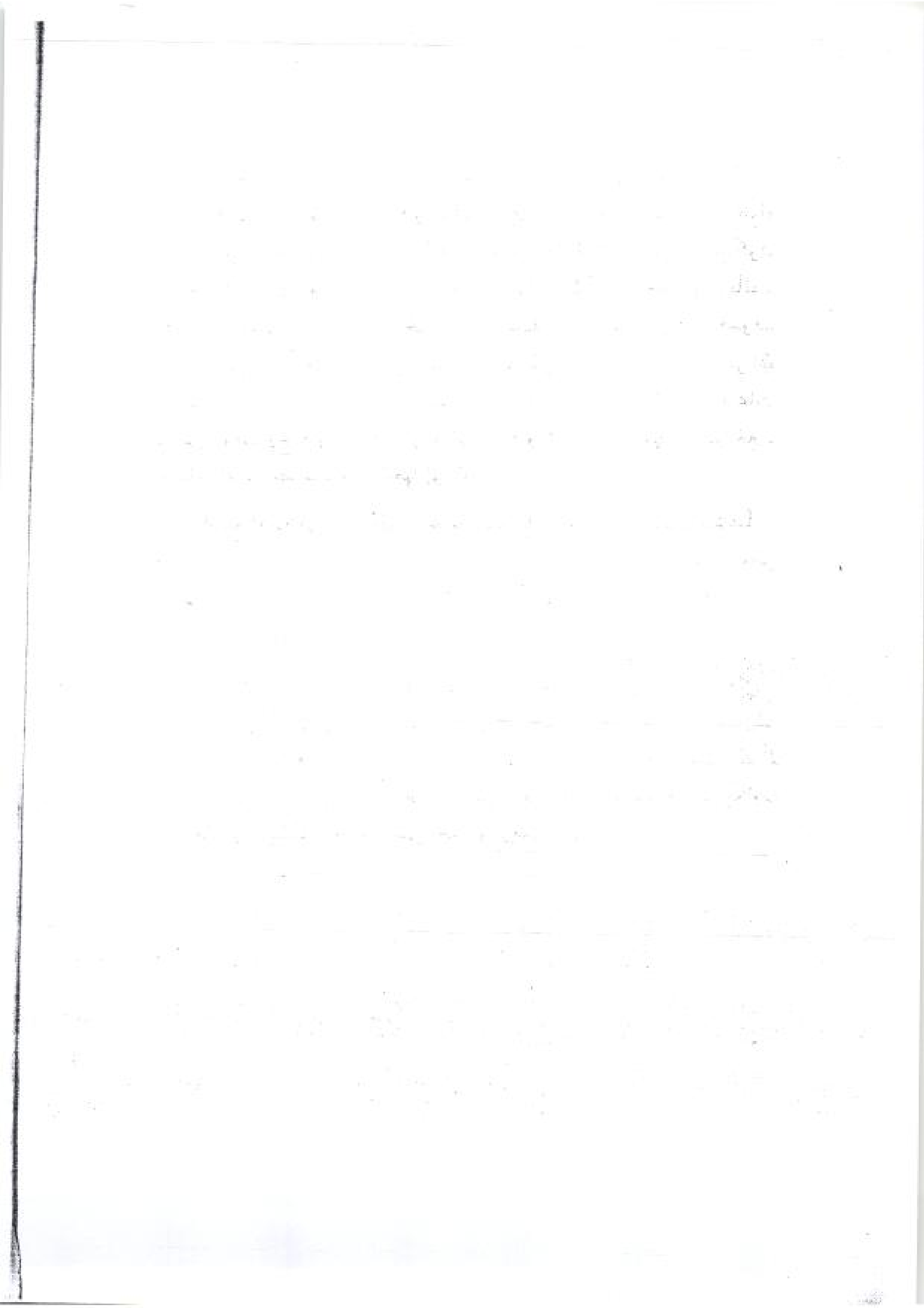
كيف سيكون العالم تحت حكم الإسلام ؟

« عندما يدرك الناس حاكمية الله عز وجل ، وسيادة شريعته ، فإن كل القيم المزيفة ستزول من نفسها . سيكون عالماً البشرُ فيه عبيدُ الله ، لا لبعض . سيعني التحرر من كل أشكال الطغيان . سيكون عالماً يُحكم على الرجل فيه بأخلاقه ، لا بنجاحه الدنيوي ، ولن يكون هناك مكان للتفرقة العنصرية ،

والتحاسد الطبقي . وستوجيد صلاة الجماعة ، والحج ، والصيام ، والزكاة ، أواصر المحبة القوية ، والثقة ، والمسؤولية بين المرء وأخيه . سيتمتع الأغنياء بثرواتهم على أساس أنها نِعَمٌ من الله، للفقير فيها حق تؤكده الشريعة. سيكون عالماً خالياً من التصنع والخداع. ولن تحاول النساء التشبُّه بالرجال. ولن يأنف الكبار من سنهم . ولأن هذه الحياة الدنيا ستُفهَم على أنها دار ممر ، فسوف يكون عند الناس فكرة الخلاص الأبدي. وسينبذون كل ما يبعدهم عن ذكر الله واليوم الآخر. سيطرحونها على أنها مفاسد . وستفلس النوادي الليلية، وقاعات الرقص ، والمسارح ، والبارات ، والصالونات ، وكازينوهات القمار، والمواخير. وستقفل أبوابها مضطرة لاحتياجها إلى العمل .

والمجتمع الإسلامي لن يكون مجتمعاً يوتوبياً – مثالياً سياسياً واجتماعياً – بحيث يتعذر التطبيق . ذلك أن الكمال لا يختص بهذه الدنيا . وسيحاول البعض منا خرق القانون . ولكن الجريمة ستنحصر في أفراد معدودين ، بدلاً من أن تكون وباءً شاملاً .

ولن تكون هناك حيرة في أي عقل بالنسبة لما هو حق وما هو باطل . وطبعاً سيكون حتى في المجتمع الإسلامي بعض البشر يشكون. إذ أن الأحزان جزء لا يتجزأ من هذه الحياة ، وكذلك الأفراح . وسوف يكون هناك ألم وجوع، ومرض وموت. ولكن اليأس والملل سينعدمان . والانتحار لن يكون معروفاً . ولن يشك أحد في معنى الحياة وغرضها .



الفصل الثاني

الاسلام في التطبيق

١ — حركة محمد بن عبد الوهاب .
٢ — الحركة السنوسية .
٣ — شاه ولي الله .
٤ — سيد أحمد شهيد .
٥ — الأمير سعيد حليم باشا .
٦ — بديع الزمان سعيد نورس .
٧ — جمال الدين الأفغاني .
٨ — السيد محمد رشيد رضا — ومجلة المنار .
٩ — الشيخ حسن البنّا .
١٠ — الإخوان المسلمون .
١١ — محمد علي جوهر .
١٢ — رسالة العلاّمة محمد إقبال .
١٣ — مولانا السيد أبو الأعلى المودودي .
١٤ — الجماعة الإسلامية — باكستان .

حركة محمد بن عبد الوهاب

الحقيقة المعروفة أن الانحطاط الديني والخلقي في العالم الإسلامي بلغ غايته في مطلع القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) . حتى أن غير المسلمين، وليس المسلمون أنفسهم فقط، أدهشهم التفاوت بين المسلمين الأوائل والمسلمين في هذا العصر . ويرسم كاتب أمريكي ، وهو لوثروب ستودارد ، صورة دقيقة لهذا العصر في الانحطاط . وفي نظر الأمير شكيب ارسلان، أنه لم يتأتّ لأي عالم أو مفكر إسلامي قدير من بين المسلمين أن يرسم صورة كتلك . فقد جاء في كتاب « عالم الإسلام الجديد » ما يلي :

« وبالنسبة للدين – أي الإسلام – فقد اضمحل كما اضمحل كل شيء ، فعقيدة التوحيد الصادقة ، التي جاء بها محمد – عليه الصلاة والسلام – قد اكتظت بركام من المعتقدات الخيالية ، والمذاهب الباطنية الفارغة . وغدت المساجد مهجورة مقفرة خربة بالجهلاء الذين كانوا يتزيّنون بالتمائم ، والرقى ، والسبح ، يستمعون إلى دراويش قذرين ، ويحجّون إلى أضرحة الأولياء يقدّسونهم على أنهم قدّيسون وشفعاء. وبالنسبة لأوامر القرآن الخلقية فكانت لا يلتفت إليها، ولا تتبع . حتى أن المدن المقدسة كانت مخابىء للظلم . وفي الحقيقة ، فقد كانت الحياة تظهر وكأنها قد فارقت الإسلام . ولو قدّر لمحمد ﷺ أن يرجع إلى الأرض لوصم أتباعه بالردّة والوثنية » .

وقد وُلد محمد بن عبد الوهاب في ظروف مشبطة كهذه سنة ١٧٠٣ ، في عائلة من نجد ، اشتهرت بالعلم والتقى. وكان في طفولته متّقد الذكاء لدرجة غريبة. فما أن بلغ سن الرشد حتى اشتهر في كل جزيرة العرب كعالم فذّ . ومع انتشار شهرته تقاطر إليه طلاب العلم . ولقد رحل محمد بن عبد الوهاب ، الذي ما زال متعطشاً للعلم ، إلى مكة والمدينة . ثم درس أخيراً على أساتذة خصوصيين ، في مدن مختلفة في إيران كذلك .

وعندما رجع إلى مسقط رأسه ، نجد ، ازداد حكام المنطقة يقيناً أن تأثيره سيقوّض سلطانهم . فقد أرسل والي أحد أقاليم نجد التحذير التالي إلى حاكم محلي : « لقد تصرّف الشيخ محمد بن عبد الوهاب على غير ما أرغب . فاقتله في الحال ، وإلا سأمنع كل عطاء تأخذه » .

وعندما سمع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بذلك أعلن دون وجل رسالته : « إن الموقف الذي أقفه ، والرسالة التي أدعو إليها كل واحد هي: لا إله إلا الله، وأركان الإسلام الأساسية لعمل الخير وترك الشر . فإن صبرتم على هذه الرسالة، وثبتّم عليها ، فإن الله سينصركم على عدوكم » .

ولم يقتنع الحاكم بذلك . وأمر الشيخ بالخروج من أقليمه . فاضطر للخروج سيراً على قدميه على رمال الصحراء الملتهبة منفياً .

وفي أثناء تجواله رحب به الأمير محمد بن سعود الذي وافق على المعاونة في تحقيق مخطط الشيخ . ولم يكن ابن عبد الوهاب قانعاً بالدعوة إلى الإسلام بالوعظ . بل صمم على بناء المجتمع الذي يتجسد فيه الإسلام بنقائه الأصيل كنهج عملي في الحياة . وفي ظل حكم الأمير محمد بن سعود انقلبت طرق الحياة والمعتقدات لشعبه . وقد كان أكثر هؤلاء الناس ، سابقاً ، مسلمين بالاسم لا أكثر لا يعرفون إلا النطق بالشهادتين وحتى تلك أيضاً يخطئون فيها . فأصبحوا بعد ذلك يلتزمون بأداء صلوات الجماعة ، وصيامهم رمضان ، وأداء زكاة أموالهم . ومنع التبغ ، والحرير ، ومظاهر العيش المترف الأخرى . وأزيلت جميع

الضرائب غير الاسلامية . ولأول مرة منذ قرون عدة ، سرى الأمن والانتعاش في المنطقة حتى أصبح البدوي ينام الليل دون خوف من أن تسرق ماشيته ومتاعه . وحتى العبد الأسود،أصبح يستطيع أن يقدم ظلامته بين يدي الحاكم، الذي ينتمي إلى أقوى العشائر ، ويحاسبه على أخطائـه . وانقطعت الخلافات المذهبية . إذ أخذ العلماء من كل مذهب معروف أدوارهم في إمامة صلوات الجماعة .

لقد أثبت الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه مجدد من الطراز الأول . وخير خلف للإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكأسلافه ، فقد نبذ بشدة المذاهب العقلية لفلاسفة المعتزلة . وأصر على أن القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، يجب أن يقبلا ويعمل بهما حسب معانيهما الحرفية السهلة دون جدال. وتبعاً لذلك فقد أكد الأهمية العظمى لنصوص القرآن السهلة ، غير منمقة بالتفسيرات الغامضة ، وشروح التفسيرات . وكان على حق عندما خشي من أن العنـاية الزائدة المبذولة حول التفسيرات أكثر من نصوص القرآن والحديث . وهـذه عرضة للخطأ ضرورة . إذ أنها من أصل بشري. ولقد أشار إلى أنه إذا اختلطت نصوص القرآن الكريم ، لا سمح الله ، واختلطت مع التفسيرات المختلفة لتلك النصوص ،فإن المسلمين الذين لن يتيسر لهم الوصول إلى الكتب المنزلة في صفائها، سيجدون أنفسهم وقد أصبحوا فئة" كاليهود والنصارى . وبالرغم من أن الشيخ ابن عبد الوهاب كان منحازاً متعصباً للمذهب الحنبلي في الأمور الشرعية ، إلا أنه حتى في تلك الأمور لم يقلد ابن حنبل تقليداً أعمى في كل شيء . ولقد قال في كتاباته بجلاء تام ، إنه لا يعارض المسلمين الذين يرغبون الانتماء إلى مذاهب الأئمة الثلاثة الآخرين .

لقد شخص الشيخ ابن عبد الوهاب ببصيرة ثاقبة لا تخطىء ، أقبح داء في المسلمين في عصره ، ألا وهو تمسكهم المروع بالصوفية أو الباطنية . وبلا ريب فإن الشيخ لم يكن يعارض التصوف من حيث هو . ففي شبابه درس عن تعاطف

الصوفية المختلفة دراسة وافيـــة . ولكنه عندما كبر تحقق من أن مساوىء الصوفية تعمّقت جذورها وانتشرت . فكما أن الأشياء الطاهرة المباحة ، كالماء مثـــلا ، يجب أن يحرم بواسطة الطبيب ، إذا ثبت ضرره للمريض ، فكذلك مذاهب التصوف ، يجب أن تمنـع وتبطل للظروف الراهنة ، مع أنهـــا في الأصل مباحة .

« لون سجادة الصلاة بالخمر إن كان ذاك أمر مرشدك الروحي » .. فمن الواضح أن عقليـــة كهذه ، لا تفرق بين المرشد الروحي والآلهة من دون الله . ولقـد تنبّه الشيخ العربي ابن عبد الوهاب ، إلى أن المسلمين في عصره أصبحوا مدمنين على الصوفية كنوع من المخدرات ، هدهدتهم للنوم وسلبتهم كل حيوية ونشاط . وهكذا قاد الشيخ حملة ضد كل طرق الصوفية المتشعبة ، التي اختلفت مع عقيدة التوحيد ، أو وحدانية الله ، أبرز عقيدة أساسية في الإسلام . لقـد أشعلها حرباً ضروساً على كل البدع ، كتقديس الأوليـــاء ، وتقديس الرموز ، وتقديس القبور . ولقد شجب على الأخص ، تلك العادة السائدة ، والتي تتعارض تماماً مع السنة النبوية ، ألا وهي عادة إقامة المساجد ، والمزارات على القبور ، وأمر بإزالتها كلهـــا في الحال . ومع أنه لم يكن يمانع في زيارة الناس للقبور ، لتذكيرهم بالحياة الأخرى ، إلا أنه كان يعارض تلك العـــادة بشدة ، كنوع من عبادة الأجداد ، لطلب العون من أولئك المدفونين في القبور ، رجـاء شفاعتهم عند الله .

وطبيعي ، فقد واجه الشيخ معارضة عنيفة من جهات كثيرة . لقـد حاول أعداؤه أن يقنعوا الناس بأن تعـاليم الشيخ هي دين جديد خارج إطار الإسلام الصحيح . واتهموه بإيجاد مذهب جديد ، ورَمْي جميع اولئك الذين لا يقبلون إمامته بالكفر . ولم يكن في أيّ من هذه الاتهامات شيء من الحقيقة . ولكن أعداءه استطاعوا إقناع مَن استمع إليهم بهذه الأباطيل ، بازدراء أتباعه ونَعْتهم بالوهابيين .

وبعد موت الأمير عبد العزيز ، خلفه ابنه . ولسوء الحظ ، ولافتقاره للدهاء والسياسة ، فقد حرّض أتباع الشيخ على الحكومة التركية بعداء مرير . ولو كان حكيماً لتجنّب سفك الدمـــاء ، الذي لا لزوم له ، بين المسلم وأخيه المسلم . ولكن لأن أتباعه أصرّوا على السلطة السياسية المطلقة لأنفسهم ، وثاروا على الحكومة التركية ، فإن مجرد ذكر الحركة الوهابيـــة هو شيء بغيض للأتراك ليومنا هذا .

ولم تجلب هذه الغلطة المميتة لأتباع الشيخ ، سوى غضب محمد علي الألباني ، الذي كان حاكماً لمصر في تلك الأيام . لقد عزم محمد علي على محو كل أثر للحركة الوهابية ، فغزت جيوشه الجزيرة العربية . وبعد معركة ضارية ، قرب مدينة الطائف سنة ١٨١٤ ، انهزم الوهابيون هزيمة حـــاسمة ، فذبح منهم أكثر من ٥٠٠٠ رجل ، وامتلأت المدينة بأكداس الجثث . وتَلَتْ هذه المعركة أعمال وحشية أخرى ، فقد جُمع كل أشراف الوهابيين، وأعدموا على مرأى من الناس، ووضعت على جثثهم الكلاب. واستبيحت كل مدينة توصل إليها الغزاة، فقطعت أشجار النخيل ، وأتلفت المحاصيل ، وقُتلت المواشي ، وأضرمت النيران في المنازل ، وذُبح الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال دون رحمة . وقـد سُرّت بالطبع ، الحكومة البريطانية ، التي كانت تخشى أي بعث إسلامي ، عنـــدما سمعت بما فعله محمد علي وولده إبراهيم ، وأرسلت وفداً خاصاً من الهند برئاسة القائد جورج فوستر سادلير ، لتهنئتهم . وفي سنة ١٩٠٠ ، كتب المبشر المسيحي السيء السمعة ، صمويل زويمر : « لقد انتهت هذه الحركة الوهابية نهاية ذليلة . وفي ميدان السياسة ، أثبتت أنهـــا لا شيء سوى البهلوانيات . ويمكن اعتبار سلطة السعوديين الآن على الجزيرة العربية ، في خبر كان » .

إلا أن هذه التنبؤات الشؤم أثبتت بطلانها . إذ أنه بعد أقل من ربع قرن، استطاع السلطان عبدالعزيز بن سعود ، بجهوده الخاصة ، أن يفتتح معظم جزيرة

العرب . وفي أول عهده كان المسلمون في كل أنحاء العالم ، لا العرب الذين تحت لوائه فقط ، يتطلعون إليه بقلق ليدعم بعثاً إسلامياً عالمياً . إلا أن هذه الآمال تداعت عندما أعلنت الملكية ، وأصبح من الواضح تماماً أنه بالنسبة للملك ابن سعود ، لم يكن الحماس للحركة الوهابية سوى أداة لحوز السلطة الشخصية .

كتب السيد محمد أسد في كتابه « الطريق إلى مكة » يقول :

« لقد كان ابن سعود يحب أن يتكلم عن الإسلام كرسالة أنيطت به . وحتى في أواخر أيامه ، وبعد أن أصبح معروفاً منـذ أمد طويل ، أن اهتمامه بالملك أكثر من اهتمامه بالمـُثل التي وقف من أجلها سابقاً ، فقد استطاع مراراً بفصاحته الفائقة ، أن يقنع الكثيرين من الناس — وربما نفسه هو — أن مُثله تلك لا زالت هي غايته . فهو رجل بسيط ، متواضع ، دؤوب . ولكنه في نفس الوقت ينغمس ، ويسمح لمن حوله بالانغماس ، في ترف زائد لا معنى له . وهو عميق التديُّن ، وينفذ حرفياً كل تعاليم شريعـة الإسلام . ولكنه يبدو أنه نادراً ما يفكر في اللب الروحي والغاية لهذه التعاليم . فهو يؤدّي الصلوات الخمس المفروضة كل يوم ، بكل انتظام ، ويقضي الكثير من ساعات الليل في تهجُّد عميق ، ولكنه يبدو أنه لم يخطر بباله مرة أن هذه الصلوات وسيلة وليست غاية في حدّ ذاتها . وهو دوماً يتكلم ، وكله إيمان ، عن عظمة طريقة الإسلام في الحياة ، ولكنه لم يعمل شيئاً لبناء مجتمع مسلم متقدم ، يسوده العدل ، تتمكن فيه تلك الطريقـــة في الحياة ، من التعبير التربوي عن نفسها . وهو بطبعه لم يفكر في تمحيص أفكاره . وكانت لديه موهبة هائلة في تبرير الأمور لإقناع نفسه بتقاه وورعه في وجه كل الانحرافات الباهرة . وإن أولئك الذين كانوا يحيطون به من حاشيته ، والمتكسبين العديدين ، الذين كانوا يعيشون على إنعاماته ، لم يعملوا بالتأكيد شيئاً يواجهون به ميوله التعسة » .

وفي الحق كان الملك بن سعود هو الذي ضرب الحركة في الجزيرة العربيـة

الضربة القاضية ، عندما منح مؤسسة أمريكية هائلة حق التنقيب عن النفط . ولو كان حقاً غيوراً على المثل الإسلامية ، لأدرك أنه برفض هـذه الامتيازات الأمريكية للنفط يحيط تسلل النفوذ الغربي الضار ، أو على الأقل يؤخره . ومن الحزن أن يصبح الكفاح من أجل انتصار النظام الإسلامي الاجتماعي مغموراً بالجشع للثروة .

كتب هاري فلبي في صحيفة الشرق الأوسط عدد الربيع سنة ١٩٥٩ في واشنطن تحت عنوان الرياض قديماً وحديثاً ما يلي :

« لقد انتهى المظهر المتعصب للعهد الوهابي حقيقة في اليوم الذي اكتشف فيه الأمريكان النفط بكميات تجارية. فمنذ سنة ١٩١٢ ، وبعد ذلك لمدة ثلاثين عاماً ، كانت الحياة بكليتها ، وأوجه النشاط المختلفة في البلاد ، تنظم بالشرائع الدينية بصرامة . ففي أوقات الصلوات المفروضة ، كانت تتوقف جميع الأعمال وتقفل بوابات العاصمة للدخول والخروج ، ويسير جميع الذكور من السكان للمساجد . وكل ذلك تغير اليوم ، فكان للنفط تأثير ذو حدين على اقتصاديات المجتمع في جزيرة العرب ، فلقد أوجدت الثروة المستخرجة الرغبـة في الراحة والتقدم ، حسب الطرق الغربية بين الأمراء والأثرياء في البلد . فلقد اعتـــادوا السياحة الأجنبية ، والملابس الأجنبية ، والترف الأجنبي ، من كل شكل . ومن جهة أخرى فقد جذب النفط من البلدان المجاورة أعداداً هائلة ، لدرجة أن طابع المدينة الخاص وسكانها ، قـد تبدّل كلية ، فلا يكاد يميز . وهؤلاء الناس قد يكونون موظفين ، أو عمالاً يبحثون عن أعمال ، أو تجاراً ، أو أصحاب دكاكين يبحثون عن المرابح السهلة ، أو رجال صناعة منشغلين بفرص البناء أو تطوير المصانع . وفوق كل ذلك يأتي المعلمون والخبراء الفنيون من كل لون ، ممن لهم نفوذ قوي في نقل الحضارة الغربيـة للأجيال الناشئة . فكلهم يلبسون الملابس الأوروبية . ولا يمكن تمييزهم عن الغربيين في طرق العيش ، ويبدو أن المسألة

مسألة وقت فقط لتصبح الحضارة الغربية عامة في السعودية العربية ، كما هي في أخواتها المجاورات .

ومع أن الحركة الوهابية انحصرت في معناها السياسي داخل الجزيرة العربية إلا أن تأثيرها الديني القوي عمّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه . وقد مهّدت تجربتها لانبعاث الحركة السنوسية ، والاخوان المسلمين ، والجماعة الإسلامية . وعلى خلفاء هؤلاء المجددين ، أمثال محمد بن عبد الوهاب ، تعتمد لا نهضة الإسلام فحسب . بل واستمراره في الحياة .

الحركة السنوسية

قصة الحركة السنوسية من أشد المآسي في التاريخ الإسلامي الحديث . وهي كذلك لأنها لو وصلت المثل التي نطقت باسمها إلى نهاية ناجحة ، لأمكن للحركة السنوسية أن توجد نهضة دينية في جميع أنحاء الوطن العربي وفيما وراءه . فمنذ أن استعادت ليبيا سيادتها سنة ١٩٥٢ ، أصبح من المعتاد للقوميين العرب أن يساووا بين كفاح السنوسيين للاستعمار الأوروبي ، ومطامعهم ومثلهم. ولا يوجد أكبر من ذلك قلباً للحقائق . فإن السنوسية أعلنت الجهاد في سبيل الاسلام وحده . وإن الشعارات القومية الدنيوية السائدة في العالم العربي اليوم كانت غير ذات معنى البتة بالنسبة لهؤلاء الناس .

وبخلاف القوميين، الذين استغلوا أسماء القادة السنوسيين بدون أمانة ليبرروا الغايات التي تتناقض مع كل ما آمن به السنوسي وحارب من أجله،فإن السنوسي لم يكن لديه سوى الكراهية والاحتقار للمدنية الحديثة. ولقد رفض حتى النهاية المؤلمة أن يؤلف بين المثل الاسلامية وفلسفة هذه المدنية المادية .

وكما أجاب السيد محمد إدريس ، ملك ليبيا الحالي ، على سؤال وجه إليه مرة : لماذا يعارض هو وأتباعه الثقافة الحديثة ؟

« إن السنوسية تهدف إلى التقى وتنقية القلوب. وكيف يتحقق ذلك ؟ بطرد

كل شيء ، سوى الله ، من أفكارنا . وبالاعتدال وبالابتعاد عن كل المسرات التي لا تقربنا من الله » .

« لماذا إذن يحارب الايطاليون السنوسية » ؟

« لأن الرجل الذي يتبع تعاليمنـا ، يصبح صحيح الجسم والعقل . ويهتم الايطاليون الفاشستيون بجعل الأمة جميعها منحلة ، كما هو الحال في الكثير من بلاد الاسلام. فإذا حدث ذلك أمكن للمدنية الايطالية أن تتقدم بسرعة أكثر، فما دامت تعاليمنا تسيطر فلن يحدث ذلك » .

« ولِمَ لا » ؟

« إن تعاليمنا هي البساطة في حد ذاتها،فالجسم يجب أن يقوى بحياة معتدلة صحية ، فيصبح بذلك مسكن جدير بالروح . فأنت لا يسمح لك بالتمتع بأي مخدر ، حتى التبغ ، ويجب أن لا تكون عبداً لأحد إلا الله ، أي أنك يجب أن تكون سيداً للظروف والأحوال . والمدنية التي يحاول الايطاليون إدخالها إلى ولاية القيروان تجعلنا عبيداً للأحوال ، ولذلك يجب علينا محاربتها » .

« كيف تجعلنا عبيداً للأحوال » ؟

إنها تعظم من أمر التقدم الفني الظاهر . وهي تجعل المظهر الخارجي البراق، والقوة ، العامل القوي في الحكم على الشخص أو الأمة . وتحتقر التطور الباطني. وإنني أستطيع أن أقول لك أنه أينما تحكم السنوسية يوجد الأمن والراحة في كل ناحية ... « السنوسية دراسة حركة تجديد في الإسلام » ، لنقولا زيادة .

وُلد السيد محمد بن علي السنوسي ، جد محمد إدريس بالقرب من مستغانم في الجزائر سنة ١٧٨٧ ، نفس السنة التي مات فيها مؤسس الحركة الوهابية . وما كاد يبلغ السنتين من العمر حتى فقد والده ، ولقد نشأ في بيت علم وتقى. وكانت عمته السيدة فاطمة ، معلمته الأولى ، سيدةً على قدر عال من الذكاء والثقافة . وبتعليمها حفظ الفتى السنوسي القرآن غيباً في سن مبكرة . وبعـد أن درس

الدين والفقه على أيدي أحسن المعلمين في وقته ، وعندما بلغ سن الرشد ، ترك موطنه الأصلي إلى المغرب ، حيث تأهل للقبول في جامعـــة مسجد القرويين الشهيرة. وهنا في (القرويين) درس العلوم القرآنية العالية ، والحديث ، والفقه ، والعربية ، على خيرة مشاهير المعلمين في البلاد .

ولقد كان تحصيله المدرسي بارزاً ، مما جذب انتباه سلطان مراكش « مولاي سليمان » إليه بسرعة ، والذي رجاه أن يعمل في بلاطه. ولكن السيد السنوسي رفض العرض ، مدفوعاً بفكرة عدم الانحناء لأية قوة دنيوية . وبالتالي غادر مراكش ، وانضم إلى صف العلماء المتجولين ، الذين يجتابون تونس وليبيا ومصر ، متعطشين إلى المزيد من المعرفة . فكان أينما حل يتقاطر إليه طلاب العلم ، تجذبهم شهرته العالمية ، كعالم من الطراز الأول . وكان في الأصل قد عمل خطةً أن يمكث في مصر مدة طويلة ، يكمل خلالها دراساته في الجامع الأزهر في القاهرة. ولكن ما لبثت آماله أن تهاوت عندما استقبل بعداء من علماء الأزهر ، الذين خافوا أن تهدد مراكز نفوذهم بهذه الشخصية القوية الجديدة . وتمادوا فأصدروا فتوى ضده يتهمونه بالهرطقة ، بسبب البدع التي يقولها .

والسنوسي بدوره لم يحمل إلا الازدراء لنفاق هؤلاء العلمـاء ، الذين كانوا يبدون للناظر كمثل للتدين والتقوى ، بينما هم مجرد دمىً في أيدي الطبقة الحاكمة المفتنة المنحلة . لقـد أبغض محمد علي خاصة ، وشجب أعماله التي لا تتفق مع الإسلام علناً. ولقد تابع سيره إلى مدينة مكة المكرمة ، بعد أن ساءته الأحوال في القاهرة . وهناك وجد ضالته . فبينما كان في الحج قابل الإمام الروحي الشهيد السيد أحمد بن ادريس الفاسي المراكشي ، رأس الطريقـة الخضرية الصوفية . فانضم إليه بحماس ، وأصبح أكثر تلاميذه حباً له ، وانقطاعاً إليه . وعندمـا أصبحت شخصيته قوية لدرجة لا تتحملها طبقة العلماء المحليين ، غادر الأستاذ وتلميذه مكة إلى اليمن. وبعد سنوات عدة ، وبعد موت معلمه ، رجع السنوسي

إلى مكة سنة ١٨٣٧ ، وأسس أول زاوية له ، التي كانت البداية لما عرف فيما بعد بالحركة السنوسية .

لم تكن الحركة السنوسية تهدف إلى شيء أقل من تجديد العالم الإسلامي على أساس الكتاب والسنة تجديداً روحياً كاملاً . وفي هذا المضمار كان السنوسي متأثراً أشدّ التأثير بتعاليم الإمام أحمد بن حنبل ، والغزالي ، وابن تيمية . وعلى الأخص بالمثل الذي رسمه المجدّد العربي المعاصر ، محمد بن عبد الوهاب . ومع أن المجدِّدَيْن كانا متأثرين بنفس البواعث والمثل ، إلا أن السنوسية تميزت عن الحركة الوهابية باحترامهـــا للطرق الصوفية . ولكن مع أن السنوسية كانت تشجع التصوف بمعناه الصحيح ، إلا أنها بخلاف الطرق الصوفية الأخرى ، كانت تحرّم بشدة الموسيقى « والرقص » في الاذكار ، كأي عمل مخالف للشريعة .

وبعد رحلات بعيدة واسعة ، حيث كان السنوسي يكرّم ، ويحتفى به بجفاء شديد أينما حل ، استقر رأيه نهائياً على اتخاذ ولاية (القيروان) كميدان عمل له. إلا أنه لم ينسَ أبداً زواياه في بلاد العرب وفي شمال أفريقيا . وعندما احتلت فرنسا موطنه الجزائر ،وأصبحت تونس مهددة بنفس المصير ، وارتاب في السلطات العثمانية ، التي أخذ حسدها للحركة يتزايد ، عزم السنوسي على نقل مقر أعماله إلى الأماكن الثابتة في الصحراء ، إذ يمكنه هناك ، على انفراد أن يتابع أعماله دون تدخل . وطبقاً لهذه الخطة فقد اختار جغبوب سنة ١٨٥٣ ، تلك الواحة المقفرة . وأرسل بنائيه ومواد البناء بالقوافل ، لينشىء هناك زاوية كبيرة . وبفضل متانة خلقه فقـد استطاع أن يهدّىء المنازعات القبلية . وأن يوحّد القبائل البدوية في المنطقة .يدفعه إلى ذلك أمر الرسول الكريم ﷺ إصلاح ذات البين . ومـا أن توصل إلى إيجاد الأمن والأستقرار ، حيث لم يوجدا من قبل ، حتى ركّز انتباهه لنشر تعاليم الإسلام عميقة في افريقيا الاستوائية . وكانت أبرز إنجازاته عندما طلبت قبائل الزوويا، التي كانت تعرف باسم سياط البادية، بسبب قسوتها ، من السنوسي أن يحلّ بينهم ، وأن يبني زاوية (كفرة) حيث

تغطي الواحات مساحة أكثر من ٢٠٠٠٠ ميل مربع بين ولاية القيروان وبحيرة تشاد . ويعدونه ، بالمقابل ، أن يتركوا السلب والغزو إلى الأبد . ومع أن السنوسي لم يستطع أن يذهب بنفسه ، إلا أنه أرسل تلاميذه الثقاة . ونتيجة لذلك فإن الآلاف من رجال القبائل ، الذين كانوا مسلمين بالاسم فقط لأجيال عدة ، تحولوا خلقياً وروحياً . بينما اعتنق الإسلام في أفريقيا الاستوائية عدد أكثر منهم بكثير .

وفي سنة ١٨٥٩ توفي السنوسي ، وخلفه في الحال ابنه الأكبر السيد المهدي ، وهو في السادسة عشرة من العمر . وُلد السيد المهدي سنة ١٨٤٤ . وأخذ ثقافته في جغبوب وانضم لوالده قبل موته بأقل من سنة . وقبل أن يبلغ الثانية عشرة من العمر كان في زحمة أعمال والده . يرسل المبعوث بجدارة ، ويستقبل الوفود ، ويعلم ،بينما كان والده في نفس الوقت يواصل مراقبة تثقيفه على أيدي أشهر العلماء وأتقاهم آنذاك . ولسبب ظروف المسلمين البائسة في ذلك الوقت الذين كانوا مهددين بسيطرة الاستعمار الأوروبي ، فقد ابتدأوا ينظرون إليه كالمهدي المنتظر الذي سيعيد العدل والصلاح. وكان السيد المهدي يعيد ويكرر ويؤكد أفكاره . لذلك ، وكوالده من قبل ، لم يكن يهتم بنشر الأهداف بل بالعمل الثابت الجاد المنتج في سبيل الإسلام .

وفي مدة بقاء السيد المهدي على رأس الحركة السنوسية ، فقد بلغت قوتها ونفوذها الذروة. وفوق ذلك فقد كانت تعاليم السنوسية تطلب من أتباعها العمل المتواصل الجاد . وكان السنوسي الكبير يقول دائماً: « إن الأشياء الثمينة توجد في غرس شجرة وفي أوراقها ».ونتج عن هذه الفلسفة أن تحولت معظم الأراضي البور ، في تلك المنطقة ، إلى حدائق وارفة لدرجة أخاذة . وبدأت حركة البيع والشراء والتجارة تنتعش.ولم يسمح بحياة التسوُّل والكسل. وهذا وصف لزاوية سنوسية نموذجية وهي في ذروة نشاطها من نفس المصدر السابق .

« ليست جغبوب مدينـة بالمعنى الصحيح ، ولكنها مركز للدين والثقافة .

ففيها كل الأمن الحالم لمدينة جامعية . غير أن أساتذتها شيوخ ، معممون ، بلحى ، شيب ، يلبسون الجبب البيض الطويلة الواسعة فوق الثياب الخضراء بلون الحشيش أو الزرقاء النيلية . فهي بنـــاء واحد ضخم بجدران سميكة ، عديمة النوافذ ، تحيط بمجموعة مذهلة من المباني والممرات والمدارس ومساكن الطلبة ومنـــازل العـائلة السنوسية والمسجد . وتقع جغبوب على صخرة تنحدر منها مجموعات من الدرج توصل إلى حـــدائق النخيل وإلى البئر الكبير الأوحد ، الذي يزوّد المستعمرة بالماء .

وعندما ذهب السيد المهـــدي إلى « كفرة » أعتق خمسين عبداً ، وأعطاهم البساتين التي كانوا يفلحونها في السابق لحساب سادتهم . واشترط أن تحترم حقوق ملكيتهم من قبل خلفائه . وهكذا توجد الآن مستعمرة من هؤلاء العبيد السود العتقاء ، الذين يعيشون بين النخيل في الوادي . وهم يعمـلون بجدّ في بساتينهم التي يزرعونها بالخضار ، وتروى بمجموعة ممتازة من القنوات والخزانات ، معتمدة على النبع أسفل الزاوية. ويبيعون تمورهم ومنتوجاتهم إلى الكلية لطعام الطلبة.

فجغبوب جامعة نقية بسيطة . وتتمركز حول هذه الجامعة حيـاة المجتمع الصغير . وتحتوي مكتبتها على ٨٠٠٠ مجلد . وهناك عدد من رجال العلم والأدب من الطراز الأول الذين أثار وجودهم حماس الطلاب ، الذين بلغوا في عهد المهدي ٣٠٠ طالب . وتشمل مقررات التعليم الموضوعة تعلم القرآن ، ودراسة عميقـــة لتفسيره ، والحديث، والفقه، والقواعد العربية، والأدب، والتاريخ ، والمنطق.

فالتدريب تام، والرغبة في التعلم شديدة صادقة. ويُطلب من طلاب جغبوب أيضاً أن يتعرفوا إلى العديد من الأعمال الحياتية ، يتعلمونها في المعهـد . وتشمل هذه النجارة ، والحدادة ، والبنـــاء ، والغزل ، والحياكة ، وتجليد الكتب وصناعة الفرش . ويخصص يوم الخميس من كل أسبوع لهذه الأعمال . وكثيراً مـا يجد الطلابُ المهـدي نفسَه يعمل بينهم ، وذلك مثير لنشاطهم حقاً . وتخصص أيام الجُمَع للتدريبات والتمرينات العسكرية المختلفة . ويركب الطلبـة الخيول

والجمال ، بإشراف المهدي نفسه مراراً . ويمنح الطلبة الغذاء والمسكن مجاناً . ويهتم قادة السنوسية كثيراً بطلبتهم ، فهم شيوخ المستقبل ، ومدرسوه ورسله . ويتسلم الطلاب في جغبوب رغيفاً من الخبز يومياً . ويتناولون التمر واللبن المخيض على الإفطار، وعلى الغداء والعشاء الخبز وشوربة العدس . ويقدّم الشاي في المساء ويتسلم الطالب ثوبين، وقلنسوتين، مع عمامتين ، وزوجين من السراويل، وزوجاً من الأحذية كل عام ، وجلباباً من الصوف كل سنتين . والطلاب أبناء الأغنياء كثيراً ما يقدمون الهدايا لأبناء الفقراء . أما القادة المنتظرون للحركة — شيوخ الزوايا ، والرسل المتحمسون ، والرؤساء المحاربون — فيدرّبون تحت إشراف السنوسي الكبير نفسه شخصياً ، بمساعدة تلامذته البـارزين . وتحرس الزاوية حراسة جيدة بأربعمائة بندقية ، ومائتي سيف ، وأسلحة أخرى تكفي ٣٠٠٠ رجل ، مخزونة في ما يقرب من ٢٠ حجرة . ويملك المهدي ما لا يقل عن خمسين بندقية يتعهدها بنفسه .

وفي جغبوب عدد من العمال الذين أتقنوا فن صيانة الأسلحة ، يصلحونها بل ويستطيعون صناعة بعض أنواع الأسلحة . ولقد قيل ان مصنعاً لتحضير البارود يوجـــد في العاصمة السنوسية . والمسجد يتسع لخمسمائة أو ستمائة شخص ، وهو هادىء جداً ، أبيض اللون مهيب ، ولا يوجـــد غير السجاد الأسود على أرضه الذي لا يتفق مع بساطته . ويحمل سقفه المصنوع من جذوع النخل الثقيلة، التي تشكل سقفه المستوي، صفوف من الأعمدة المربعة البيضاء . ولم يزين بشيء قط . والمنبر على أبسط صوره ، دون طلاء أو نقوش . لقـــد كانت بساطة المسجد أخاذة ، وذلك يتفق مع حياة تحرم كل ترف . فلا شيء يؤثر في الحاج في هـــذا المكان إلا الاحـــترام العميق . وتقوم الزوايا السنوسية بعدة وظائف ، فهي مدارس ، ومراكز اجتماعية ، ومراكز تجارية ، وحصون ، ومحاكم ، ومصارف ومخازن ، وملاجىء للفقراء ، وأماكن آمنة ، ومقـابر . وهي ، بجانب ذلك ، مسارب تجري فيها سيول متدفقة من بركات الله » .

ومع أن السيد المهـدي ووالده من قبله لم يكونا يحبان المظاهر ، إلا أنهما في الواقع ، كانا حاكمين على ما يمكن أن يكون دولة تؤدي كل وظائف الحكومة . وفي ذروة قوته كان السيد المهدي يحكم امبراطورية مدهشة ،تشمل أكثر ما يعرف الآن بليبيا ، والصحراء الغربية لمصر ، وشمال السودان . وكانت تتوغل دوماً في افريقيا الوسطى ، حيث يدخل الناس الإسلام بعشرات الألوف .

وكسابقتها الوهـــابية ، فقد تمتعت السنوسية بأنصار عديدين من بين بدو جزيرة العرب . وفي كل مرة كان السنوسي يذهب فيها للحج ، كانوا يغتنمون الفرصة بكل جهدهم لتعميم حركة بعث الإسلام بين الحجاج من كل بقاع العالم . وذلك هو السبب الذي من أجله أصبحت السنوسية معروفة حتى في البلاد النائية ، كالملايو ، وأندونيسيا ، والفلبين .

وفي سنة ١٩٠٢ حدثت الكارثة ، فقد خشيت فرنسا امتداد تأثير السنوسية لتهدد مصالحها الاستعمارية ، فبدأت بعمليات عسكرية على نطاق واسع في افريقيا الوسطى ، لتقضي على الحركة . وفي تلك السنة نفسها توفي السيد المهدي ، فكان ابنه الوحيد ، السيد محمد الإدريس ، الذي كان يبلغ من العمر اثني عشر عاماً في ذلك الحين ، أضعف من أن يتحمل المسؤوليات الجديدة المفزعـــة ، فانتقلت الزعامة إلى ابن عمه الأكبر السيد أحمد الشريف الذي كان يبلغ التاسعة والعشرين. وقد وُلد السيد أحمد الشريف في جغبوب سنة ١٨٧٣ ، وتلقى تعليمه على يدي عمه شخصياً . وكانت أكثر المهـــام إلحاحاً تواجه الزعيم الجديد ، هو الصراع الرهيب مع الاستعمار الاوروبي . وبعد كفاح مرير يائس ، قُهرت السنوسية في سنة ١٩٠٩ ، إذ طغى الفرنسيون عليها بعدد غزير من الرجال ، وأحدث السلاح والمعدّات ، وفقدت منذ ذلك الحين كل سيطرتها السياسية على افريقيا الوسطى.

وفي سنة ١٩١١ حدثت أكبر كارثة عندما أعلنت إيطاليا الحرب رسمياً على تركيا ، وأرسلت قواتها لاحتلال طرابلس وبنغازي . وفي الحال اندفع وزير الحربية التركي ، أنور باشا بكتائبه إلى الميدان. وانضم إليه السيد أحمد الشريف

برجال قبائله المحاربين بحماس شديد . وبعزيمة لا تكل وحماس شديد أثار أنور باشا ورجـــال القبائل السنوسية للقتال حتى الموت من أجل العقيدة الواحدة، وما أسرع ما نجح التعاون بين الزعماء الأتراك والعرب في وقف المعتدين الايطاليين وفجأة في أكتوبر سنة ١٩١٢ وبدون سابق إنذار تآزرت دول البلقان جميعاً ، أو التي كانت قد استقلت حديثاً ، لغزو تركيا نفسها . ولم يجد أنور باشا مجالاً للاختيار إلا أن يوقع في الحال معاهدة صلح مع ايطاليا ، حيث كان يواجه خطر الاجتياح التام لبلاده ، وجنود الأعداء على أبوابها . فأعلن استقلال ليبيـا . وأعاد كتائبه لوطنها في الحال تاركاً السنوسي وحده يتحمل أعباء الكفاح .

ذهب السيد أحمد الشريف سنة ١٩١٧ إلى استانبول في غواصة ينشد العون الفعال من الحكومة التركية . وأوكل زعامة الحركة إلى ابن عمه الأصغر السيد محمد الادريس في أثناء غيابه . ولم يجد السيد أحمد في تركيا غير الخيبة والفشل . لقد كانت الحكومة التركية تخشى أن يعلن السيد أحمـد الشريف نفسه خليفة للمسلمين ، وأن تخلف دولة عربية البيت العثماني ، ومع أنه – السيد أحمد – لم يكن لديه أمثال هذه المطامع ، فقـد أعاقت المؤامرات السياسية أمر عودته شهراً بعد شهر . ثم سنة بعد سنة . ولقد أنهت الهزيمة العثمانية سنة ١٩١٨ كل آماله في رؤية موطنه ثانية إلى الأبد . ولكن السيد أحمـد الشريف لم يستسلم لليأس فعبر إلى سهول الأناضول لينضمّ إلى مصطفى كمال أتاتورك في جهاده لإنقاذ تركيا من خطر الاستئصال .

جاء في كتاب الطريق إلى مكة لمحمد أسد :

« يجب أن نذكر أن الحماس الديني كان وحده في أول الأمر هو الذي أمدّ الأمة التركية في تلك الأيام العصيبة بالقوة لتحارب ضد قوى اليونان الفائقة الذين كانوا يدعمون بكل موارد الحلفاء . لقد وضع السيد أحمد قوة نفوذه الروحية والمعنوية العظيمة في خدمة القضية التركية ، فأخذ يجول بين المدن والقرى في الأناضول بدون كلل ، يدعو الناس ليسندوا الغازي أو « حامي الدين » مصطفى

كال . ولقد عاونت مجهودات السنوسي الكبير وسمعته الطيبة ، في نجاح الحركة الكمالية بين الفلاحين البسطاء في الأناضول لدرجة عظيمة . أولئك الذين كانت لا تعني الشعارات القومية بالنسبة لهم شيئاً . ولكنهم كانوا ، لأجيال عديدة ، يحسبون الموت في سبيل الإسلام شرفاً عظيماً . ولكن ما كاد « الغازي » يحقق النصر حتى أصبح من الواضح أن مقاصده الحقيقية تختلف كلية عما كان يتوقع شعبه . وبدلاً من أن يرسي قواعد ثورته الاجتماعية على الإسلام المجدّد المنبعث ، فإن أتاتورك هجر قوى الإيمان الروحية ، التي أوصلته هي وحدها للنصر ، وجعل دون مبرر نبذ قيم الإسلام كلها أساساً لكل إصلاحاته . وفي سنة ١٩٢٣ غادر السيد أحمد إلى دمشق بخيبة أمل مريرة من جرّاء اصلاحات أتاتورك المضادة للإسلام . وهناك ، رغماً من معارضته لسياسة أتاتورك الداخلية ، أخذ يحاول خدمة قضية الوحدة الإسلامية ، بمحاولة إقناع سوريا بالوحدة ثانية مع تركيا . وبالطبع فقد نظرت إليه حكومة الانتداب الفرنسية بعين الريبة . وعندما علم أصحابه قرابة انتهاء سنة ١٩٢٤ ، بأن القبض عليه أصبح وشيكاً ، هُرِّبَ بسيارة عبر الصحراء إلى أطراف جزيرة العرب ، حيث استقبل بحرارة من قبل الملك ابن سعود » .

وفي نفس الوقت كان السنوسيون في ولاية القيراون بقيادة السيد محمد إدريس وعمر المختار يخوضون كفاحاً مريراً من أجل البقاء ضد قوة موسوليني الفاشية المستبدة الغاشمة .

فقد جاء في نفس الكتاب السابق :

« عمر المختار ذلك ، أسد القيروان الذي لم تحل السنوات السبعون من عمره بينه وبين الحرب للنهاية . لقد كان لمدة عشر سنوات عصيبة الروح لحركة المقاومة السنوسية . ضد قوى لا أمل في الفوز عليها . ضد جيوش الايطاليين الذين كانوا عشرة أمثال رجاله . جيوش مسلحة بأحدث أنواع الأسلحة والمدفعية . بينما كان عمر ورجاله المنهكون ، لا يملكون إلا البنادق ، وقليلاً من الخيول . فكانوا يشنون

بها حرب عصابات يائسة . في بلاد انقلبت إلى سجن عسكري كبير ، فكثيراً ما كان يحدث أن ترسل طائرة استطلاع اشارة لاسلكية عن وجود مضارب خيام لأقرب موقع . فتندفع بعض العربات المسلحة بين الخيام بينا تمنع رشاشات الطائرة الناس من التفرق . وتقتل العربات كل ما في طريقها دون تمييز : الرجال ، والنساء ، والأطفال . ثم يُساق كل من بقي حياً من إنسان أو حيوان كالقطعان إلى الشمال . حيث يدخلون إلى معسكرات الاعتقال المحاطة بالأسلاك الشائكة ، التي أقامها الايطاليون قرب الساحل . وقرب انتهاء سنة ١٩٣٠ ، كان قد حصر قرابة ثمانين ألفاً من البدو ، مع عدة مئات الآلاف من الماشية ، في مساحة لا تفي بغذاء نصف ذلك العدد . وكان الجوع والمرض في نفس الوقت يحصدان البدو من السكان في الداخل » .

وهذا وصف للحوادث العصيبة التي قاساها محمد أسد بنفسه :

« وصلنا مضارب فرقة عمر المختار الخاصة لحرب العصابات قبل الفجر في أعماق المنطقة المحتلة الايطالية . وكانت في ذلك الوقت تتألف من أكثر من مائتي رجل كانت تقيم في شِعب ضيق ، وكانت بعض النيران الصغيرة تشتعل تحت الصخور المعلقة . وكان هناك عدة رجال ينامون على الأرض الجرداء ، والبعض الآخر ، بأشباحهم التي لم تميز بنور الفجر الأول ، كان منهمكاً بأعمال المعسكر المختلفة . ينظفون أسلحتهم ، يجلبون الماء ، يطبخون ، ويعتنون بخيولهم القليلة التي ربطت إلى الأشجار هنا وهناك . وكانوا جميعاً تقريباً يلبسون الملابس الخلقة . ولم أرَ آنذاك أو فيما بعد برنساً أو جبة كاملة واحدة في كل الجماعة . والكثير من الرجال كانت عليهم الضمادات التي كانت تشير إلى صدامات أخيرة مع العدو . ولشد ما دهشت عندما رأيت امرأتين في المعسكر . إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة . وقد جلستا قرب نار وكان بادياً أنهما منهمكتان في إصلاح سرج بال بمخارز قديمة « إن هاتين الأختين تذهبان معنا أينما ذهبنا » ، قال لي سيدي عمر مجيباً لاندهاشي الصامت . ولقد رفضتا الأمن في مصر مع بقية

نسائنا وأطفالنا . وهما أم وابنتها .. ولقد قتل كل رجالها في القتال » . وأومأ سيدي عمر إلى أحد رجاله إيماءة حزينة ليقترب قائلاً : « دع هذا الرجل يقول قصته .. لقد حضر إليّ البارحة فقط ... » .

وتربّع الرجل الذي كان من « كفرة » على الأرض . وجذب برنسه الخلق حوله . وأخذ يتكلم بهدوء دون أن يرتجف صوته . ولكن وجهه الكئيب بدا وكأنه يعكس ما شاهد من الأهوال . وأخذ يقول :

« لقد هاجمونا بثلاثة طوابير من ثلاث جهات بعربات مسلحة عديدة، ومدافع ثقيلة. وكانت طائراتهم تطير على انخفاض، تضرب البيوت، والمساجد، وحدائق النخيل بالقنابل . وكان لدينا بضع مئات من الرجال يقدرون على حمل السلاح . وكان الباقون نساءاً ، وأطفالاً ، وشيوخاً . لقـــد دافعنا من بيت إلى بيت . ولكنهم كانوا أقوى منّا بكثير ، وكانت بنادقنا عديمة الجدوى مقابل عرباتهم المسلحة . وهكذا اجتاحونا في النهاية ، والقليل منـــا نجا . ولقد اختبأت في حدائق النخيل ، أنتظر فرصة لآخذ طريقي بين صفوف الايطاليين . وطيلة الليل كنت أستمع لعويل النساء اللواتي كن ينتهكن من قبل الجنود ومرتزقيهم الاريتاريين . وفي اليوم التالي جاءتني عجوز إلى مخبأي بماء وخبز . وأخبرتني أن القائد العام الايطالي جمع كل من بقي على قيد الحياة أمام ضريح السيد محمـــد المهدي . ومزق نسخة من القرآن الكريم على مرأى منهم . ورمى بها إلى الأرض ووضع قدمه عليها . وأخذ يصيح بأعلى صوته : « فلينجدكم نبيكم البدوي الآن إن استطاع » . ثم أمر أن تقطع كل أشجار النخيل في الواحة . وأن تدمّر كل الآبار ، وأن تُحرق كل الكتب في مكتبة السيد أحمد . وفي اليوم التالي أمر أن يؤخذ بعض شيوخنا وعلمائنـــا في طائرة . ثم يقذفون إلى الأرض من الطائرة ، ليموتوا حطاماً. وطيلة الليلة التالية كنت أستمع من مخبأي لعويل نسائنا البائسات دون نصير . وقهقهات الجنود وطلقات بنادقهم . وأخيراً زحفت خارجاً إلى الصحراء في ظلام الليل . فوجدت جملاً ضالاً فركبته هارباً .

وفي نهاية سنة ١٩٣٢ كسرت شوكة المقاومة السنوسية . واحتلت ليبيا بكاملها من قبل الطليان ، ثم يتابع محمد أسد قوله :

« وبينما أنا أخطو فوق عتبة الزاوية السنوسية في المدينة كنت أجد تلك الأصداء الخافتة للموت واليأس لا تزال في مخيلتي ، ثم تتلاشى ذكرى مغامرتي في ولاية القيروان حتى لا يبقى منها إلا الألم . ثم أقف ثانية بين يدي السنوسي الكبير أنظر إلى الشدائد المنقوشة على الجبين الجميـــل للمحارب المسن ، ثم أقبل ثانية اليد التي حملت السيف طويلاً حتى لم تستطع حمله بعد .

(بارك الله فيك يا ولدي ورافقتك السلامة) . لقد مضى على لقائنـــا الأول أكثر من سنة ، وشهدت هـذه السنة نهاية أجلنا ، ولكن الحمد لله على ما قضى . .

لا بد وأنها كانت سنة محزنة حقاً للسيد أحمد . . فالأخاديد حول فمه أعمق ، وصوته أكثر خفضاً مما كان . لقد تحطم النسر الكبير . إنه يجثو على سجادة الصلاة يلفه برنسه الأبيض بأحكام كما لو كان للدفء ، يتطلع دوماً كأنه في البعد السحيق . . ثم همس : لو أننا استطعنا فقط أن ننقذ عمر المختار ؟ لو أننا استطعنا فقط أن نقنعه باللجوء إلى مصر ؟ . . .

فسريت عنه قائلاً : ما كان أحد يستطيع إنقاذ سيدي عمر . . إنه لم يرد أحداً أن ينقذه . . . إنه فضّل الموت إذ لم يستطع النصر . . لقد عرفت ذلك منه عندما فارقته يا سيدي أحمد . .

فأومأ أحمد برأسه بتؤده يقول : نعم عرفت ذلك . أنا أيضاً عرفت . لقد عرفت أن ذلك كان متأخراً جداً . . يخطر ببالي أحياناً أنني أخطأت إذ أصغيت إلى ذلك النداء من استنبول منذ سبعة عشر عاماً . ولكن . . ماذا كنت أستطيع

أن أعمل غير ذلك ، وخليفة المسلمين يطلب عوني .. ومن غير الله يستطيع أن يحكم أن الانسان مصيب أو غبي إذا استجاب لنداء ضميره .

من يستطيع القول حقاً ؟

وتمايل رأس السنوسي الكبير من جهة إلى أخرى مضطرباً من الألم، واختفت عيناه خلف الجفون المتدلية وبثقة خاطرة عرفت أنهما لن تشعا ببريق الأمل بعد ذلك » .

شـــاه ولي الله

اضمحلت امبراطورية المغول بسرعة بعد موت أورانجزيب سنة ١٧٠٧ ونتج عن ذلك ارتفاع شأن المراثين الهنود ، والسيخ ، والانجليز ، في ثوب « الشركة الهندية الشرقية » . وعندمـــا وُلد شاه ولي الله سنة ١٧٠٣ ، أي قبل موت أورانجزيب بأربع سنوات لم تكن العلوم الإسلامية الصحيحة للقرآن الكريم والسنة قد انتشرت في طول البلاد وعرضها. ولقد بقي أغلب الناس في جاهلية. ذلك أن لغة البلاط المغولي كانت فارسية. واللغة الدارجة العامية كانت أوردية ولم تكن هناك تراجم للقرآن الكريم عن الأصل العربي . ففي القرن الثامن عشر ووجه الإسلام في الهند بتهديدات رهيبة في وجوده . حتى أن المسلمين في البقاع الأخرى من العالم تخوفوا بحق من أن يؤدي الاضمحلال المغولي إلى تفكك تام في عقيدة الناس . ولم تتحقق تلك التنبوءات المتشائمة . بل إن العصر المغولي التالي في الواقع شهد نشاطاً روحياً متجدداً بين مسلمي الهنـد . ولم يكن ذلك إلا نتيجة لجهود رجل واحد هو شاه ولي الله .

كان والد شاه ولي الله عالماً ذا سمعة محلية ، ولقد انهمك إلى وقت في تأليف كتاب « الفتاوي الألجيرية » الضخم. وهو من أهم المجموعات في الفقه الإسلامي. ولكنه لم يحب الجو المتصنع في البلاط المغولي. وفضّل أن يكرّس وقته للتدريس في الكلية التي أسّسها « المدرسة الرحيمية » . ولقـد تعلم شاه ولي الله أيام نمائه

على يد والده . ثم بدأ يدرس في مدرسة والده وهو لم يزل في سنوات سني الرشد الأولى . وبعـــد اثنتي عشرة سنة من التدريس ذهب إلى جزيرة العرب ليؤدي فريضة الحج ، ويتابع دراساته العليا على أيدي خيرة المعلمين آنذاك في مكة والمدينة . وفي أثناء إقامته في مكة، رأى شاه ولي الله في منامه رؤيا باركه فيها الرسول الكريم ﷺ كمؤسس عهـــد جديد يقوم على الكتاب الكريم والسنة الشريفة تماماً . وأصبحت هذه الرؤيا المبرر الروحي لكل نشاطاته القادمة . ولقـد نصحه أقاربه أن يبقى في بلاد العرب بسبب الفتن السياسية في الهند . ولكنه رفض هذه النصيحة ورجع إلى دلهي في التاسع من يوليو سنة ١٧٣٢ ، واثقاً أن مكانه الصحيح في وطنه . وفي بقية أيام حياته ركز نشاطه في تعليم تلامذته مختلف ضروب المعارف الإسلامية ، وتوكيلهم بتعليم الطلبة تلك العلوم. وقد كرّس وقته الزائد في كتابة مجلداته ، حتى أنه عند وفاته كان قـد أتمّ مكتبة حقيقية ، تشمل جميع العلوم الإسلامية . وكان أشهر أعماله وأعظمها كتابه « حجة الله البالغة » الذي حاز شهرة عالمية بين العلماء المسلمين ، حتى أنه كان في الأزهر الشريف الكتاب المدرسي النموذجي لفترة طويلة .

أما بالنسبة لمقدرته كعالم ، فإن شاه ولي الله عمل كل ما يستطيع ليضع حداً للانحطاط السياسي للمسلمين في الهند، وأن يوجد بعثاً إسلامياً جديداً، ولم يتوان في كتاباته أن ينقد، دون ممالأة ، وبكل صراحة، مساوىء أصحاب المناصب. يحثهم على ترك الجري وراء ملاذ الدنيا ، وأن يتوبوا من آثامهم . فكان يعظهم « أيها الأمراء ؟؟ ألا تخافون الله ؟ كيف شغلتم أنفسكم كلية في الجري وراء متع الدنيا الزائلة ؟ وتناسيتم أولئك الناس الذين وكل أمرهم إليكم ؟ فكانت النتيجة أن القوي يأكل الضعيف ، ووجهتم همكم لحوزة لذيذ الطعـام ، والحسناوات النواعم من النساء للمتعة والسرور . ولم تلتفتوا لشيء سوى الملابس الفاخرة والقصور المظيمة » !

وأما الجنود فقد كان يحثهم على نبذ كل الأعمال غير الإسلامية ، وعلى إثارة

روح الجهاد . ونحا عليهم باللائمة لافتقارهم إلى الضبط ، ولعدم مبالاتهم بأداء واجباتهم . ولعكوفهم على الخمور والمسكرات الأخرى . ولقسوتهم على الناس .

ولقد عبّر العالم الولي عن حزنه العميق عندما كان يخاطب الصناع والعمال لافتقارهم إلى الأمانة ، وتجاهلهم الفروض الدينية ، ولتصديقهم المعتقدات الخرافية ، ولإهمالهم الواجبات العائلية ، ولعدم مبالاتهم باحتياجات أبنائهم ، ولجميع أنواع الأعمال غير الخلقية . فكان ينذرهم بقوله : « اقضوا أوقات الصباح والمساء في الصلاة : وخصصوا جلّ النهار لأعمال حرفتكم . واجعلوا دوماً مصروفاتكم أقل من دخولكم . وانفقوا ما تدخرون على ابن السبيل والمسكين . وابقوا شيئاً تحتاجونه للمصروفات الطارئة والنوازل المفاجئة » .

وأما العوام ، فكان شاه ولي الله يدعوهم لإصلاح عيشهم ، وأن يميزوا بين الحلال والحرام طبقاً للإسلام . وأن يقتصدوا في نفقاتهم . وأن يكسبوا أرزاقهم بالوسائل الشريفة فقط . .

وكان بالأخص يؤكد الأهمية العظمى على أن يكسب الرجل القادر معاشه بالعمل المنتج الشريف ، كالزراعة ، والتجارة ، والصناعة . وبما أن أكبر نقطة ضعف في الإسلام في الهند كانت هي أن الكثير من الداخلين الجدد في الإسلام من الهنود الجهلة كانوا يستمرون في عاداتهم الهندوسية بعد دخولهم الإسلام ، فقد كان شاه ولي الله يحثّ دائماً على أن أعمال الرسول ﷺ وأصحابه الكرام يجب أن تتبع من الجميع .

ولقد انتقد شاه ولي الله على الأخص من بين العادات الهندية الأصل عادة تحريم المجتمع للزواج ثانية من الأرامل ، والانفاقات المسرفة في مناسبات الولادة ، والزواج ، والوفاة .

ولم يكن شاه ولي الله يثق بالملكيات . ولقد شجب أعمال حكام المغول على أنهم لا يختلفون عن الأباطرة الرومان . أو الساسانيين الفرس الذين طغوا في عامة

الناس حتى جعلوهم في مرتبة الحيوانات، بضرائبهم المتزايدة، وأساليبهم الظالمة. وكان يرى أن الحكومة المناسبة الوحيدة للمجتمع المسلم هي تلك التي تكون على شاكلة الخلفاء الراشدين.

ولقد ترجم شاه ولي الله معاني القرآن إلى الفارسية لأول مرة، وذلك لينشر تعاليم القرآن الكريم بين أولئك الذين لم تتح لهم فرصة تعلم العربية. ولقد نقله أبناؤه من بعده إلى الاردية. وكانت هذه أول مرة تترجم فيها معاني القرآن من الأصل العربي إلى لغات أخرى، بواسطة علماء مسلمين من ذوي المكانة العالية. وبالطبع فقد قوبل ذلك العمل بالمعارضة الشديدة القوية من قبل العلماء الأكثر تحفظاً.

ومن المظاهر الجديرة بالملاحظة في دعوته لنشر القرآن كانت انتقاداته القاسية للعادة السائدة لأخذ القصص الاسرائيلية، دون تمحيص، وتعديلها لتجمل بها التفاسير. وقد اعتبر إدخال الاسرائيليات في علوم القرآن مصيبة في الفكر الإسلامي.

وقد كانت إضافاته لدراسة الحديث بعيدة المدى كذلك. وقد انحصر عمله الرئيسي في تدريب العلماء الذين يستطيعون متابعة عمله بعد موته. أما فيما يتعلق بسيرة الرسول الكريم ﷺ فقد انتقد شاه ولي الله على الأخص الواقدي في كتابه «المغازي»، الذي غالى فيه في سرد القصص، ليجتهد في إيضاح كل آية في القرآن الكريم. ولقد بيّن أن الغرض الحقيقي للفروض القرآنية المختلفة هو تقويم السلوك الانساني، والمعتقدات الخاطئة، والأعمال الضارة. وعلى ذلك تكون الأحداث العارضة، كالتي يذكرها الواقدي، ليست ذات قيمة خلقية أو تاريخية.

ولقد ظن الأوروبيون الذين لاحظوا حركة شاه ولي الله، خطأ، أن حركته وحركة المصلحين الوهابيين في الجزيرة العربية حركة واحدة. وذلك

لسبب أن الكثير من الاصلاحات التي دعا إليها شاه ولي الله وأتباعه من بعده كانت تتفق مع تلك التي دعا لها الوهابيون . وبالرغم من أن شاه ولي الله كان تلميذاً نابهاً لابن حنبل وابن تيمية ، كما كان محمد بن عبد الوهاب ، وان المجدّدين العظيمين عاشا في عصر واحد ، إلا أنه كانت بينهما فروق كثيرة . فقد كان شاه ولي الله أكثر اعتدالاً وتسامحاً في وجهات نظره من محمد بن عبد الوهاب . وهو لم يفكر أبداً في إزالة الصوفية ، أو الطرق الباطنية ، إزالة كلية ، مع أنه كان ينتقدها كثيراً . وفي مجال جهوده لتوحيد المسلمين ، فقد كان شاه ولي الله يصرّ على أن الشيعة لا يزالون مسلمين وليسوا كفاراً رغم مفارقتهم للسنة في كثير من المسائل الحيوية .

والقول الذي يتكرر دائماً وهو أن شاه ولي الله كان أول « التقدميين » أمثال سيد أحمد خان . وأنه أمدّهما بكل المبررات العقلية التي يحتاجونها لإدخال البدع الغريبة إلى الإسلام ، قول باطل .

فقد كتب إليّ مولانا أبو الأعلى المودودي في رسالته بتاريخ ٣٠ آذار سنة ١٩٦٢ يقول فيها : « أما بالنسبة لشاه ولي الله ، فقد كان عالماً إسلامياً عظيماً صادقاً أولاً وآخراً . وإن كل « مصلح » هنا يحاول أن يستغل اسمه (شاه ولي الله) بسبب مركزه المحترم الموثوق . فيفصل كلماته عن سياقها ويشوهها ليخدم مآربه الخاصة . وأي شخص حسن الاطلاع على كتبه في أصولها العربية والفارسية يدرك تماماً مدى عدم الأمانة عند هؤلاء المفترين إلى العون . إنهم يضيفون تراكيب غريبة وهمية إلى كلماته ، وينبشون أفكاراً لا وجود لها في كتاباته . إن شاه ولي الله لم يدافع أبداً عن « سيادة مذهب العقل » ولم يحاول أبداً أن يقصي العنصر العربي من الإسلام . كان عظيم الاعجاب بالمذاهب الفقهية السنية الأربعة جميعها . ولم يصبُ أبداً لضم مذهب شرعي جديد على حساب إقصاء المذاهب السابقة — ولكنه — وقد رأى التصلب والتضاد في المذاهب التي تقدست على مرور الزمن — فقد أبدى رغبته أنه ربما كان من الأفضل، لو بعملية توفيق

استخراج نظام شرعي جديد من المذهبين الفقهيين الشافعي والحنفي على الأخص. ولم يتعد ذلك أبداً . وأن مركزه الحقيقي في الإسلام مركز المجدد ولم يكن مبتدعاً » .

ولقد أراد شاه ولي الله أن يعدّ لثورة فكرية تسبق البعث السياسي الذي كان يبشر بقرب قيام دولة إسلامية حقة ، والتي كافح من أجلها طيلة حياته . وهكذا كان يمضي الباقي من وقته ، عندما لا يكون مشغولاً في كتاباته ، في تدريب طائفة مختارة من العلماء كرّس كل منهم حياته فيما بعد لنشر أفكار أستاذه الدينية والاجتماعية والسياسية .

سيد أحمد شهيد

كان أكثر النتائج أثراً لأعمال شاه ولي الله ، هو انبعاث حركة قوية لتصدّ قوى السيخ والبريطانيين في الخارج، وتوقف الفساد الخلقي والروحي في الداخل. وكان الرجل الذي جاهد أكثر من أي شخص آخر لتحقيق رسالة شاه ولي الله هو سيد أحمد شهيد ، الذي وُلد سنة ١٧٨٧ في ريبرللي ، وهي مدينـة صغيرة تبعد حوالي ٥٠ ميلاً عن لكنو . ولكن سيد أحمد شهيد ، بخلاف شاه ولي الله ، لم يكن عـالماً بالمعنى المعروف ، فهو في طفولته لم يكد يتعلم شيئاً سوى كتابة كلمات قليلة بسيطة ، واستظهار بعض السوَر القصار من القرآن الكريم . وكان في شبابه قوي البنية جداً . وكان يخصص قدراً كبيراً من وقته للتمارين الرياضية والمصارعة . وكان مغرماً بالسباحة . وقد تفوّق فيها . وكان يحب رفع الأثقال أيضاً . وقد وصلتنا قصص كثيرة تتحدث عن قوته الخارقة وشجاعته . وبعد وفاة أبيه ، أخذ يسعى وراء الوظيفة في لكنو ، بعد أن أصبح عليه أن يواجه ضرورة كسب رزقه . ولكنه بعد أن مكث هناك شهرين، دون أن يحقق نجاحاً ما ، عزم أخيراً أن يلتحق كتلميذ ، لشاه عبد العزيز أحد أبناء شاه ولي الله ، والذي اشتهر كواحد من أكبر علماء الهند . وعندما وصل إلى دلهي ، قدم نفسه إلى شاه عبد العزيز والذي سعد به . إذ علم بقرابة بينه وبين ذرية شاه ولي الله عن طريق أخواله . وقـد ابتهج شاه عبد العزيز بطريقته الإسلامية في التحية

« السلام عليكم » . وذلك أن تلك العادة كادت تختفي من بين المسلمين في الهند آنذاك . وفي أثناء دراسته مرّ في محنته الغريبة . ذلك أن عينيه لم تعد تبصران الكلام المكتوب . ومع أنه أبدى حماسة عظيمة في دراسة القرآن الحديث ، إلا أنه لم يكن يميل أبداً للمواضيع الأخرى . ولقد فكر البعض أنه كان مصاباً في بدنه . ولكن ظهر أن تلك كانت إشارة من الله إلى أنه لم يكن قد وجد للقراءة أو الكتابة .

وعندما أصبح شاباً في الثانية والعشرين من العمر كان قد ألمّ بالعربية والفارسية . كما اكتسب المعرفة الأساسية للقرآن والحديث . وقد أدرج بواسطة معلميه ، في مذاهب التصوف والباطنية . كان شاباً أنيقاً فارع الطول ، قوي البنيـة ، ذا بشرة قمحية ذهبية سارة ، وعينين واسعتين سوداوين ، حالمتين . وتخرج من مدرسة شاه عبد العزيز مؤمناً برسالته وبكل عواطفه ، والتي كانت الدعوة لنشر تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف . ولقد عظمه الناس كأحد الأولياء ، عندما رجع إلى ريبرللي . وذلك بسبب صفاته التي يُقتدى بهـا . وحياته البسيطة التقية . ولقد ازداد اتصاله بشاه عبد العزيز من شهرته . فكان أينما حل يُعظّم كأحد أولياء الله . وكان قصده الذي يسعى إليه هو الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأصيل ، وتخليصه من جميع المعتقدات الخرافية ، ذات الأصول الهندية والفارسية . ولم يكن يلتفت إلى الاختلافات المذهبية أي التفات . أو إلى الأمور الجدلية حول المسائل التافهة . فكانت رسالته هي وعظ الناس فقط في وحدانية الله وضرورة اتباع أوامره .

وفي سنة ١٨٢١ ذهب سيد أحمد إلى مكة لتأدية الحج ، وعلى الرغم من أن الحج من الفروض الواجبة على كل مسلم صحيح قادر عليه ، إلا أن المسلمين في الهند هجروه تقريباً ، على اعتبار أن الرحلة إلى مكة قد أصبحت خطرة جداً . وقد رافق سيد أحمد جماعة كبيرة ، مؤلفة مما يقرب من أربعمائة شخص بما فيهم الأطفال والنساء . ومع أنه لم يكن يملك ما يغطي نفقات هذه الرحلة ، إلا أنه

أمر أتباعه أن يثقوا كثيراً بنعَم الله . وعندما رجعت زمرته بالتالي إلى الوطن لم يكن لديهم الزاد الكافي فحسب بل فائض من بضع مئات الروبيات . وفي أثناء إقامته في جزيرة العرب قابل السيد العلماء العديدين ، واكتسب معرفة بجميع الحركات البارزة في العالم الإسلامي ، بما في ذلك طبعاً الحركة الوهابية . ولكن من الخطأ أن نعتبر الحركة التي قام بهـا سيد أحمد كانت مجرد امتداد للوهابية ، كما اعتقد خطأ الكثرة الغالبة من الكتّاب الأوروبيين ، أمثال وليم هنتر ، في كتابه « المسلمون الهنود » . فقد كانت المُثُل لحركة سيد أحمد قد أخذت شكلها قبل أن يغادر إلى بلاد العرب .

وعندما رجع سيد أحمد من الحج بدأ الإعداد لجهاد عام ليحرر الهند بأسرها من السيطرة الأجنبية ، وليؤسس دولة إسلامية خالصة . وقد استشهد مع أكبر تلاميذه ، شاه اسماعيل ، في بلاكوت سنة ١٨٣١ ، في معركة مع السيخ ، ولم يبقَ شيء من جثمانه وكان ذلك أشد انتقام انتقمه السيخ من خصمهم المسلم . وذلك يزداد أهمية إذا تذكرنا أن الباتان الأميين يعتقدون أن روح الشخص لا تطمئن ولا تدخل الجنة إلا إذا أحرق الجسد .

لقد نجح سيد أحمد شهيد وأتباعه في العيش للمثل التي وضعها الرسول الكريم ﷺ وأصحابه . فلقد كانوا يحثون الناس على اعتناق الإسلام أولاً ، أو دفع الجزية . ثم كانوا يلجأون للسلاح كملجأ أخير . وعندما كانوا يشنون الحروب كانوا يتبعون تعاليم الإسلام كلها بكل دقة . فلم يرتكبوا أي عمل وحشي أو بربري قط . ولم يكن جندهم يتعاطون الخمر ، ولم ينغمس أحد منهم في الجنس الرخيص ، ولم تسجل عليهم حـادثة قط في التحرّش بالنساء ، أو اغتصاب الممتلكات . لقد كان جنود الله هؤلاء ، أولياء بالمعنى الصحيح . يقضون نهارهم على ظهور الخيل ، ولياليهم في الصلاة . لا يغفلون لحظة ، عن حساب الله الأخير لهم ، ولا عن الآخرة . كتب السيد أبو الأعلى المودودي عنهم في كتابه « التاريخ المختصر لحركات التجديد في الإسلام » ما يلي :

« كان فشلهم ظاهرياً فقط . ولم يكن حقيقة . فإن النجاح الحقيقي للمسلم يكون في جهـــاده لنصرة الإسلام كي يفوز برضاء الله ، وأن يعمل كما يجب . « فالمجاهدون » إذا اعتبروا بهذا المقياس فقد نجحوا في رسالتهم . وأما من وجهة النظر الدنيوية فقد فشلوا لأنهم لم يستطيعوا وضع حد للحكم الغير إلهي ويرسوا عملياً سيادة الإسلام السياسية .

وكانت نقطة ضعف هؤلاء المصلحين الوحيدة ، هي أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا وجهة نظر صحيحة عن تعلق المسلمين الشديد بالتصوف ، إن هـذه المحذورات لم تتجنب ، بل تضاعف المرض بأخذ جرعات زائدة من نفس الغذاء الغير مرغوب ، فإذا ما أراد إنسان ما أن يعيد الإسلام إلى الحياة ، فلا بد أن يتجنب لغة الصوفيين ، ومصطلحاتهم ، واستعاراتهم الغامضة ، وإشاراتهم المجازية ، وألبستهم ، وسلوكهم ، ونظم تلامذة الأولياء ، وكل ما يتعلق بذلك .

ونقطة الضعف الثانية التي يكتشفها الانسان بعـــد دراسة انتقادية لهذه الحركة ، هي أن سيد أحمد وشاه اسماعيل ، لم يبذلا الجهود اللازمة ليعدوا الأساس في المناطق التي أعلنوا فيها الجهاد . فإن المتطلبات الضرورية للقيام بثورة سياسية هي العمل للنهوض بأخلاق العوام وروحانياتهم ، في المنطقة ذاتها . فما لم تظفر الثورة السياسية بجذور في حياة الناس الاجتماعية ، والخلقية ، والثقافية ، فلن يكتب لها النجاح . وحتى لو نجحت فإنها لن تستمر طويلاً . وهنا يرد هـذا السؤال : ما هو السبب الحقيقي لسيادة الشعب الانجليزي الذي مكنهم من إيجاد دولة دنيوية بعيدة آلاف الأميال عن بلادهم ، بينما فشل « المجاهدون » في تأسيس دولة إسلامية في وطنهم الخاص ؟؟ فلمحة خاطفة على التاريخ المعاصر ، تكشف عن أنه في الوقت الذي نفض فيه أفراد قلائل غبار النوم عن أعينهم في شبة القارة ، فقد نهضت أمم بكاملها في الغرب . وفي الوقت الذي أنجزت فيه أعمال قليلة هنا ، وفي ناحية واحدة فقـد أنجزت تقدمات أكبر منها بآلاف المرات هناك وفي جميع النواحي . فهنا كتب الشاه ولي الله وأبناؤه كتباً قليلة

في مواضيع معينة. وهي تصل وتؤثر في مجالات محدودة. بينما في الغرب انتجت مكتبات كاملة، في جميع الفنون والعلوم. لم تكتسح الحياة العقلية ولم تستحوذ عليها، في أي وقت مضى. فلو وضعت أعمال شاه ولي الله وخلفائـه لتجديد الإسلام في كفة ميزان، ووضعت في الكفة الأخرى جميع القوى التي كانت قوى الشر المعاصرة تؤثر بها، فإن الانسان يمكنه أن يتصور نسبة القوة بين القوى المتقابلة. فلذلك فإن ما حدث كان طبيعياً ومتمشياً تماماً مع القواعد العامة في هذه الدنيا المادية ».

لقد تضافرت كل هذه العوامل لتعطي النتيجة : وهي استشهاد سيد أحمد شهيد في بلاكوت. ولكن تأثيره كان عظيماً. ذلك أن مثاله المجيد أعطى الالهامات لجميع المحاولات المقبلة لبعث إسلامي في الهند المسلمة.

الامير سعيد حليم باشا

ولد الأمير سعيد حليم باشا في سنة ١٨٦٥ . وكان أصغر أبناء محمد علي والي مصر . وبالرغم من أن محمد علي كان متحمساً للغرب وثقف ابنه بالثقافة الاوربية ، كواحد من قادة «الشبان الاتراك» ، ورئيس لوزراء تركيا قبل حكم كمال أتاتورك ، إلا أن الأمير سعيد حليم باشا أصبح زعيماً بارزاً للإسلام الناهض . وقد اغتاله لاجيء ارمني فقتله في روما سنة ١٩٢١ ، بعد أن ترك تركيا فاراً بحياته ، بعد نهاية الحرب العالمية الاولى .

« كان الأمير سعيد حليم باشا رجلاً ذا تجربة عملية ، في السياسة الدولية ، في أوقات عصيبة ، وذا اطلاع واسع في السياسة الاوربية الحديثة ، كان مصلحاً وابن مصلح . وأجبرته الظروف المحيطة به في كل حياته ، أن يفكر طويلاً في المشاكل المتعلقة بمستقبل الإسلام والمسلمين ، كان رجلاً ذا اطلاع في أفكار انجلترا وفرنسا والمانيا ، كاطلاعه في تعاليم القرآن الكريم والرسول العظيم ، وتفاسير العلماء لهذه التعاليم ، فكان لذلك جديراً بأن ينصح للعالم الإسلامي فيما يختص بسياسته المستقبلة ، ولم يكن نصحه اوربياً ، بل كان إسلامياً . وفيما يلي مقتطفات في « إسلامياته » المشهورة ، كما ترجمها محمد بكثال . وربما كانت تلك أول محاولة ناجحة لشرح نظام الحكومة الإسلامي بعبارات حديثة :

« انني أرى بقناعة لا حد لها ، ان المسلمين في عصرنا هذا يستيقظون من

سباتهم ، ويتطلعون لإزاحة النير الأجنبي . وذلك يعني انهم أدركوا أخيراً ان واجب كل مسلم - وذلك واجب مقدس قبل كل شيء - أن يكون حراً ، وانه بدون ذلك لا يمكن أن يكون هناك أية سعادة أو تقدم حقيقي ، ولكنني أعترف أن قناعتي ليست خالصة ، إذ أنني ألاحظ أن الاكثرية الغالبة من ممثلي الطبقة المسلمة المثقفة منهمكة في تزويد بلادهم بنسخ من الانظمة الغربية المقنعة بكل جهد، وهم يظنون أنهم لا يمكنهم بعث بلادهم إلا بتبني الانظمة والمعتقدات للعالم الهندوآري . ان هذه العقلية للطبقة المثقفة المسلمة تضايقني ، لأنها تكشف أنهم لم يعودوا يفهمون أن الإسلام الذي يعلمنا أن نعبد الله وحده ، زودنا بمجموعة كاملة من الانظمة الخلقية والاجتماعية ، تنبع من الاعتقاد بوحدانية الله ، وأن هذه الانظمة فرضت علينا من تلك العقيدة ، وأن جميع المجتمعات المسلمة أنشئت على أسسها ، وعاشت عليها . ولربما يبدو بعد ذلك ان طبقتنا المثقفة لم تعد قادرة على اقناع نفسها بقناعة تامة ، ان الإسلام هو الدين الكامل في أعلى وأتم صوره ، وأنه الحضارة بعينها في أكمل مفهوم ، وبالتالي فإنه لن يكون هناك خلاص اجتماعي ، كما أنه لن يكون هناك خلاص دائم خارج حظيرته . انني فقط أعزو تشوه العقلية المسلمة ، التي تتطلع إلى بعث المجتمع المسلم كنتيجة لذوبانه في المجتمع الغربي إلى التأثير التعس للسيطرة الغربية على الشعوب التي تتبع شريعة الرسول ، تلك السيطرة التي كانت العامل الثقافي المذيب بينهم .

انني أرى أن نزيل الاخطاء التي شحنت بها تلك العقلية ، وأن نثبت أن العالم الإسلامي من وجهة النظر الخلقية والاجتماعية ، ليس لديه ما يجعله يحسد الغرب، بل بالعكس فالغرب هو الذي يجب أن يتعلم من الإسلام في تلك المجالات ان الهيكل الاجتماعي الكامل للإسلام يعتمد على القاعدة الأساسية لسيادة الشريعة . فالمجتمع المسلم هو ذلك الذي يخضع لتلك السيادة ، والشريعة هي المجموع الكلي للحقائق الطبيعية والخلقية والاجتماعية التي جاءنا بها الرسول محمد ﷺ باسم الخالق العظيم ، والتي تعتمد عليها سعادة الإنسان . وقاعدة سيادة الشريعة هي معرفة الحقيقة الأساسية . وهي ان كل الوجود في أية طبيعة كان

خاضع لهذه السيادة ، وبالتالي فـــإن الوجود الاجتماعي للناس خاضع للقوانين الطبيعية المختصة بهـــذه السيادة ، وبالتالي فإن الوجود الاجتماعي للناس خاضع لقوانين طبيعية ، كما يخضع وجودهم المادي لقوانين طبيعية مادية . وهكذا ، فقد نجح الإسلام في وضع القاعدة القائلة ان الإنسان ليس ملزماً بأي شكل بأن يخضع لقوانين مجاوريه ، حتى ولو كانت تلك القوانين معبرة عن إرادة الغالبية العظمى . ذلك ان أمثال هذه القوانين تستوجب أن تكون اختيارية لحد ما ، فهو يخضع لإرادة خالقة ليس إلا ، متمثلة في القوانين الطبيعية .وهكذا فقد أبطل الإسلام المذهب التجريبي والعقلي على أساس أن الأول والثاني مـا هما إلا مجموعة من الأخطاء والاغترارات ، قادت الناس في ذلـــك الوقت إلى تشكيل بنائهم الاجتماعي وتطويره . فلقد جـاء بالقواعد التي أعطت للناس حق تحرير أنفسهم من تلـــك السيادات الخيالية التي نصبوها لأنفسهم ، كي يرضوا المطالب الطبيعية بسلطة ما قادرة على صون النظام والقانون ، من وجهة النظر الاجتماعية والخلقية ، ومن وجهة النظر السياسية كذلك ، انه الإسلام بلا منازع الذي أوجد أصح مفهوم للسلطة ، وأعطاهـا أهميتها الحقيقية بتعليم الإنسان ، أن السلطة التي لا تناقش تأتي من الله وحده ، وقـد وجدت بشكلها العملي في الشريعة ، والتي هي المعيار للحقائق الخلقية والاجتماعية ، وبالتالي فهي الكفيلة بإيجـاد العدالة الاجتماعية في حكومة الدولة ، لقد وضع الإسلام حداً للاعتقاد القائل بـأن السلطة يجب أن تستمد من العقـل الإنساني الضعيف أو الذي لم تولد قوانينه الخلقية والاجتماعية إلا قوة طاغية مستبدة تعتمد على العنف – سلطة عرفية غاضبة درجت على أن ترضي رغبات أنانية تتغير بتغير اولئك الذين يمتلكون زمام القوة .

لماذا أنزلت الشريعة ؟ ذلك سؤال تجب الإجابة عليه الآن . لم كانت القدرة على الملاحظة والتفكير ، هذه التي تكفي لاكتشافات الانسان للقوانين العلمية ، غير كافية لاكتشاف القوانين الاجتماعية والخلقية ، والجواب بسيط للغاية . فمن الواضح أن هناك فرقاً بين الصنفين من القوانين . فالصنف الأول فـيما يتعلق

بالانسان ، يكون أساساً للدراسة فقط من زاوية تكوينه المادي ، فهي لذلك ذات شأن موضوعي جداً . أمـا الصنف الثاني فهي تتعلق بالكائن البشري كمخلوق اجتماعي مدرك ، ذي اخلاق . فهي لذلك ذات شأن شعوري نفسي ، أي أنها غير موضوعية أولاً ، ولا تعطي أساساً لنظم إيجابية ، فالانسان يمتلك الاستقلال العقلي والنزاهـة اللازمة لاستخراج النتائج الصحيحة من الحقائق الظاهرة التي توجد آلياً خارج نطاق إرادته ، والتي لا سيطرة لخواصه عليها . فهو يستطيع أن يستخرج منها القواعد والقوانين التي تقابل الحقيقة . ولكن ما أن تكون المسألة مسألة دراسة وجود الانسان ككائن اجتماعي اخـلاقي ، أي كعامل مفكر متصرف من نفسه ، وواضع للقوانين التي تحكم سلوكه حتى تصبح قوة الملاحظة والتفكير مهما نظم استعمالها غـير حازمة . وعلى العموم تصبح مرشداً قاصراً ، ذلك أنها دائماً تفسد بعوامل الضعف الموجودة عند مستخدميها والعجز الطبيعي في الانسان ، في اكتشاف الحقيقة في هذا المجال ، ظاهر بصورة أخاذة في الجهل الموجود في القوانين الخلقية والاجتماعية ، التي تقابل القوانين الطبيعية التي ما زال الغرب يغرق فيها رغم تحضره الزائد . وكذلك في المتاعب التي هي نتيجة لهـذا الجهل ، في الوقت الذي أوجـدت لهم مجهوداتهم العملية درجة عالية من المعرفة في القوانين الطبيعية الاخرى ، فهي إذن حقيقة ذلك أن الانسان مـا كان ليستطيع معرفة القوانين الخلقية والاجتماعية ، التي تعتمد عليها السعادة الانسانية ، لو لم يبينها الرسول ﷺ لهم .

وبالرغم من تفوق المبادىء الاسلامية الواضح في تنظيم المجتمع ، فـإن العقلية المسلمة قـد ضُلّلت في أيامنا هذه ، حتى أنها لتفضل قاعدة « إرادة الامـة » كسلطة غير محدودة ، ولا تناقش على قاعدة سيادة الشريعة . ولقد انبهرت فئة متزايدة من المفكرين المسلمين بالنجاح المادي والقوة المادية للمجتمع الغربي ، وهم يسرون باعتبار هذا الرقي الغربي وهو موضوع تعجبهم المفرط كنتيجة مدهشة لقاعـدة سيادة الامة ، هؤلاء الناس يريدون أن تنتهي الشريعة عن أن تكون

المصدر والميزان للدولة الإسلامية . وذلك الاعتقاد بالسيادة القوية للأمة ، هو اعتقاد باطل كغيره من اعتقادات السيادة التي ظهرت في الغرب . فهو يرتكز على اعتقاد وهمي ، تحكم الأمة بموجبه على نفسها على مسؤوليتها ومبادئها . وفي أساس هذه السيادات نجـد دائماً قاعدة القوة . فالنتيجة هي نزاع دائم للوصول إلى القوة ، تصبح معه الأحقاد الاجتماعية قاتلة ، وتتبدد معه قوة الأمة . فهذه السيادات إذن ، ما هي إلا امتيازات فرضت بالقوة الوحشية . فهي ليست قواعد تلتزم الاحترام من ذاتها بهيمنة قيمتها الخلقية الجوهرية . فهي تمثل الاستبداد ، أي الظلم . فالحقيقة هي أن السيادة الحقيقية تنبع فقط من تأدية الواجب . فهي الحامي إذن للواجب المؤدى ، وإلا فهي ليست إلا الاستبداد والظلم .

والناس عامة يفكرون أنهم يدللون على تحررهم ، عندما يدّعون أن الإنسان يوجد في هذا العالم مزوّداً بمجموعة من الحقوق الطبيعية ، ومن جملتها أن يكون حراً . ولا شيء أكثر بطلاناً وأضيف أكثر « ولا تحرراً » ، من ذلك . فالإنسان ليس له حق طبيعي . فهو يمتلك بالطبيعة المقدرة على تكييف نفسه حسب بيئته ليس إلا ، أي باتباع القوانين الطبيعية التي يخضع لها وجوده الأخلاقي والمادي ، وبتلاؤمه معها ، وبكلمات أخرى بأداء واجباته . فهو بأداء واجباته يكتسب حق المساندة ، فهو بممارسة الفضيلة يكتسب حق الاحترام . وهو بتلاؤمه مع واجباته الاجتماعية والأخلاقية يكتسب حق الحرية ، لحدّ ما ، تقـدر قيمتها بالقيمة الاجتماعية والخلقية الذاتيـة للواجبات التي يؤديها ، وبالأسلوب الذي يقدمها به . ومن أجل ذلك علّم الإسلام الناس بالشريعة واجباتهم الأساسية ، التي تضمن لهم بالتالي ، وبعد تأديتها ، الحق في التمتع بسعادة كاملة دائمة .

فالمركز الرئيسي في الدولة ، في الغرب في هـذه الأيام ، مفتوح لنوعين من الأشخاص فقط ، النوع الذي يخطو إليه بهدوء بحق المولد ، سواء كان صالحاً أو غير صالح ، لتأدية وظائفه . أو النوع الذي يختار إليه بأصوات الجماهير . وليس هناك ما يقال على النوع الأخير ، من وجهة نظرنا الدينية ، إذا أجريت الانتخابات

عن قصد من بين الأخيار وخدام الأمة المجربين ، بواسطة مجلس من أعقـــل الرؤساء ، وإذا كان شرط الانتخابات لمدى الحياة ، أو طالما أن المنتخب حكم بالعدل . ولكن ذلك يؤدي إلى العفوية بسبب المغالطة القائلة بأن الغالبية دائماً على حق ، وأن حق التصويت يعطى لجماهير غير قـــادرة على الحكم الصحيح في حالات كهذه . فالأشخاص الذين يختار من بينهم ، هم على العموم ، وبالتخصيص ، الذين يجب أن يستثنوا كليـــة ، بمقتضى الحكمة ، من دائرة الاختيار – أناس طموحون شخصياً ، يشغلون كل أعصابهم للوصول إلى القوة .

فالانتخابات المتنافس عليهـا ليست في أي نظام في الإسلام . ذلك أن الإسلام لا يأتي بالعصمة الجماعية لأولئك الذين هم كأفراد غير أكفاء ، وهو كذلك لا يثق بالغالبية من الجهـــلة . فاختيار الحاكم أمر هام ، يوكل فقط للرؤوس الحكيمة العـارفة بالأشخاص المعنيين . والمسلمون بمجموعهم لا دور لهم في الانتخاب ، فهم ببساطة ، إما أن يؤكدوا الانتخاب أو يبطلوه . ورئيس الدولة المسلمة يُختار طوال حياته لا لفترة قصيرة فقط ، ويُعهـــد إليه بكل سلطات الحكومة . وهو بالنسبة للشعب ، ملك مطلق . ولكن بالنسبة للشريعة فهو على قدم المساواة مع أبسط رعاياه . فهو مجرد مسلم من بين المسلمين ، يتطلع أمامه إلى يوم الدين ، عندما يُطلب منه أن يقدم كشف حساب عن كل أعماله . وليس للشعب صلاحية التخلص منه ، ما دام يعمل صالحاً . ولكنه إذا سار في الخطأ ، فإن الشريعـــة نفسها تعطيهم حق محاسبته ، وإذا اقتضى الأمر خلعه . أما في الدول الغربية الديمقراطية ، فإن أصوات الشعب تستطيع خلع الرئيس الذي يعمل الصالح . وفي الحقيقة ، فهم يستطيعون خلعه حتى بسبب أنه يعمل الصالح وهم يفضلون الضلال .

والقوانين الجديدة في الدولة الإسلامية ، توضع من قِبَل علمـــاء ضليعين في أصول القانون ، رجال تختارهم الجماهير من بين أولئك الضليعين في القانون ، على أساس استنارتهم وفهمهم لحاجات الأمة . والتشريع أو التقنين نادر في الدولة

الإسلامية وليس حدثاً يومياً ، فالقوانين في الإسلام لا يوافق عليها في اجتماعات حامية ، من رجال يرغبون بإلحاح أن تكون التشريعات في صالحهم ضد رجال يعارضونها لنفس السبب. فالقوانين الإسلامية مرتكزة بقوة على الشريعة. وهي لذلك في صالح الناس عامة . فهي ليست من عمل الساسة المتصارعين بل من عمل القضاة المعتدلين .

فسيادة الأمة التي هي تطور لقاعدة باطلة مكتوب عليها الاندثار ، كسابقاتها ، باستمرار ، ذلك التطور . وفوق ذلك ، فإن مـــا يسمى بإرادة الأمة هو في الحقيقة إرادة غالبية الأمة . فهي من المعقول أن تكون نصف الأمة زائداً صوتاً ، أي أنها إرادة نصف الأمة الضعيف ، مقابل أقلية قوية جداً أقلية هي مساوية للأكثرية تقريباً . فقاعدة سيادة الأمة إذن هي مجرد اعتراف بحقوق الغالبية لتفرض إرادتها على الأقلية . تلك الارادة التي هي قانون في كل شيء والتي لا استئناف في قراراتها ، وإرادة كتلك ربما لا تقرها الحكمة والعدل .

لقد استطاع الإسلام أن يزود الناس الذين اعتنقوه بمثل ثابت لم ينقطع عن الهيمنة على تطورهم . وبفضل ذلك ظلت الأمم الإسلامية في عهود ازدهارها وانحدارها تنشد مطابقة سلوكها لأحكام الشريعة ، وتنشد إطاعة هذه الأحكام جهد استطاعتها ، وتتطلع إلى الخلاص في جميع العصور بتلك الشرائع . ونتيجة ثانية لنظام الإسلام الاجتماعي وهي أنه كان يكفل للسلطة نفوذاً وتأثيراً لم يعرف في أي مكان آخر أو في أي وقت آخر . ويجعلها في الحال سلطة مهابة محترمة محبوبة في آن معاً . فقد كانت محبوبة لأنها بنت الشريعة فكانت لذلك ذات شرعية نزيهة نقية من أية شائبة من السلب أو الاغتصاب . وكانت مهابة بالقوة التي استمدتها من أصلهـــا المعصوم ، ومكانتها كمثل أعلى للحقائق الأخلاقية والاجتماعية . وإن الأخطاء التي ارتكبت باسمها بالذات ، لم تستطع أبداً أن تقلل من الهيمنة التي اكتسبت بها منذ البداية ، ولا في الثقة التي بعثتها في النفوس.

ففي كل العصور يعتقد المسلمون أن الظلم والسلوك الاختياري (الغير شرعي)

الذي حاق بهم ، لم يكن بسبب سلطة الشريعة ، ولا في القوانين والنظم المستمدة منها . بل بسبب خبث الأناس الذين تملكوا زمام القوة ، وحكموا باسم الشرع . فكان العلاج المنشود لمعالجة هذه الشرور هو تغيير أولئك الحكام بآخرين . كان يبدو أنهم سينفذون الشريعة تنفيذاً أحسن ، ويطبقون القانون أو الشرع تطبيقاً أكثر فعالية . وأن أقل قدر من الحكمة يدعونا لأن نتمسك بنصوص الشريعة في تلك الأحكام التي أثبتت جدارتها بحفظ المجتمع المسلم من الخصومات وصراع الطبقات والأجناس الذي أزعج الأمم الغربية دون انقطاع . إنه الفقه ، المبني على الشريعة ، والذي نمّى من روحها ، وحسّن فهمها . هو الذي يجب أن نسيّره بيننا كي نوحد وننظم كياننا الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي ، وسنجد هناك حماية الشرائع الايجابية تعمل في إطار اجتماعي خال من الاضطرابات التي تصيب النظم الغربية .

إن هذه السطور لن تسر المتفرنجين بلا شك . فإن الحب الذي يحملونه للنظام الاجتماعي الغربي خاصة ، قد تولد في نفوسهم بمشاهد التقدم المادي لتلك الشعوب ليس إلا . وذلك تماماً ، كالازدراء الذي يبدونه ، بل ويتظاهر أكثر ، للنظام الإسلامي كاملاً ، والذي ينشأ على العموم من مشاهد التخلف في النواحي المادية في المجتمع الإسلامي . ولكن التقدم المادي للمجتمع هو ثمرة جهوده في حقل العلوم التقنية . وذلك لا يشكل برهاناً كافياً لتفوق نظامه الاجتماعي . وقد يقول قائل إن الازدهار في الغرب يسود رغم الأحوال الاجتماعية . وذلك بعيد عن الحقيقة بكل وضوح . فإن المجتمع الغربي لم يتوقف عن ممارسة الحاجة إلى التغير ، ولا يزال يعتبر مراراً وتكراراً القيم النسبية لوجوده الكلي .

ومن وجهة النظر تلك ، فلم يكن تطوره إلا سلسلة من التخبط والبحوث ، والتجارب ، وذا طبيعة تجريبية دائماً ، سمح لنفسه بها أن يقاد دائماً بالغطرسة ، والاحتياجات الوقتية ، والظروف العابرة . فإن كانت تلك هي الحالة فمن الواضح أن السبب هو أن المجتمع الغربي لم ينكر أبداً أن يزود نفسه بمثل اجتماعية

ثابتة . فإن مثله كانت تتغير تبعاً للرغائب المتغيرة ، والاحتياجات المادية والمعارف التقنية ، فإن مثالها ، بل مثلها ، لا تقود تطورها العام . بل هي تتبعه . وإن لم تكن المثل الاجتماعية ثابتة . وإذا كانت تتغير كل لحظة تحت تأثير الأحداث ، وإذا كانت تعتمد على التطور الاجتماعي ، بدلاً من أن تكون باعثاً له ، فإن ذلك يعني أن المثل فارغة ، ولا ترتكز على الحقائق الطبيعية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، المستقلة عن إرادة الانسان ، والتي تفرض احترامها عليه بقيمتها الذاتية ، بل بالقرارات الارادية النزيهة لمجموعة من الحكام .

إن عدم الثبات في نظام اجتماعي ، دليل واضح على أنه يرضي طائفة واحدة في المجتمع فقط . بينما يدع الآخرين غير راضين . أي أنه يمالىء طرفاً على حساب الطرف الآخر . ويتبع ذلك أنه كلما كان النظام غير مستقر كلما كان ظالماً ، ويعارض بشدة . فلذلك ، فقليلاً ما يهم أن تحكم الملكية أو الكنيسة ، وإذا ما كان الجمهور أو رجال الدين هم الذين يسودون ، سواء إذا ما حلت الديمقراطية محل الارستقراطية ، أو استبدلت الرأسمالية بالاشتراكية ، أو الشيوعية . فإن الشر يستبدل فقط بمدلولات أخرى ، وتحت عناوين أخرى . وليس هناك إلا مساوىء جديدة ، ومظالم جديدة محل القديمة . والتي تنتج مساوىء ومظالم أخرى ستشقى بها الأجيال القادمة . ولذلك فمهما يكن الازدهار الاقتصادي ، والقوة الاقتصادية ، والانتعاش المادي الذي يتمتع به مجتمع كذلك ، في وقت ما ، فإن سعادته ستظل سريعة الزوال غير تامة . إذ أنها لا تعرف استقراراً وغير قادرة على الانعاش الخلقي الصحيح .

ما الذي سيحدث بالفعل لو أن دعاة التفرنج وجـــدوا طريقهم في أية من الأمم الإسلامية؟ إنهم سريعاً ما سيكتشفون أنهم استبدلوا الاستقرار الاجتماعي، الذي هو أبرز معالم الإسلام ، بالتنافس الطبقي والعرقي وبغضاء الغرب . وأنهم قد حطموا الحرية الفردية والمساواة في تلك الأمة ، وأرجعوها إلى حالة تجـــد نفسها فيها دائمة الجري وراء الحرية نفسها ، والعدالة نفسها التي نبذتها ، ولا

تستطيع الحصول عليها أبداً . إنهم سريعاً ما سيكتشفون أن البغضاء التي توجد بين شعوب الغرب – بغضاء بغير رحمة أو عهد – قد حلّت محل أخوّة الإسلام الجميلة ، وسيجدون أن المُثل العامة ، التي توحدهم الآن ، قد تلاشت تاركة المجال لكل المثل الزائلة ، الباطلة الوهمية المتولدة الأنانية ، والنـــاتجة عن احتياجات الناس المؤقتة ، تفرق بين الأفراد والطبقات ، وتغريهم بالحقد بعضهم على الآخر ، وبالنزاع المتواصل . وسيتحققون ، بعد فوات الوقت ، أنه ليس بتقويض الأمة خلقياً واجتماعياً ، ولا بغمسها في الفوضى الاجتماعية ، يمكن للازدهار الاقتصادي أو القوة السياسية لتلك الأمة ، أن تحيا ، وأن أحـــداً لا يمكن أن يحميها من السيطرة الأجنبية ، وأن الضرر الذي سيحدثه التفرنج للعالم الإسلامي ، حتماً سيكون دائماً بنسبة دقيقة لدرجة تفرنجه . وهكذا ، كلما كان التحول كاملاً ، كلما كان الضرر الذي سيحدثه للعالم الإسلامي أكثر ، وسيؤدي به في النهاية إلى الدمار التام .

وفي الختـــام ، يجب أن أضيف أن المفكرين المسلمين ، عندما يظنون أنهم مجبرين على تقليـــد الغرب وعلى طلب البعث في قواعده ، فإنهم يظهرون أنهم عاجزون كلية عن أن يروا أن غايتهم الوحيدة ، بل ويمكنني القول مبرر وجودهم الوحيد ، هو تمثيل القيم الإسلامية بكل حقائقها وبكمالها التـام ، وأن يخدموها بكل جهدهم . عسى أن يرشدوا أنفسهم ولا يقادون بالآخرين ، ويعملون كمثل يحتذى بدلاً من تتبع مثل الآخرين » .

إن النبذة الأخيرة من كتابات الأمير سعيد حليم باشا « إسلاميات » ، فيها شيء من الألم ، إذا نظرنا إلى النهاية المحزنة لتركيا في عهـــد الكماليين . إن كل التنبؤات التي مرّت سابقاً ، فيما يتعلق بمخاطر التفرنج في بلاد المسلمين ، هي في الوقت الحاضر حقـائق مؤلمة ، لو أصغى الحكام المسلمون اسماً للحكمة الموجودة فيها ، لأمكن تجنب جميع الانحلالات الاجتماعية ، والمفاسد الخلقية ، التي تعاني منها بلادهم في الوقت الحاضر .

بديع الزمان سعيد نورسي

إذا كان ظهور المصلحين العظماء في كل عصر سابقة معروفة في تاريخ الإسلام ليجاهدوا لإحيائه ، فإن بديع الزمان كان من هؤلاء المجددين ، الذين أرسلهم الله تعالى للمسلمين ، ليقاوم المفاسد التي تفشّت في عهــد مصطفى كمال أتاتورك المقيت . لقد مرّت عشرات السنين بعد موت الطاغية ، ولكن قوة أتباع نورسي لا تزال في تزايد سريع . وبالرغم من كل العقبات ، فإن أتباع بديع الزمان المنظمين يبذلون قصارى جهودهم لإيجـاد النهضة الإسلامية ، بوسائلهم السلمية ، عاملين بجدّ في مجالات العمل الأدبية والثقافية .

وُلد بديع الزمان في قرية صغيرة في مقـاطعة هزان في إقليم بتلس سنة ١٨٧٣ . وكان كردي المولد ، ووالداه من سلالة أسرة عريقة عظيمة . وقـد أرسله أخوه الأكبر ، عندما بلغ التاسعة من العمر ، إلى المدرسة المحلية . وبعد بضع سنوات غادر بديع الزمان مسقط رأسه سعياً وراء دراسات أعلى ، فزار مراكز عديدة من مراكز العلم . وفي فترة قصيرة وعى القرآن الكريم ، والفقه الإسلامي ، والخطابة ، والفلسفة ، والتاريخ ، والجغرافيا . لقد وُهِب حافظة عجيبة ، ولذلك حفظ القرآن الكريم غيباً ، وأم معاجم اللغة العربية ، والعديد من كتب التشريع . وفي وقت مبكر من حياته ، أدرك أهميـــة تعلم العلوم الطبيعية وضرورته . ولقــد استمر في اهتمامه المتزايد بدراسة العلوم طيلة أيام

حياته المليئة بالأعمال . ففي خلال وقت قصير صار ذا باع في الرياضيات ، وفي علم الحياة ، و كذلك في بعض اللغات الأجنبية . ولقد ذاع صيت مقدرته وعلمه في الصحف والمجلات . كما أشارت القراءات اليومية الصباحية في الصحف إلى اهتمامه بالسياسة .

لقد عاش حياة متواضعة شريفة وورعة. فكان كلما داخله الشك في أية حالة تورّع الفصل فيها طبقاً لتعاليم الرسول الكريم ﷺ : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك » . وهكذا كان في كل أطوار حياته ، إذا وجد نفسه في مشكلة ، يسترشد بآيات القرآن الكريم أو أحاديث الرسول الكريم ﷺ . وكان يتورّع عن تناول الطعام إذا داخله فيه شك ، فيقنع بأكل الخضار ، بل والأعشاب . وكان من عادته أن يطرح شيئاً من طعامه للنمل. وعندما سُئل في ذلك أجاب: تلك تقدمة أزجيها ، تقديراً للروح الديمقراطية ، والتنظيم العجيب ، لهذه المخلوقات الصغيرة .

ولقد استرعى انتباهه في يوم من الأيام ، قولة وزير المستعمرات البريطاني الذي قال : « طالما أن القرآن مع المسلمين فسيبقون في طريقنا ، ولذلك يجب علينا أن نبعده عن حياتهم » . وبعزة المؤمن ، أعلن بديع الزمان لأصحابه : « أقسم بالله أنني سأكرّس نفسي للقرآن باذلاً حياتي ، مهما كانت مكائد الوزير البريطاني القذرة » . وبعد هذا التصريح ، انتقل إلى استانبول وعمل الترتيبات لتأسيس الجامعة الزهراء، على غرار الجامع الأزهر في القاهرة . وبتصادف سعيد حدث أن زار شيخ الأزهر استانبول في ذلك الوقت ، فلذلك كثيراً ما كانت لديهما الفرص للقاء وعقد المباحثات الطويلة في الشؤون الإسلامية .

وبعد الإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني من قبل « الشبان الأتراك » سنة ١٩٠٨، اصطدم بديع الزمان بمنظمة سياسية تدعى « جمعية الاتحاد والترقي » ، وبالرغم من أنها أعلنت عن نفسها كمنظمة دينية ، إلا أنها في الحقيقة كانت تسيّر بالماسونيين وفي الحال أوجد بديع الزمان حركة مقابلة بإيجاد جماعة منافسة تحت اسم

« الاتحاد المحمدي » ، كرد على ذلك التحدي ، وتحت نفس الشعارات. الوحدة ، والحرية ، والاصلاح . ولكن بالاختلاف التالي : وهو أن سياستها ومنهاجها وموادها تتفق ومفاهيم الإسلام وشرائعه . وكتب المقالات الطوال تعزيزاً لأهداف منظمته . ولقد وعظ الناس مراراً وتكراراً بعد الابتعاد عن الطريق الذي رسمه القرآن الكريم . وحذرهم أن البديل عن القرآن الكريم سيكون الرضا بعبودية الغرب . وسيبقون في تلك الحالة أتراكاً بالاسم فقط .

ولم يستطع زعماء جمعية الاتحاد والترقي أن يتحملوا ذلك النشاط . وبالتالي قبضوا على بديع الزمان في مارس ١٩٠٩ ، وأعدم تسعة عشر من رفاقه . وقد عذبت المحكمة نفسها التي أعدمت التسعة عشر بالمقصلة ، بديع الزمان . وبعد تنفيذ حكم الاعدام بخمسة عشر آخرين من أتباعه التفت القاضي خورشيد باشا إلى بديع الزمان وسأله : « وهل تريد أنت أيضاً تنفيذ الشرع الإسلامي » ؟ فأجاب بديع الزمان : « لو كان لي ألف عمر فإني سأضحي بها بكل سرور في سبيل الاسلام. وأي شيء غريب عن الاسلام مرفوض بالنسبة لي . وأنا في الواقع أنتظر على البرزخ (الحال بين الموت والبعث) للعربة التي ستنقلني إلى الآخرة . وأنا مستعد للرحلة للحياة الأخرى لألحق بإخواني الذين تخلصوا من طغيانك بالمشانق . إنني تواق وعجول لأرى الآخرة . تصور نفسية الريفي الساذج ، الذي كان طيلة حياته يسمع عن رخاء مدينة استانبول ، وترفها ، وعظمتها ، ولم يستطع رؤيتها . عند ذلك تكن لديك فكرة عن قلقي للوصول إلى الآخرة . أنا متهم بالنقد اللاذع للمقلانيين وصحفييهم المأجورين . وأنا لهذه اللحظة أقول أنه كما أن ملابس المارق لا تليق بالرجل الفاضل المحترم فكذلك الثقافة الغربية وطريقة العيش الأوروبية لا تليق بأهل استانبول والعزة لله والنصر للإسلام » .

ولقد عذب بديع الزمان ، ثم أطلق سراحه بسرعة بسبب الاحتجاجات الجماهيرية . وعندما شبت الحرب العالمية الأولى التحق بالجيش التركي . وارتقى إلى رتبة ضابط. وقد اعتاد أن يلقي المحاضرات في معسكره لأصدقائه ، وأتباعه

في مختلف علوم القرآن . وكان المئات من الرجال يتحاوطون المعسكر للاستماع إليه . وفي سنة ١٩٢٠ ، وفي أوج الثورة التركية ، دعا مصطفى كمال أتاتورك بديع الزمان ليشاهد الاحتفال بيوم الاستقلال في أنقرة . وذهب بديع الزمان إلى أنقرة ، ولكن لخيبة الأمل لم يجد أثراً للعقيدة الإسلامية ، أو العمل الإسلامي في مصطفى كمال . وبالتالي غادر أنقرة دون أن يشاهد الاحتفال . ولكنه أرسل كلمة محتوية على عشر نقـــاط إلى البرلمان الذي كان برأسه مصطفى كمال ، وقد ابتدأت كلمته كما يلي :

« يا أعضاء البرلمان : اذكروا اليوم الذي ستُعرَضون فيه على الله ، مالك يوم الدين » . فقُرئت الكلمة في البرلمان من قِبَل كاظم باشا ، فكان لهـا تأثير عجيب على الأعضاء الذين أقسم منهم على الفور ، لا أقل من مائة وستين ، أن ينتهجوا حياة إسلامية ، وأن يؤدوا صلواتهم اليومية الخمس بانتظام . وقد غاظ كل ذلك مصطفى كمال ، الذي أرسل إليه قائلاً : « إننـــا فخورون بك كقائد لنا ، ولكنك لسوء الحظ ، أوجدت الفرقة منذ البداية ، بتركيزك على أهميـة الصلاة » . فزجره بديع الزمان بشدّة قائلاً : « يا باشا : إن الصلوات اليومية هي أول علامات يُعرف بهـا المسلم ، وذلك ترفضه أنت ، ومَن ينكر ذلك فهو عاص لله ، ومن هنا فلا يمكن الرضا بحكمك » .

وفكّر مصطفى كمال أن أحسن طريقة لتهدئة خاطره هي أن يعيّنه رئيساً للوعّاظ في إقليم أناضوليا ، وكعضو تنفيذي في جامعـة دار الحكمة ، وأعطي قصراً فخماً لإقامته . وقد عرف بديع الزمان مقاصد كمال أتاتورك ، فرفض كل شيء ، وهاجر إلى أنقرة ، حيث عاش حياة عزلة بالقرب من قان . وفي هـذا المكان صار يجمع الشبان من المناطق المجاورة ويعلمهم القرآن . فكان في بادىء الأمر يشرح معـــاني ألفاظه الحرفية ، ثم يوضح مدلولاتها العميقة ومضموناتها . وهكذا كان يطرح أمامهم جمـال الآيات ، واضعاً تركيزاً خاصاً على مدلولاتها الروحية والمادية والعقلية ، فيما يتعلق بالحياة الدنيا والحياة الأخرى . وكان

يشرح لهم ، بكل حيوية ، أسرار الطبيعة ، والقوى المختلفة التي هي في متناول البشر ، التي يمكنهم الاستفادة منهـــا ، شريطة أن يعيشوا حياة عادية بسيطة فاضلة ، تتفق مع القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ﷺ . وقد كتبت هذه الأبحاث بشكل مقالات طوال ،ثم أصدرت في رسائل تحت اسم «رسالة النور». وكان الذين يحصلون عليها ينسخون هـــذه الكراسات باليد ، ويشاركون في توسيع تداولها. وكنتيجة لهذه الحملة، وجدت آلاف من هذه الرسائل المكتوبة باليد طريقاً إلى القرى والبلدان والمدن والكليات والمدارس والمكاتب الحكومية. وفي الحال صادرت الحكومة تلك الكتيبات،ووضعت أتباع نورسي في السجون. وقد نُفي بديع الزمان ، ومكث ثمان سنوات في سجن تحت الحراسة الشديدة، حيث كان يطهو طعامه ويغسل ملابسه بنفسه . وفي أثناء ذلك أصبح حرّاس السجن أيضاً من تلاميذه . وفي النهاية نُقل هو وأتباعه من بارلا إلى اسكشير بتهمة التآمر على قلب الحكومة .

« إن دفاعي هو أن إمكانية نجاح أية حركة لا تعني أن تلك الحركة قـــد نجحت بالفعل ، وأن الحكومة قد قُلبت. فعلى سبيل المثال ، فهناك كل الإمكانية لأن يحرق عود ثقـــاب بيتاً ، ولكن ما لم يحترق البيت فلا يمكن اتهامي بحرق البيت عمداً . ولكي أقول الحقيقة ، فأنا لا أريد استلام أزمة الحكم بيـــدي ، ولكنني أريد أن أرشد الناس إلى طريق الله . وأنا أيضاً أتهم بالصوفيـة . إن الانسان يستطيع أن يدخل الجنة دون أن يكون صوفياً . ولكن لا يستطيع إدراك ذلك دون الإيمان بالله وإطاعة شرائعه . أنتم تقولون إن مـا أعمله لا تقرّه الحكومة ، وأن هناك دائرة لمثل هذا العمل ويجب علي أن أحصل على رخصة من الحكومة لأمثاله . أآخذ رخصة لإطاعة الله ؟؟ أتستطيعون إيقاف الموت بإغلاق المقابر للأبد ؟ وأنتم تسخرون مني لأنني لم ألبس قبعة أوروبية ثم أرفعها لتأدية شعائر التبجيل للمحكمة الموقرة . فاذكروا أن القلة القليلة فقط هي التي تزيت بها طوعاً . بينما أجبرت الملايين على لبسها قسراً . أليس من العار

أن يسمح للماسونيين أن ينالوا من الاسلام ، وأن يشجعوا الشعر ، والقمار ، والزنى كجزء من حملة رسمية لتعميم الثقافة الأوروبية ، بينما نمنع أنا ورفاقي من نشر رسالة القرآن الكريم ومن العمل في سبيل الله ؟ لقـــد وصمت كثائر ضد الديمقراطية ، بينما كنت أنا فتاها منذ صباي . إني أطرح جزءاً من طعامي للنمل لاعجابي بتنظيمه الديمقراطي . فمنذ عشرين عاماً لم تستطع ثلاث حكومات ومحكمتان ، بل ومصطفى كمال نفسه العثور على زلة في حياتي ، فكيف بالتهمة أنني عدو للدولة . ولذلك آمل أن يسمح لي بمواصلة رسالتي بسلام » .

ومرة أخرى بعد بضع سنوات ، ابتلي في المحكمة العليا في أفيون بسبب التهمة نفسها . تهمة التآمر ضد الدولة ، والتي وجدت أن لا أساس لها في محكمة القضاء في وقت سابق . وهناك سابقة في القانون معروفة جداً ، وهي أن الرجل لا يجب أن يدان مرتين بنفس الجريمة . ومن هنا ارتاب بعض القضاة ، وكثير من المحامين ، فيما إذا كانت قضيته صحيحة . فكان من السخرية أنه بالرغم من اجراءات الأمن المشددة ، أصبح القضاة أنفسهم الذين امتحنوه ، من المعجبين به آخر الأمر وساندوا رسالته . ولكن العهد الكمالي الدنيوي الظالم أراد أن يسلب بديع الزمان حريته ليس إلا ، وأن يسلبه الدعوة لحركته . وأخيراً أحيلت القضية إلى محكمة استئناف فأبقتها معلقة مدة عشرين شهراً . كل ذلك والمجدد المسن يرقد في السجن في سبارتا .

وفي منتصف رمضان ، وياللأسى سقط مريضاً فجأة . وطلب من اثنين من تلاميذه أن يأخذاه سراً إلى أورفة ، حيث توفي في ٢٧ رمضان سنة ١٩٠٣ عن عمر كبير بلغ ٨٦ عاماً . وهكذا بعد خمسة وثلاثين عاماً من النفي والسجن في خدمة قضية الاسلام انتهت حياة بديع الزمان تحقيقاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون .. » — المائدة .

جمال الدين الافغاني

المخطط لوحدة إسلامية شاملة

لعله لم يكن لشخصية تأثير في التاريخ الاسلامي المعاصر اكبر من تأثير جمال الدين الافغاني ، لقد ولد في أسد أباد في افغانستان ، ونال تعليمه الابتدائي في مدرسة المسجد المحلية . وفي سنوات رشده تابع دراسات أرقى على أيـــدي مدرسين خصوصيين في جهات مختلفة من افغانستان وايران . فما كاد يبلغ الثامنة عشرة، حتى تفرس في كامل العلوم الاسلامية . وفي الهند حيث عاش سنة ونصف السنة ، ألم ببعض المعرفة في اللغة الانجليزية ، وبقسط لا بأس بـــه من العلوم الأوروبية . وفي سنة ١٨٥٧ أدى فريضة الحج إلى مكة ، ثم رجع إلى وطنه أفغانستان حيث اضطرته الأحوال السياسية السيئة إلى مغادرة للبلاد بعد عـدة سنوات .

وكانت أهم فترات حيـاة الافغاني عندما كان مقيماً في القاهرة ، حيث كان يمضي الوقت في إلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ويعقد المناقشات الطوال مع الدارسين والمدرسين في كيفية تحقيق بعث الاسلام بتطبيق الفلسفة على الدين ، والثقافة المعاصرة ، وبخاصة العلوم الطبيعية ، لاثبات أن لا تعارض موجود بين العلوم المعاصرة وتعاليم القرآن الكريم . وفوق كل ذلـك ، الوحدة تحت زعامة

قوية تحمي الحرية السياسية للعالم الاسلامي في وجه التهديد الاستعماري الاوروبي.
فعلى رأي الافغاني فـإن « الروح الحقيقية » للإسلام توجد في دوره الديناميكي (Dynamic Role) المزعوم، رغبةً في تشرب الأفكار الجديدة ، وللحاجة إلى اعادة تفسير العقيدة تفسيراً عقلياً ، يتفق مع الفكر الحديث ، وكان يجب على الافغاني أن يركز على ماضي العالم الاسلامي المجيد بعلو شأنه السياسي وازدهاره المادي والثقافي وانجازاته العقلية .وذلك كي يقنع تلاميذه أن اتباع العقيدة الاسلامية سيؤدي حتماً الى النجاح والفلاح في الحياة الدنيا ، وكذلك في الآخرة . فكان ان قابل أعظم تلاميذه ومعاونيه ، الشيخ محمد عبده في الأزهر ، والذي أصبح شيخاً للجامع الأزهر ، والذي توصل فيما بعد ، وبمساندة الانكليز لمنصب من أخطر المناصب منصب المفتي لمصر .

وقد أمره حاكم مصر توفيق باشا بمغادرة البلاد سنة ١٨٧٩ ، بسبب أفكاره الثورية . وفوق كل ذلك بسبب شعوره المعادي للبريطانيين ، وبعد ان طرد من مصر ذهب إلى الهند وأقـام في حيدر أباد حيث وضع كتابه المنشور الوحيد « دحض مزاعم الماديين The Refutation of The Materialists » .

وبالرغم من أفكار الأفغاني العصرية ، إلا أنـه صار أخطر ناقد للسير سيد أحمد خان ، ولمحاولاته في تجريد الاسلام من كل أثر للمعتقدات الغيبية ، وبخاصة لسلكه التعاوني المصادق تجاه البريطانيين .

وانضم إليه في باريس سنة ١٨٨٤ ، الشيخ محمد عبده ، الذي طرد من مصر لصلته مع ثورة الوطنيين العرب . وهناك بدأ الاثنان في إصدار صحيفتهما الاسبوعية « العروة الوثقى » ، التي كان غرضها الرئيسي هو اثارة المسلمين من كل الجنسيات ليوحدوا جهودهم ضد خطر السيطرة والاستغلال الاوربيين . وقـد اضطرت « العروة الوثقى » إلى الاغلاق بعد ان منعت الحكومة البريطانية دخولها إلى مصر والهند ، وهما هدفاها الرئيسيان . وصارت الاجراءات المشددة الرادعة

تتخذ ضد اولئك الذين تصلهم اعدادها . ولكن بعد أن كهربت العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

وبعد توقف الصحيفة ، ذهب جمال الدين الافغاني إلى روسيا وأقـام هناك أربع سنوات بنشر المقالات العديدة في الجرائد يحـــذر من المكائد الشريرة لبريطانيا العظمى في العالم الاسلامي . وفي سنة ١٨٨٩ عندما كان في ميونيخ في المانيا قابل شاه ايران الذي كان في رحلة إلى اوروبا، والذي أقنعه بقبول منصب وزير للحربية .

ولقد أثارت خطبه الحماسية البليغة ضد الاستعمار الاوروبي الخوف في جميع أوساط الشعب ، ولكن الشاه الذي تخوف من هذه الشخصية كخطر على نفوذه هو ، أمره بمغادرة البلاد . فذهب جمال الدين الافغاني بعد ذلك إلى تركيا حيث أقام في استنبول إلى أن توفي سنة ١٨٩٧ .

كانت حياة جمال الدين الافغاني شاهداً على تفانيه الشديد لصالح المسلمين في كل أنحاء العالم ، خالصة من كل تحيز ضيق وطني ، لقد كان حقاً لكل العالم الاسلامي بمعنى الكلمة ، كان يتفق تمام الاتفاق مع شاعرنا العلامة «اقبال» «ليس لي بلد إلا الاسلام » .

كتب ويلفرد كانتول في كتابـــه « الاسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History يقول: « كانت عبقريته في أنه يرى الحالة بأبعادها الشاملة المنظورة . وتحقق أن العالم الاسلامي كليته ، لا هـذه البقعة منه او تلك ، كان مهدداً من قبل الغرب كوجود قوي ديناميكي . لقد رأى أن العالم الاسلامي كله ضعيف بالمقارنة مع ذلك الوجود . لقد شعر أن ذلك العالم مهدد بضعفه الذاتي . وزيادة على ذلك فيظهر أنه كان أول مجـدد مسلم يستعمل فكرة الاسلام مقابل الغرب ، كظاهرتين تاريخيتين متخاصمتين طبعاً ، وتحملان نفس المعنى ، وصار هذا التناقض كما هو معروف جيداً ، منذ ذلك الحين قاعـــدة في كل التفكير الإسلامي في الواقع . لقد أصبح هـــذا الشعور الاسلامي بشبح الغرب كقوة

مهددة واضحاً جلياً بسبب الافغاني ، وصارت الاستجابة لهذا الشعور ذات أثر .

كان الجانب السياسي لبرنامج الافغاني هو أشد الاسهامات إثارة وجدارة من حياة ذات كفاح لا يستكين ضد استعمار ممتد من الخارج ، وضد تمزق وطني ، وفساد خلقي من الداخل ، لقد كان الافغاني متيقناً تماماً من أنـــه لا يمكن أن تكون نهضة إسلامية تحت الحكم الأجنبي المعادي ، كما كان مدركاً تمـام الإدراك الأهمية المشتركة لزعامة عليا تضع صالح شعبها قبل كل مكسب شخصي دنيوي ، كان هذا الجانب من عمـله ذا قيمة اكبر بكثير من دفاعاته التجديدية . ولكن الأمر المحزن كان ان تلميذه المصري الشيخ محمد عبده عجز عن إدراك ذلـــك ، فهجر الجانب الأول في سبيل الجانب الثاني .

لقـد كانت دفاعاته التجديدية خطأ كبيراً ، وذلك بالمقابلة الجليلة لوطنيته العظيمة . ولهـذا السبب كان من نتائج نشاطه في مصر وتركيا وايران ، لا شيء سوى قيـام القوميات الضارة تحت تفشي النوع من الزعامات الانتهازية المنحطة اخلاقياً . والتي كان دائمـــاً يشجبها بقوة ، رغم أنه لم يأل جهداً في أن يؤكد ضرورة توحيد جميع المسلمين تحت خلافة واحدة عالمية . فـإنه حث المسلمين على اتبـاع الإسلام لتحقيق القوة السياسية ، والازدهار الاقتصادي والتفوق العلمي والفني هو تجديف محض على الله . ومن المؤكد ان النهضة الإسلامية تشمل هـذه المكاسب الدنيوية ، ولكنها ليست ولا تجب أن تكون ، الأهداف الكلية للمسلم الحق ، الذي يجب أن يكون همه الأول هو النجاة في الدنيا والآخرة . إن تأكيد الافغاني الدائم على الاسلام كأداة للنجاح الدنيوي كان مادياً صرفاً بلا شك . وعلى النقيض من ذلـــك فقد أنتج ذلك تزايد جميع الميول البشعة المتفشية في كل العالم الاسلامي في الوقت الحاضر ، والتي جاهد بكل قوته ليصدها .

السيد محمد رشيد رضا
ومجلة المنار

كان السيد محمد رشيد رضا أخلص تلاميذ الشيخ محمد عبده وأبرزهم ، وكان مؤرخ حياته وأوثق شارح لتعاليمه . وُلد في قرية القلمون في سوريا حوالي سنة ١٨٦٥ . وكانت عائلته من تلك العائلات التي تدّعي نسبها إلى الرسول الكريم ﷺ مباشرة . ولقد تمتعت الأسرة بشهرة محلية كأكثر أسرة مثقفة متعلمة في محيطها ، متعصبة لأمور العقيدة ، إلى جانب حوزتها لمكتبة تضمُّ الكثير من الكتب الإسلامية القيّمة. ولقد كان أحد أجداده ، هو الذي بنى مسجد القرية. وكان البيت الذي وُلد فيه رشيد رضا ، وأنفق فيه أيام طفولته ، بعيداً عنه بضع خطوات . وأبعد ذكرياته المبكرة كان ذلك الأثر الشديد ، الذي تأثر به من المؤذن ، الذي كان له صوت جميل. حتى أن نصارى القرية كانوا يتوقفون عن أعمالهم لينصتوا إلى الأذان مأخوذين .

بدأ رشيد رضا دراسته في مدرسة مسجد القرية ، حيث تعلم تلاوة القرآن ، والقراءة والكتابة ، والحساب البسيط . وكان رشيد رضا رقيقاً للغاية لدرجة لم تمكنه اللعب كثيراً مع باقي الأطفال . وعلى النقيض من الشيخ محمد عبده ، الذي كان في أيام شبابه مولعاً بالألعاب الرياضية ، وخيّالاً وسبّاحاً ماهراً . ولذلك

كان يقضي جُل وقته وحيداً مع كتبه . وبعد أن أتمّ تعليمه الابتدائي ، وضع له والداه معلماً خاصاً لدراسة المواضيع الإسلامية الأكثر توسعاً ، وأرسل في السابعة عشرة من عمره إلى طرابلس للدراسة العالية .

وفي أثناء تتلمذه ، كان كتاب الغزالي (إحيـاء علوم الدين) أحب الكتب إليه . فكتب عنه بعد ذلك في مذكراته : « لقد دخل رأساً إلى قلبي » . ولكن جريدة « العروة الوثقى » هي التي غيّرت مجرى حياته . تلك الجريدة التي كانت تدعو المسلمين في كل أقطار الدنيا ليتّحدوا ضد خطر الاستعمار الاوروبي ، وأن يُعيدوا العالم الإسلامي لسابق عظمته . وكانت الجريدة تحرّر في باريس ، يحررها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمـد عبده ، اللذان كانا منفيين هناك . وحدث أن سمعها تُقرأ صدفة ذات مساء ، بصوت مسموع ، على جمع من أصدقائه ، على النور الخافت لمصباح الغاز . ولقد فُتن الطالب الشاب بصرختها العالية في سبيل نهضة إسلامية ، لدرجة أنه لم يهدأ له بال حتى عثر في بيت أحد أصدقاء والده على مجموعة كاملة لها ، حيث قرأ كل عدد منها بحماس متّقد ، من ألفه إلى يائه .

وما أن أتمّ دراسته في طرابلس وحصل على شهادة « عالِم » سنة ١٨٩٧ ، حتى صمم على الذهاب إلى استانبول لينضم إلى الشيخ جمـــال الدين الأفغاني في كفاحه لبعث إسلامي ووحدة إسلامية شاملة ، ضد قوى الاستعمار الاوروبي . إلا أن وفاة الأفغاني في تلك السنة نفسها أودت بهذه الخطط . وحتى لا يتخلف السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة الجديدة في الحياة ، فقد وضع العزم بعد ذلك ، بموافقة والديه ومساندتها ، على الذهاب إلى القاهرة ليلازم الشيخ محمـد عبده ، كتلميذ له . لقـــد كان شديد التأثر بشخصية محمد عبده المحببة وسلوكه الرفيع ومثله . وهكذا استمر التعاون بين الأستاذ وتلميذه بإلفة متزايدة ، إلى أن توفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ ، تاركاً السيد رشيد رضا ليحمل العبء وحيداً .

وبعد أن منعت « العروة الوثقى » من قبل البريطانيين عزم السيد رشيد رضا على الشروع في مجلته الخاصة « المنـار » . فصار يصدرها في البداية سنة ١٨٩٧

أسبوعية . ثم ما لبثت أن أصبحت شهرية تحاول إبقاء نفس المثل « كالعروة الوثقى » عدا إثاراتها السياسية اللاهبة التي لم تعد ممكنة بعد ، تحت الحكم البريطاني . وكان الطابع المميز الخاص لها ، هو ذلك الباب المخصص لشروح الشيخ محمد عبده للقرآن الكريم وفتاويه الشرعية . ومع أن الشيخ رشيد رضا كان يكتب أكثر الكتابات في المنار ، إلا أنه كان من بين المساهمين في كتابتها بعض أصحاب أكثر الأقلام شهرة في مصر والبلاد المجاورة ، من أمثال الأمير شكيب ارسلان ، وفريد وجدي ، وكذلك الكثير من المؤيدين لها في كل بقاع العالم الإسلامي .

لقد أراد السيد رشيد رضا في مطلع حياته أن يطبق نفس البرنامج الإسلامي كما وضعه أستاذه . والذي ينطوي على :

١ – تنقية الإسلام من التأثيرات الفاسدة وبخاصة المعتقدات الخرافية والزيادات التي وضعتها مختلف الطرق الصوفية .

٢ – إصلاح الثقافة الإسلامية العالية بجعلها ملائمة للعصر الحديث .

٣ – إعادة شرح المبادىء الإسلامية في ضوء الفكر الحديث .

٤ – حماية الإسلام من النفوذ الأوروبي والهجوم النصراني .

وبينما كان الهم الأول للشيخ محمد عبده في البند الثالث فإن السيد رشيد رضا ركز اهتمامه الشديد على البند الرابع . ولقد جرّ هذا الاختلاف في الاهتمام إلى اختلاف متزايد في وجهات النظر بين الأستاذ وتلميذه .

لقد آمن الشيخ محمد عبده أن ألدّ خصوم الإسلام هم أولئك المبشرون النصارى الأوروبيون ، الذين شجبوا العقيدة ، وجعلوها مسؤولة عن الأحوال المتأخرة في مصر والبلدان الإسلامية الأخرى . ولكن بما أن هذه الاتهامات نفسها ضد الإسلام قد أصبحت في ذلك الوقت جزءاً متمماً لعقلية المصريين المثقفين

بثقافة الغرب ، فلذلك أصبح السيد رشيد رضا يعتقد أن أول واجب عليه هو التصدي لذلك الخطر من الداخل .

كتب نداف صفران في « مصر تبحث عن مجتمع سياسي » يقول :

« وبالطبع لقد نظر « رضا » ورجال المنار نظرة عدم رضا ملحوظة إلى الحركات القومية الحديثة بين المسلمين. ولقد سلكوا كذلك لأكثر من سبب، فكان « رضا » من المفكرين المسلمين القلائل في مصر الذين رأوا في وقت مبكر، وبكل وضوح، الخطر المحدق بالعقيدة الإسلامية من القومية. ولم ينقطع أبداً عن شجب الأوجه الأيديولوجية في القومية التي شاعت في مصر وأقطار عربية أخرى في نهاية القرن (التاسع عشر) فقد قال « رضا » أنه لا شيء أخطر من رغبة المثقفين بثقافة الغرب القوميين ، في استبدال الاستقرار والترابط الاسلامي بالتفاخر القومي والعرقي. وهذا بالنسبة إليه، لم يكن منبعاً جديداً للفرقة فحسب بل شيئاً يقرب من الردة . فكتب يتهكم بهم: « إنهم يعدّون المسلم والعربي غريباً أو أجنبياً عنهم إذا لم يكن من نفس البلد مثلهم . وهكذا فالشريف من الحجاز أو سوريا لا يفضّل عندهم عن الوثني من الصين». ثم يكمل جداله معهم بقوله: « وحتى بمنطقهم هم أليس من السخف أن يراد تحطيم جميع ما يشكل أصالة الأمة وشعاراتها بالجري الدنيء وراء المثل الغربية ؟ » .

وعندما أطاح « الشبان الأتراك » بعهد السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، هاجمهم السيد رشيد رضا على أنهم لا يعدون أن يكونوا جماعة من الملاحدة ، تحت سيطرة الماسونية الفرنسية . وكان عنيفاً كذلك في شجب إصلاحات مصطفى كمال أتاتورك ، وبالأخص حملته على اللغة العربية ، على أن ذلك كفر صريح وردة . وعندما نشر الشيخ علي عبد الرازق مقالته المطولة سنة ١٩٢٥ ، والتي قال فيها « أن الخلافة ليست في الحقيقة جزءاً من الاسلام » وحث مصر على أن تصبح دولة دنيوية قومية محضة ، كما فعلت تركيا ، وكذلك عندما وضع الدكتور طه حسين كتابه المثير للجدل في الشعر الجاهلي ، الذي حاول به أن

يرمي بالشك حول موثوقية القرآن والسنة ، فصار الشيخ رشيد رضا أول ناقد لهذه الكتابات في البلد ، ويهاجمها بقسوة في أعداد المنار على أنها بدع .

وفي هذه المرحلة من حياته ، اتضح للسيد « رشيد رضا » أن المغالطات في حجج سيده التبريرية كانت ، إلى حد بعيد ، مسؤولة عن تلك الحالة . ومع أن السيد رشيد رضا لم ينتقد سيده المحبوب مباشرة بسبب ارتباطه العاطفي به ، إلا أنه بمرور الوقت تباعدت آراؤه عن آراء الشيخ محمد عبده ، حتى أن الأول لم يعد يحمل أي تشابه للثاني .

وكان أكبر عيب وجده في تعاليم أستاذه ، هو تكذيبه لأسانيد أكثرية الحديث ، مدّعياً – أي أستاذه – أن إعادة شرح القرآن الكريم في ضوء العقل الحديث هو الإسلام الوحيد الصحيح . وأدرك رشيد رضا أن هذه التعاليم لأستاذه كانت الضربة القاضية لأي آمال في نهضة إسلامية ، إذ أنها زوّدت المثقفين بثقافة الغرب من أهل البلد ، بكل التبريرات التي يريدونها للتلاعب بالقرآن والحديث كما يشاؤون . وهكذا فقد أنكر رشيد رضا كل الفلسفات الدنيوية ، وأصرّ على أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يجب أن يُقبَلا حرفياً دون جدال .

وبعد تدمير الدولة العثمانية بالحكم الجمهوري في تركيا ، حوّل السيد رشيد رضا اهتمامه إلى إعادة الخلافة . وكان من أبرز أعضاء الوفود في مؤتمر مكة الإسلامي العالمي سنة ١٩٢٦ الذي عُقد من أجل هذا الغرض نفسه . وفي ذلك الوقت ، ظنّ أن حكم الملك ابن سعود كان يمثل أزهى أمل للاسلام الناشيء . وبالتالي صار ينجذب أكثر فأكثر إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل كما كان يشرحه العلاّمة ابن تيمية ، والمصلح العربي محمد بن عبد الوهاب .

كان أوضح فرق بين الشيخ محمد عبده وتلميذه ، هو موقف كل منهما الخاص بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة . فالشيخ محمد عبده كان معجباً شديد الحماس لأوروبا وثقافتها . وكان يتلذذ برحلاته لفرنسا وبريطانيا ، ويعزز صلات

صداقته بالشخصيات الاوروبية البارزة ، ويصرّ في كل أيام حياته على وجوب إعادة شرح الإسلام في ضوء الفكر الحديث . وبالمقـــابل لذلك ، فإن السيد « رشيد رضا » لم يكنّ للغرب إلا أشد الكراهية والعداء . ومع أنه ذهب إلى اوروبا ليدافع عن قضية سوريا ضد العدوان الاستعماري الفرنسي أمـام عصبة الأمم في جنيف ، إلا أن رحلاته للغرب كانت تمليها الضرورات الملِحّة . وعلى النقيض من أستاذه ، كان يتجنب تقريباً ، كل الصّلات الاجتماعية بالاوروبيين.

ولأن آماله في إعادة الخلافة ،أو حتى في نشوء دولة إسلامية صحيحة تؤسس على الشريعة كقانون للبـــلاد ، قد فشل تحقيقها ، فكذلك أثره ، على أحسن الأحوال، كان يبدو محدوداً في بعض المثقفين. فإن غالبية الملاحظين له ، مسلمين وغير مسلمين على السواء ، قد انتهوا ، خطأ ، إلى أن جهد السيد رشيد رضا كان فشلاً تاماً .

« كان في مذهبه التعديلي جسارة لم يستطعها المحافظون ، وفي تعصبه الديني جفـافاً لم تقدر عليه الجماهير البسيطة ، وفي قيوده صلابة لم يقوَ عليها المثقفون بثقافة الغرب . ولقـــد أخذ مركزه في الضعف ، حتى أن وفاته سنة ١٩٣٥ مرّت دون أن يلاحظها أحد تقريباً». (كتاب مصر تبحث عن مجتمع سياسي).

ولكن الأمور لم تكن مخيبة كما أرادت لنا النبذة الأخيرة أن نعتقد . ففي وسط كل النزعات المثبطة التي كانت تجري في مصر لتعيق نجـــاح رسالة الشيخ رشيد رضا ، فإن واحداً من أكثر الملازمين انتظاماً من حلقـة أصدقائه ومساندبه ، كان شاباً موهوباً يفيض حمـاسة للاسلام ، كان اسمه الشيخ حسن البنّا ، والذي أصبح فيما بعد مؤسس « الإخوان المسلمين » ، أكثر حركة ثار حولها الجدل في دنيا العرب . لم يكن واحداً غير الشيخ حسن البنا ، الذي أخذ على عاتقه نشر مجلة المنـــار وتحريرها ، بعد موت السيد رشيد رضا . ولم يكن واحداً غير الشيخ حسن البنا الذي أحيا الجوانب الأساسية العظمى من برنامج رشيد رضا ، بنشاط كبير ، مثبتاً بذلك أن حياته لم تذهب سُدى .

الشيخ حسن البنا

في سنة ١٩٠٦ وُلد في بلدة المحمودية في مصر طفل قُدر له أن يصبح أقوى منافح عن الاسلام عرفه العالم العربي في التاريخ الحديث هو الشيخ حسن البنا .

نشأ حسن البنا في بيت من التقوى حتى أنه كثيراً ما كان يقول: « الاسلام أبي ولا أب لي سواه » . ولم يكن والده الحقيقي بأقل منه انغماساً في العلم والتقى . فكان تاجراً ساعاتياً ماهراً. فدرّ عليه ذلك رزقاً حسناً لنفسه ولأسرته . فكان يعمل في الليل . وفي أثناء النهار يكون إماماً للمسجد المحلي ، حيث كان يعظ ويعلم. وكان يصرف وقت فراغه في مكتبته. وكان يجد متعته في الفقه الاسلامي. وكان لموطأ مالك ، ولمسند الشافعي ، مكانة بين ما أحب من الكتب . ووضع شرحاً لمسند أحمد. وكان والد حسن البنا معلمه أيضاً ، حيث حفظ القرآن كاملا تحت إشرافه . وعندما كبر الولد قليلاً أطلق والده يده في مكتبته ، وشجعه أن يقرأ ما يريد مما جمعه . وهكذا فقد تثقف حسن البنا على يد والده ثقافة إسلامية خالصة . وكان إتقـــانه للغته القومية العربية فائقاً . ولم يتعلم أبداً لغة سواها .

لقد تكشفت حماسته للإسلام وعبقريته في القيادة في وقت مبكر . فعندما كان طفلاً نظم حسن البنا وأخوه « جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ». وقد كتب بنفسه بياناً، طبع يدوياً ، يعظ الرجال لئلا يلبسوا الخواتم الذهبية،

والملابس الحريرية وقد ألصق هذا البيان على أبواب المساجد، كما وزع على أشراف البلدة . وفي سن الثانية عشرة نجد الفتى البنا يؤم صلاة الجماعة في المسجد. ويرفع الأذان على المئذنة. ويذهب في الفجر من بيت إلى بيت، يقرع الأبواب والنوافذ، ليوقظ الناس، ويدعوهم للصلاة. وأخذ على عاتقه حتى إيقاظ المؤذنين . وكان يصوم من أيام رجب وشعبان بالاضافة إلى شهر رمضان. وكان يدأب على قراءة القرآن في البيت والمدرسة والشارع .

وعندما بلغ السادسة عشره من العمر قرر والده أن يسجله في دار العلوم . وهي مدرسة لتخريج المدرّسين . وقد صدم ، عندما وصل القاهرة ، بالانحطاط الخلقي الذي شاهده ، وعدم المبالاة بالاسلام. وبينما كان حسن البنا في دار العلوم طالباً وضع طه حسين كتابه الهرطقي في الشعر الجاهلي ، الذي حاول أن يرمي الريبة حول موثوقية القرآن والحديث . وكذلك نشر الشيخ علي عبد الرزاق كتابه المماثل المفضوح « الاسلام وأصل الحكم »، الذي يحث فيه المسلمين على اتخاذ حكم دنيوي . ولقد رفع سيل من الصحف والمجلات شعارات مثل « مصر قطعة من أوروبا » . وكان القوميون في نفس الوقت يحثون مواطنيهم على الرجوع إلى أيام الفراعنة ، من أجل بعثهم الثقافي. والصيحات المطالبة بتقليد مصطفى كمال في فرض ثقافة الغرب بالعنف والقوة أخذت تتعالى ولم تنقطع أبداً .

ولقد أحزن قلب حسن البنا أن يرى أكثر الرجالات احتراماً ونفوذاً في مصر تنضم إلى الدّاعين إلى التجديد ، وتقود الناس إلى الضلال .

ولقد راح مكتئباً ينشد العزاء في صحبة السيد رشيد رضا وتلاميذه. وكان في ذلك الوقت أن بدأ يفكر في حركة منظمة عظيمة ، تدمر الوثنية الحاضرة وتبعث في مواطنيه حب التمسك بالاسلام ، كدين لا يعلى عليه، في كل جزئية من الحياة الخاصة والعامـة . وعندما سئل طلبة الصف المنتهي في اختبارهم النهائي في الانشاء أن يكتبوا عما في أذهانهم مستقبلاً كتب حسن البنا يقول :

« سأكون مرشداً ومعلماً ، إذا قضيت في تعلم الأبناء سحابة النهار ومعظم

العام ، قضيت في تعليم الآباء هدف دينهم ، ومنابع سعادتهم ، ومسرات حياتهم تارة بالخطابة والمحاورة ، وأخرى بالتأليف والكتابة ، وثالثة بالتجول والسياحة . ولقـــد أعددت لتحقيق الأولى معرفة بالجميل وتقديراً للاحسان .. ولتحقيق الثانية من الوسائل الخلقية : الثبات والتضحية . وهما ألزم للمصلح من ظله ، وسر نجاحه كله . ومن الوسائل العملية درساً طويلا .. وتعرفاً بالذين يعتنقون هذا المبدأ ، ويعطفون على أهله . وجسماً تعود الخشونة على ضالته . وألف المشقة على نحافته . ونفساً بعتها لله صفقة رابحة ، وتجارة بمشيئته منجّية .. وذلك عهد بيني وبين ربي . أسجله على نفسي . وأشهد عليه أستاذي . في وحدة لا يؤثر فيها إلا الضمير . وليل لا يطلع عليه إلا اللطيف الخبير . ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

تخرّج حسن البنا من دار العلوم سنة ١٩٢٧ ، وهو في الحادية والعشرين . وكان طالباً لامعاً والأول في فصله .

وبعد عدة أشهر من انتقاله إلى الاسماعيلية ، حيث عين مدرّساً في مدرسة الحكومة الاعدادية ، أسس رسمياً جمـاعة الاخوان المسلمين ، بمعاونة ستة من أتباعه وتلاميذه المخلصين . وقد اعتاد أن يزور أكبر المقاهي حيث كان يلقي المواعظ الحية عن أهوال جهنم ونعيم الجنة . وكان صوته المؤثر كافياً لينهض أشد مستمعيه سباتاً . وكان من عادته أن يمضي أمسياته المبكرة في الصلاة في زاوية للصوفيين قريبـة ، قبل أن يرجع إلى المقهى ليكمل خطابه وتعاليمه في جوف الليل . وفي خلال العطلة الصيفية كان يسافر مشياً على الأقدام ، وفي عربات الدرجة الثالثة المزدحمة ، ذات المقاعد الصلبة المخلعة ، من أقصى مصر الى أقصاها . ولم يكن يمر أبداً ببلدة أو قرية ، أو حتى أفقر ضيعة ، دون أن يزورها ويمضي فيها ليلة ، ويعظ الناس في بيوتهم وفي المساجد .

لقد كان الشيخ حسن البنا مهيئاً لهذا العمل لدرجة عظيمة . فلم يكن يتمتع بذكاء حاد فحسب ، بل كذلك بجسم قوي ممتاز . وعلى الرغم من قصر قامته ،

إلا أنه كان مثال الرجولة المتدفقة. فكان في كل أيام حياته ينعم بصحته المشرقة الوافرة . وبنشاط، ومقدرة على احتمال المشاق لا تنفذ . ولا شيء يهز أوتار قلب العربي أكثر من الكلام الفصيح . وكان حسن البنا يملك هذه الموهبة في أعلى درجاتها . فكان يجتمع إليه العمال الأميون، والمشايخ والعلماء على السواء ، بحرم بقوة خطاباته القوية وشخصيته الجذابة .

وفي سنة ١٩٣٣ نقل حسن البنا المركز العام للاخوان المسلمين من الاسماعيلية إلى القاهرة . وفي السنوات الثلاث التالية ، ركزت الحركة نشاطها حول تثقيف الناس ليعيشوا حياة إسلامية ، وتأسيس عدد من المساجد والمدارس ومراكز الرعاية الاجتماعية في كل بقعة في مصر.وهكذا أصبح الشاب، الذي كان لسنوات قليلة يوقظ المؤذنين ، يوقظ البلاد بكاملها . فكان ما تمّ على يديه مما لا يستطيع حتى أجل علماء الأزهر أن يعمله. ففي مدينة كالقاهرة ، حيث زاد النفوذ الوثني لدرجة أن المسلمين أصبحوا يتضايقون من تأدية صلاتهم في الأماكن العـامة ، وحيث كان طلبة المدارس يتعلمون امتهان ذكر الإسلام ، في مدينة كهذه أفلح الشيخ حسن البنا في تغيير حياة المئات من المثقفين بثقافة الغرب ، والذين أصبح بعضهم فيما بعد أخلص تلاميذه .

كانت حركة الإخوان المسلمين حركة مركزية محكمة . حيث كان مؤسسها يتمتع بكامل المسئولية . ولم يطمع أبداً في أي ملك مطلق السلطة ، ولم تؤد له الطاعة الآنية، التي لا تسأل، والاخلاص والوفاء الذي ناله حسن البنا من أتباعه. وعندما استوثق حسن البنا أن حركة الإخوان تطورت تطوراً كافياً ، وأصبح لها نفوذ كاف، عزم على تطبيق برنامجه على المستوى الوطني. كان غرضه الاصلاح الشامل للمجتمع المصري على أساس الامتثال التام للشريعة .

لقد استرعى الاخوان انتباه الحكومة لأول مرة عندما بدأ الشيخ حسن البنا يوجه إلى الملك ، سنة ١٩٣٦ ، خطابات . وكذلك إلى أكبر الوزراء في البلاد ، يحثهم فيها على طرح طرق العيش الغربية ، وإطاعة الشرائع الاسلامية . وكان

يطلب منهم أن يكونوا قدوة للشعب المصري ، بحظر اختلاط الرجال والنساء ، وشرب الخمر في الوظائف الرسميـة ، والترفع عن زيارة بيوت القمار ، وحلبات السباق ، والأندية الليلية ، ودور السينما . وأن يمتنعوا عن نشر صور زوجاتهم وبناتهم في الصحف. وأن يؤدوا صلواتهم الخمس اليومية . وأن يتكلموا في بيوتهم العربيـة بدلاً من الانجليزية والفرنسية . وأن يترفعوا عن استئجار المربيات الأوروبيات لأبنائهم ، أو إرسالهم إلى المدارس الأجنبية .

ومن بين كل جوانب الحركة المتعددة ، كان الشيخ حسن البنا مهتماً أشدّ الاهتمام بتثقيف الجيل الناشىء . ففي مناسبات عدة وجه إلى الحكومة النداءات لإعادة تنظيم المدارس على أسس الاسلام ، ولتمنع التعليم المختلط ، لتأخذ بعين الاعتبار ضرورة إعداد البرامج التعليمية المختلفة للبنات وللأولاد .. وكان يريد على الأخص تشجيع متابعة الدروس الطبيعية خالصة مـا تحتويه من الأفكار المادية . وذلك كي تتمكن مصر من الاستفادة التامة من كل أنواع المعرفة المفيدة دون النتائج الضارة .

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ، أصبح للإخوان المسلمين تأثير كبير في مصر حتى أنهم كانوا في الواقع يشكلون حكومة داخل حكومة . فقل إن خلت مدينة أو بلدة من واحد أو أكثر من الفروع . ولقد أوجد البنا نظاماً تعليمياً كاملاً شاملاً من وضعه الخاص . ولقـد ملأت مدارس الاخوان ومساجدهم ومراكزهم الاجتماعية ومشاريعهم التجارية المزدهرة البلاد . وصارت صحفهم ورسائلهم ومجلاتهم و كتبهم تتمتع بتداول متزايد . وبدأ نفوذ الاخوان في تلك الآونة يمتد خارج حدود مصر إلى البلاد المجاورة ، التي أخذت تتطلع إلى البنا تطلعاً متزايداً للاسترشاد . فأسست الفروع في سوريا ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين ، ومراكش والسودان . ولقد تحقق الشيخ حسن البنا ، كسلفه جمال الدين الأفغاني ، أنه لا يمكن لمجتمع اسلامي أن ينمو في ظل السيطرة الأجنبية المعادية. فنادى بإعلان الجهاد للنهاية ضد الاستعمار البريطاني السياسي والاقتصادي

وطالب أن ترفع بريطانيا سيادتها عن قناة السويس . ولقد أبغض الصهيونية ، وكل ما تمثله الصهيونية ، كراهية عميقة بكل مشاعره . وأقسم أن يجاهد ضد ذلك الخطر لآخر نفس في حياته . وفي الحرب ضد اسرائيل سنة ١٩٤٨ ، لم يحارب جيش عربي بالبسالة التي حاربت بها كتائب المتطوعين من الاخوان . ولم يواجه الصهاينة خصماً أقسى وأعند منهم .

وبدأت العصبة الحاكمة تعتبر الاخوان أكبر خطر مدمر . وذلك بسبب نمو شعبيتهم ونفوذهم . وفي سنة ١٩٤٨ خضعت الحكومة للتهديد البريطاني وأعلنت حل الحركة . فزج بالآلاف من الإخوان في السجون . وصودرت ممتلكاتهم . ولم يمر شهران على ذلك حتى اغتيل الشيخ حسن البنا برصاصات في أحد شوارع القاهرة . أطلقها قاتل مجهول .

ولم يثبط من الحركة القائمة للإخوان مثبط حتى مصرع إمامهم المحبوب . فقد استمرت الحركة في النماء والازدهار أشد من ذي قبل . واستمرت في التقدم دون أن يقف في وجهها عائق . إلى أن كانت نهاية سنة ١٩٥٤ . عندما سحقت بنفس القسوة والأساليب اللاإنسانية التي جعلت الدكتاتوريات المستبدة العالم بأجمعه يألفها .

فمنذ نعومة أظفاره إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة وَهَبَ الشيخ حسن البنا كل مواهبه ، وكل تفكيره ، وكل طاقته ، وكل وقته ، وكل ماله . وأخيراً حياته في سبيل الله . لقد بذل حقاً وضحّى بكل شيء يملكه . كان شهيداً بأصدق ما تحمله الكلمة من معنى وأرفعه . بارك الله فيه ، وطمأن روحه ، وخلّد الله ذكراه على مدى الزمان ليكون دافعاً لنا جميعاً .

الاخوان المسلمون

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح للقوى التي تحب التشبه بالغرب في مصر خطر عظيم . وقـد بلغت الفكرة القومية في ديار المسلمين ذروتها بإزالة الخلافة من قبل مصطفى كمال أتاتورك ، وصار للحركة النسائية قوة ذات شأن ، عندما طرحت نساء الطبقة الراقية في مصر الحجاب وتزيين بالزي الاوربي ، وصرن يؤدين الوظائف الاجتماعية المختلطة ، الخاصة منها والعامة ، ويطالبن بحق المساواة في دخول الجامعات بالضبط كالرجال. كان كل ذلك يحدث بينما كان الشيخ حسن البنا يَلقى تدريبه ليصبح معلماً ، وهو في مذكراته يتذكر أيام صباه. وكم سببت تلك الأحداث من الاهتمام والقلق له ولأصحابه . « ليس يعلم أحـد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الامة وما وصلت اليه في مختلف مظاهر حياتها ، وفعل العلل والادواء ، ونفكر في العلاج وحسم الداء ، ونفيض بالتأثر لما وصلنا اليه إلى حد البكاء ، وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة ، والخليون هاجعون يتسكعون على القهوات » .

ويعترف الشيخ حسن البنا في هذه المذكرات نفسها ان فكرة حركته كانت رد فعل عنده لـما لاحظه في القاهرة ، حيث أصبح مدركاً تماماً من جهل الناس بالإسلام . ثم تأكد ان المساجد وخطباء المساجد لوحـدهم لا يكفون . فكان يومياً يشاهد قلة حيلة العلماء التقليديين الذين لم يكن باستطاعتهم عمل شيء لايقاف

المجددين سوى اللعن بالكفر والهرطقة . والأسوأ من ذلك كله فقد اكتشف ، ولخيبة أمله ان من يسمون برجال الدين كانوا في الكثير من المناسبات على أشد الاستعداد للتنازل عن الأصول الإسلامية للتقرب من الطبقات الحاكمة ويتزلفون من الدنيا . ولقد وصل علماء القاهرة أدنى هوة في العار والانحطاط ، عندما وافقوا على فتوى أصدرها شيخ الأزهر تدعو لاعتبار الملك فاروق كمرشح لائق للخلافة لأنه « مسلم ورع ينحدر من اسرة الرسول » .

لقد عقد الشيخ حسن البنا العزم على معالجة هذا الوضع المحزن، فأسس جماعة الاخوان المسلمين بعد تخرجه مباشرة تقريباً سنة ١٩٢٨ . وبينما قصرت الشخصيات الإسلامية المؤثرة كالافغاني، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، أعمالهم على الكتابة والخطابة ، فقد كان غرض البنا منذ البداية تكوين حركة إسلامية شاملة ، تقود الأجيال كلها، وتحمل المثل الإسلامية تطبقها في السياسة والاقتصاد وكل مجالات الحياة الاجتماعية .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين حسنة التنظيم باعضاء ينقسمون إلى مراتب أولى وثانية وثالثة ، مؤازرين وعاملين الذين كانوا لا يرقون إلى مراتب أعلى قبل أن يجتازوا اختبارات معينة . وعندما كان العضو يصبح عضواً عاملاً ، فكان يؤهل لحضور اجتماعات خاصة يرأسها حسن البنا نفسه . ولتسهيل مراقبة الأعضاء العاملين كانوا يقسمون إلى وحدات هي : النواة والخلية فالاسرة فالكتيبة . وإذا إزداد عدد شعبه فإنها ترفع إلى درجة مكتب إداري بمجلس يختار أعضاؤه من قبل « مجلس عام » . وكان المركز العام يزود بتقارير عن سير كل شعبة قبل انعقاد « المجلس العام » بعشرة أيام على الأقل ، حتى تستطيع كل شعبة أن ترسل عنها ممثلاً . وكانت قرارات الجمعية العمومية لأية شعبة تستوجب موافقة المكتب العام . وكان للمركز العام الحق في الموافقة أو عدم الموافقة على افتتاح الشعب الجديدة أو المكاتب الادارية ، وله حق حلها . ولكي يضمنوا سهولة عملياتهم ، فقد وضع المكتب العام في القاهرة هو الشعبة الرئيسية، فكان

يتألف من جمعية تأسيسية تضم ما يقرب من مائة عضو ، ومكتب الارشاد العام باثني عشر عضواً يختارهم البنا من بين الجمعية التأسيسية ، وكان على الأعضاء جميعاً أن يعطوا البيعة أو يمين الولاء على أن يحموا «الاخوان» حتى ولو بأنفسهم . وأن يولوا رؤساءهم ثقتهم وولاءهم ، وأن ينفذوا قراراتهم حتى ولو اختلفوا معهم شخصياً . وفي كل اجتماع كان على كل عضو أن يجـــدد البيعة وأن يردد « سمعاً وطاعة ». وكان أكثر الأعضاء العاملين ثقة اولئك الذين كان يعرف الشيخ حسن البنا تاريخ حياتهم معرفة تامة ، وكان على كل واحد منهم أن يحتفظ بيوميات عن نشاطاته ، بما في ذلك تقدمه في حفظ القرآن الكريم ، ومواظبته على الصلوات الخمس ، وكان يطلب من الأعضاء دراسة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأصول الفقـــه الاسلامي . وكانوا يدربون على الأسلحة المختلفة ، والاسعافات الأولية ، وعند الانتهاء من دراساتهم كانوا يختبرون فـيما تعلموه . وكان مؤتمر من رؤساء الشعب يعقد كل سنتين بطلب الشيخ البنا .

وكان البنا في كتاباته ينصح تلاميذه بلزوم قواعد معينة ، فكان أولاً وقبل كل شيء لا يريد للاخوان أبداً أن يكونوا ميداناً للمجادلات الدينية ، وكان في ذلك يعمل بنصيحة شيخ طريقة صوفية أعجب بـه عندما كان طالباً ، والذي كان يحذر تلاميذه من المناقشة في الأمور التافهة ، أو تقرير مجادلات أهل الردة والملاحدة والمبشرين النصارى في الأماكن العامة . « اعملوا هـــذه الأعمال في اجتماعاتكم الخاصة ، وابحثوها فيما بينكم وبين أنفسكم » ، أما بالنسبة للعامة فيجب استعمال الكلمات المؤثرة أمامهم والتي تدعوهم إلى طاعة الله . أمـا الأمر الثاني فإن الشيخ حسن البنا كان دائمـاً يستريب في نوايا الشخصيات البارزة الذين كانوا يطلبون الانضمام إلى حركته ، لأنه كان دائماً يظن أنهم يريدون الثروة والمكاسب الدنيوية فقط لاشخاصهم . وكانت كتابات الشيخ حسن البنا ومؤيديه تؤكد ضرورة عملية النمو والتطور التدريجية في الحركة ، والتي كان يجب عليها أولاً أن تكسب تأييداً شعبياً قوياً لمبادئها قبل تسلم زمام السلطة . وكان الاخوان

ينشدون السلطة لتطبيق برنامجهم المستمد من القوة الصافية للعقيدة والدين ، ومن وحدة أعضاء الجماعـة ومؤازريها وتماسكهم ، وكانوا يصرون على استعمال القوة في الأحوال التي لا يجـــدي غيرها فقط . وكان حسن البنا في مقالاته وكتاباته ينفي بكل تأكيد أن حركته تريد ثورة أو انقلاباً ، كما لم تؤمن الحركة أبـــداً بجدوى أمثال هذه الطرق .

وكان من بـين النشاطات الرئيسية للحركة اهتمامها الفائق بالثقافة وبافتتاح المدارس في مختلف الأنواع . ولقد وجـه الاخوان في مناسبات عديدة نداءات للحكومة لتحصر نفسها في التعاليم الدينية في المدارس العامة . وفي تعليم الناشئة المثل الاخلاقية العليا ، والاعتزاز بتراث الماضي الاسلامي للأمـــة ، واعداد المختصين في كل ميادين العلم لتزويد النهضة الاسلامية في مصر بأسس قوية ، وكانوا يطالبون بتوجه الاهتمام الخـاص في البرنامج الثقافي الدراسي للتاريخ الاسلامي ، والتاريخ الوطني . والمدنية الاسلامية بوجه عـام ، وجعل التعليم الديني إجبارياً في المستوى الجامعي كذلك ، كما طالبوا باقصاء اولئك الذين يعرفون بفسادهم الخلقي والتنكر لدينهم ، والذين لا يخلصون في تكريس جهدهم لخدمة بلادهم من وظيفة التعليم ، كما طالبوا بمنع التعليم المختلط .

ولقد ساهم الاخوان بنشر الثقافة بقسط وافر ، فقد أوجدوا في المركز العام لجنـة لتأسيس المدارس المنفصلة ، الابتدائية والثانوية والفنية للأولاد والبنات ، والتي تميزت عن جميع المعاهد الخاصة بطابعها الاسلامي القوي ، كما افتتح الاخوان المسلمون عدداً من المدارس لمحو الأمية للعمال والفلاحين ، ومدارس نهارية لتحفيظ القرآن الكريم ، وليلية لتعليم الكبار الذين لا فراغ عندهم لحضور المدارس النهارية ، كما كانوا يعقدون الدورات الخاصة ، يشرف عليها مدرسون يعدهم طلبة الجامعات ، للطلبة الذين يفشلون في الامتحانات العامـــة ، ومدارس « امهات المؤمنين » لتدريب البنات . وقـد كان حرص الاخوان القوي على ضرورة نشر الثقافة حتى انه لم تكن هناك شعبة دون مدرسة خاصة .

ولقد شارك الاخوان بحماس شديد في كل مجـــالات النشاط في الخدمات الاجتماعية ، فأوجدوا جمعية لرفـــع مستوى المعيشة في القرى المصرية واصلاح الريف . ولقد أنشأ أحد الاخوان مزرعة نموذجية في أرضه . وفي قرية أخرى انشئت أربع مقابر للمعدمين ، كما قـام الاخوان في قرية أخرى كذلك باطعام مائتين مسكين طيلة أيام شهر رمضان المبارك ، وتنافست شعب الاخوان فـــيما بينها في اطعام الفقراء ، وانارة القرى ، وجمع الزكاة في رمضان ، وعمل البعض منهم كمحكمين في المشاحنات التي تحدث في القرى ، حتى ان أحـدهم أشرف على احصاء للأطفال المشردين والمساكين ، كي يهيء لهم وظائف تناسب أعمـارهم ، وليساعد العجزة واللقطاء الذين ليست لهم وسائل للعيش .

كما أنشأ الاخوان المساجد في كل أنحـاء البلاد ، وكان من بينهم من يشارك في تقـــديم الأرض التي يبني عليها المسجد ، ويتبرع الباقون بنفقات البناء ، وكان لأكثر الشعب مساجدها الخاصة .

كما اهتم الاخوان أيضاً بالصحة العامة ، وأسسوا لهـذا الهدف المستشفيات والمستوصفات في كثير من الأماكن لمداواة المرضى ، وفي الفترة التي بلـغ نشاط الاخوان ذروته ، قام مستوصف الاخوان في طنطا لوحدها بمعالجة عـدة آلاف من المرضى في السنة الواحدة .

وكان الاخوان نشيطين في ميدان النشر ، وذلك لنشر مبادئهم . ولقـــد أصدروا جريدة يومية وأكثر من ست مجـــلات ، كان من بينها المنار الشهرية ، والتعارف ، والشعاع ، والنذير ، والشهاب، والمباحث ، والمسلمون الاسبوعيات ولقد تمتعت جريدتهم اليومية بأوسع تداول من بين منشوراتهم . ذلك أنها كانت تشرح أهدافهم كما يلي :

تطبيق تعاليم الاسلام بصورة تتفق مع العصر الحاضر لاثبات ان الاسلام هو خير دين وطريقة في الحياة ، ودحض الافتراءات الموجهة اليهم ، والتوفيق بين وجهات النظر لجميع مدارس الفكر المختلفة في الاسلام، وذلك لتوحيد المسلمين،

وكانت كتابات الشيخ حسن البنا اليومية تنشر في الأماكن البارزة في الجريدة ، وهي مقالات ذات فصاحة قوية ، مليئة بالاستشهادات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي القديم . وكانت رسائلهم تحمل عناوين مثل : « منهاج الاخوان » « تطورات الفكرة الاسلامية وأهدافها » « وكيف ندعو الناس» «ونحو النور» «وأهدافنا ومبادئنا» « وإلى أي شيء تدعو الناس » «ودعوتنا» «وبين اليوم والأمس» « ورسالة الجهاد » «وإلى الشباب» و«الاخوان المسلمون تحت راية القرآن » « وواجبات الأخت المسلمة » « ومنهاج التربية الروحية » وصدرت كتب للاخوان تحت هـذه العناوين « الاخوان المسلمون في ميزان الحق» «وقضايا العالم الاسلامي» «فلسطين وشمال أفريقيا» «انهيار الحضارة الغربية والاسلام يزحف » كما نشر الاخوان مجموعات من أهم المقـالات التثقيفية والرسائل ، والمذكرات للشيخ حسن البنا ، وكل هذه المنشورات للاخوان كانت تتمتع بشعبية واسعة لا في مصر وحدها بـل في كل الاقطار التي تتكلم العربية ، ولم تنجح أية حركة إسلامية في العالم العربي في العصر الحديث في إيجـاد حماس مماثل للمبادىء الاسلامية ، كما أنـه لم تتميز أية حركة بانتاج أدبي نشط كهذا لكتاب متفرغين في حجم هؤلاء الرجال والنساء .

وقد اشتملت حركة الاخوان على النساء منذ بدايتها الأولى. وقد كان لشعب الاخوات المسلمات نفس المبادىء كشعب الرجال، إلا أنها كانت تكيف بما يلائم احتياجات المرأة ، وذلـك لرفع النساء إلى أعلى مستويات الشرف والفضيلة والعفاف ، وكانت نشاطات الأخوات المسلمات تتركز في ميادين التعليم والخدمة الاجتماعية على أسس المبادىء الاسلامية .

وكان من أبرز ميزات جماعـة الاخوان إصرارهم الدائم على الأهمية العظمى للجهاد . لقد نادى الاخوان للجهاد كما يفهمه المسلمون على الدوام دون أية ممالأة لأقوال التجديديين ، ولقد نادى الاخوان بأن عبادة المسلم ليست بذات جدوى ان لم يكن معداً للدفاع عن عقيدته بحياته ، دون انتظار مكسب دنيوي ، بل

مدفوعاً بحبه لله والآخرة فقط ، ولقـــد عزز الاخوان المسلمون مبادىء الجهاد بتشجيع جميع ألعاب القوى والتمارين المقوية للأجساد للشباب في الاعـــداد العسكري ، وفي الاهـــتمام الزائد بالحركة الكشفية ، وبمحاولتهم أخيراً إيجاد جيش خاص لهم لحماية أنفسهم عند الحاجة . ولقد كان الشيخ حسن البنا مراراً وتكراراً يشجع مواطنيه لاعـلان الجهاد ضد البريطانيين وطردهم من البلاد إلى الأبد . وكان لا يتساهل بأيـــة تنازلات في هذه المسألة ، كما لم يكن يثق في المفاوضات والمؤتمرات السلمية التي لا تؤدي إلى شيء . ففي خـــلال الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ أثبتت كتائب المتطوعين من الاخوان أنهم أقوى المحاربين وأشجعهم في الجانب العربي . وعندما وافقت هيئة الأمم رسمياً على إنشاء دولة صهيونية في فلسطين طلب الشيخ حسن البنا في جريدته «الدعوة» من جميع الدول الاسلامية أن تنسحب في الحال من هيئة الأمم وتتوحد للجهاد ضد اليهود .

لقد كانت الشجاعة لدى البنا ومؤيديه وحدهم للوقوف والاعلان عن ايمانهم بصراحة بـأن الاسلام هو الحل الوحيد لكل الشرور التي أقلقت الأمة . وكان هدف الاخوان الأول هو إنشاء المجتمع الاسلامي بحكومة تكون الشريعة فيها هي دستور البلاد . يقول البنا : « اننا لن نهدأ أبـداً ولن نستريح أو نسكت حتى نرى القرآن الكريم شريعة نافذة ، وسنحيا لهذه الغاية أو نموت في سبيلها » .

ولم يقنع الاخوان المسلمون بمجرد نص الدستور على أن دين الدولة هو الاسلام لقد كانوا يصرون على أن التشريعات بكاملها يجب أن تكون متفقة مع الشريعة ، وأن تسير الحكومة والمجتمع حسب الشرع الاسلامي ، ولقد قـال البنا في كلمة أخرى له :

« يفهم الاخوان المسلمون الاسلام في أكمل وأشمل تطبيقاته على أنه يجب أن يكون له الاشراف على كل شؤون الفرد وحياة الجماعة ، ويجب أن ينطوي تحت لوائه كل شيء ، وأن يتلائم مع تعاليمه . ومن كان مسلماً بعبادته فقط ، ثم يقلد غير المسلمين في كل الأشياء الأخرى ، فلا يعدو أن يكون كافراً » .

وقد أجاب أحد الساسة في عصره بقوله :

« نحن ندعوك إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام ، فإن كان هذا عندك سياسة فهذه هي سياستنا » .

وحيث أنه لم يوجد في مصر نظام ديمقراطي صحيح ، فلذلك طالب الشيخ حسن البنا بحل جميع الأحزاب السياسية والنظام البرلماني التي لم تثمر شيئاً ، كما كان يصر ، إلا الجشع للنفوذ والانحلال الخلقي ، وكان مقتنعاً هو ومؤيدوه، ولم يخامرهم شك ، في أنه لا يوجد في الأحزاب المصرية الموجودة أيام الملك فاروق ، من ينوي تطبيق الشرع الإسلامي ، ولا من يحمل حباً لمبادىء الإسلام . ولقد أراد الاخوان لمصر حكومة إسلامية ، دون أن يكون فيها مكان للحزبية السياسية التافهة . لقد كان البنا يؤكد على هذه القاعدة بشدة ، حتى أن أي واحد كان يرغب في عضوية الاخوان ، كان يطلب منه أولاً أن يتحلل من الانتساب لأي حزب .

ومع ان الاخوان المسلمين كانوا يتفقون مع القوميين العرب الدينويين في ضرورة تحرير مصر من الحكم الأجنبي وفي الوحدة العربية ، إلا أن هذه الأمور لم تكن في حد ذاتها غايات لهم ، بل هي وسائل ليس إلا . فالوحدة العربية لم تكن سوى خطوة نحو الوحدة الإسلامية ، وكان التحرر من السيادة الأجنبية يعني بالنسبة لهم الفرصة لاقامة دولة على أساس من الشرع الاسلامي .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٣ التي أطاحت بالملك فاروق ، لسوء الحظ قد أريد لها أن تستمر في سياسة الدول السابقة في الأخذ بحضارة الغرب ، وأن تقيم دولة قومية دنيوية صرفة . ولقد أثبت الزمن أن الحكومة الجديدة كانت كسابقاتها في عدائها للاخوان ، بل وأشد جشعاً وطغياناً في سعيها وراء السلطة المطلقة .

ان الاخوان المسلمين لم يكونوا يريدون السلطة لأنفسهم ، وكانوا يعدون

مراراً بمساندة الحاكم الذي يطبق الشريعة الاسلامية . إلا أن هذا الأمر قـــد رفضته الدكتاتورية العسكرية الجديدة بوضوح . فقد قال الرئيس جمال عبدالناصر :

« لقد قابلت المرشد العام للاخوان المسلمين الذي طلب مني آنذاك مطالب ، فقد طلب مني قبل كل شيء ، أن المرأة يجب أن تتحجب .. كما طلب مني طلبات أُخرى كاغـــلاق دور السينما والمسارح ، وبكلمة أُخرى أن نجعل الحياة مظلمة عبوسة . فكان من الطبيعي أن من المستحيل أن نعمل أشياء كهذه » .

لقـد زودت المحاولة التي جرت لاغتيال عبد الناصر في ديسمبر سنة ١٩٥٤ الحكومة بالذريعة المثلى التي انتظرتها . وبالتالي اتهم الاخوان مع أنهم تنصلوا من كل مسؤولية للحادث [١]. فقبض على الآلاف من الاخوان وزجوا في السجون ، وحكم على ستة منهم بالموت شنقاً . وذلك بالرغم من موجات الاحتجاج الغاضبة في كل العالم الاسلامي ، وبعد اثني عشر عاماً ، وفي سنة ١٩٦٦ عزم نفس العهد الحاكم في مصر أن يجعل من الاخوان كبش الفداء لكل تقصير أو فشل يصيبه . وفي سبيل ذلـك أوجد حكم عبد الناصر لجنة خاصة ذات سلطة عليا للقضاء على نفوذ الحركة الرجعية للاخوان المسلمين ، ولتقترح جميع الاجراءات الممكنة لاستئصال الاخوان المخربين بالقوة العسكرية والوسائل القضائية ، فكان من بين هذه الاقتراحات كما نشرتها « الندوة » في مكة ما يلي :

١ ــ يجب إبعـاد المواضيع الدينية والتاريخ الاسلامي كلية من المقررات في المعاهد التعليمية في كافة أنحاء البلاد ، وأن يوضع بدلاً منها منهج جديد يتفق مع المبادىء الاشتراكية .

٢ ــ يجب أن تعطى الشيوعية فرصاً كافيـة لاختيار الوسائل لإزالة الدين ، وذلك لتدمير الكيان الديني للشعب في هذه البلاد . وعلى ذلك فـإن المسؤولية

---

(١) ثبت أخيراً أن تلك المؤامرة هي من تدبير المخابرات الأمريكية والمصرية لتبرير ضرب حركة الاخوان المسلمين والقضاء عليها ، المترجم .

الكاملة تقـــع على عاتق الحكومة لتسمح للنشاطات الشيوعية المعادية للدين بالانطلاق الكامل ، كما يجب أن يحرم الدين من هذه الفرص .

٣ ـ وبعـد الدراسة العميقة لاولئك الأفراد المتدينين الذين لا ينتظمون في صفوف الاخوان المسلمين ، ولكنهم يقومون بنفس الدور تماماً ، فقد توصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن هذين القسمين من المتاجرين بالدين يتحدان بطريقة ما في الفكر والعمل . ولذلك يجب ابقاؤهمـــا منفصلين ، ويجب أن تقطع الصلات بينهما تماماً . وإلا فـــإن اليوم الذي سيتحد فيه هذان القسمان ويثوران ضد الحكومة قريب . وفي ذلك الوقت سيكون من الصعوبة بمكان تفريق الواحـد من الآخر . ولذلك فإنه من الحكمة أن يسحق هذا الخطر من البداية ، وأن يعامل كل المتجرين بالدين والرجعيون على حـد سواء ، كما يجب أن تقفل كل مسالك تطورهم وفرص نشاطهم العقلي والعملي ، ويجب أن توضع مراقبة دائمـــة على اجتماعاتهم ومشاوراتهم ، وكل من يتمسك بالدين ، مهما كانت المنظمة التي ينتمي اليها ، يجب أن يصفى وأن يمنع من الأماكن العامة والدعاية القومية والاجتماعية ومن وظائف الدولة .

٤ ـ يجب أن يشمل الاخوان وكل من يتعاطف معهم عذاب السجون المؤلم ، وكل حمايـة لممتلكاتهم وأمتعتهم يجب أن ترفع كما يجب أن يعلن أن الحكومة ليست مسؤولة عن حمايتهم اطلاقاً ، ويجب أن تظل عليهم مختلف أنواع الاضطهاد والاذلال والظلم لدرجة ألا يتمكنوا من الفكاك من هذه المحن لحظة واحدة » .

وكنتيجة لهذه السياسة فقد ألقي القبض على الآلاف من الاخوان ، بمـا في ذلك النساء دون أن يكون لهم أية وسيلة للدفاع القضائي ، وأوقع بهم أوحش أنواع العذاب ، ولقد جلد الشيخ حسن الهضيبي دون شفقة بالسلاسل الثقيلة حتى قارب الموت رغم سنه المتقدمة وصحته الضعيفة ، وهو قاض وعـــالم مشهور ، وخلف الشيخ حسن البنا كمرشد عـــام للجماعة ، وفي ٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٦

أعدم ثلاثة من زعماء الاخوان، وأجل هؤلاء الشهداء هو سيد قطب أحد مشاهير العلماء والمؤلفين في العالم العربي ، وكذلك مات في السجن أخوه محمد قطب وهو كاتب معروف واخته أمينة قطب ، قبل ذلك ببضعة أشهر وأخته الاخرى حميدة قطب حكم عليها بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات [1] .

لقد تنبأ الشيخ حسن البنا قبل ذلك بسنوات عدة عن هذه الشدائد، وحذر أتباعـــه من أن الاخوان المسلمين سيهزأون ويعارضون ويمنعون ويظلمون ويضطهدون ويقاسون الشدائد المروعة ، ولكنه في نفس الوقت وعد أن يكون النصر الكامل جزاءاً لهم في هذه الدنيا وفي الآخرة .

وبالرغـم من أن الاخوان اضطهدوا في أوطانهم ، إلا أن الحركة تواصل نشاطاتهـــا في سوريا والأردن ولبنان والسودان . وينشر المركز الاسلامي في جنيف في سويسرا الاسلام بكل همة ، تحت إدارة الدكتور سعيد رمضان الذي تزوج من ابنة الشيخ حسن البنا والذي هجر وطنه الأصلي مصر ناجياً بحياتــه ، بعد أن حكم عليه بالاعدام . كتب شودري غـــلام محمد في « الجماعة الاسلامية والسياسة الأجنبية » يقول :

« من الخطأ الاعتقاد بـــأن مبادىء الاخوان المسلمين قد ماتت . لقد ذهب كاتب هذه السطور إلى مصر وسوريا وشاهد بعينيه الأثر المعاصر لهذه الحركة ، وان الاختفاء المؤقت للتنظيم عن المسرح بسبب الحالة المصطنعة لا يشكل برهاناً على استئصاله . فـــإن الحركات العقائدية لا تزول بهذه الطريقة ، وان رسالتهم

---

(١) كانت الأخبار قد اشيعت بقوة في تلك الفترة عن وفاة الأخ محمد قطب تحت التعذيب ، إلا أنه ظهر بعد ذلك بطلان هـذه الشائعات . ولم يكن بالامكان في تلك الظروف السؤال أو تقصي الحقيقة بسبب البطش والارهاب الشديد . والأخ محمد قطب لا يزال على قيد الحياة لهذا اليوم يعمل في جدة خادماً للدعوة الاسلامية ، مد الله في عمره وبارك في عمله وعلمه ، المترجم .

مستمرة في الانتشار ، ففي حقول الفكر والاجتماع والثقافـــة تواصل مبادىء الحركة تقدمها وتفتح أراض جديدة. وعندما تزال الحواجز التي فرضها الطغيان فستبرز إن شاء الله بشكل أنشط وأقوى ، هذا هو الوضع الصحيح للاخوان . ولكن مـــاذا عن الأحزاب الدنيوية في مصر ؟ فمثلا أين الوفد اليوم ؟ وأين السعديون أيضاً ؟ ليذهب المثقفون في هذه البلاد إلى مصر ، وليكتشفوا بأنفسهم أي الجماعات أثبتت أنها أقـدر على تحمل الشدائد عندما أصابتهم المحن في ظل حكم مستبد » ؟

مولانا محمد علي جوهر

ولد مولانا محمد علي في أسرة ارستقراطية في رامبور سنة ١٨٧٩، وكان أشد المدافعين حماسة عن حرية الهند ، وعن وحدة الإسلام الروحية . وكان أبوه عبد العلي أحـــد أفراد حاشية الأمير في البلدة ، وكان مثقلا بالديون ككل رجل مرموق في طبقة عالية . وكان محمد علي لا يزال طفلا صغيراً عندما أصيب والده الشاب بالكوليرا ، ومات بعد ساعات قليلة من إصابته . ومع أن والدته كانت لا تزال في السابعة والعشرين من عمرها وترعى ستة أطفال ، إلا أنها كانت مثال الأرملة الشجاعة القديرة ، فرفضت بإباء أن تتزوج ثانية ، أو أن تقبل أية مساعدة مالية . وبالرغم من أميتها فقد كانت من الذكاء لتدرك أن النجاح في هذه الحياة لأولادها يعتمد على الثقافة الانكليزية . ولقـــد رهنت بجوهراتها سراً لتغطية نفقات تعليم ولديهـــا الكبيرين ذو الفقار وشوكت . وذلك بسبب معارضة عمها القوية للثقافة الانكليزية ، وهكذا . وعندما اسقط في يد العم ، وافق بتذمر على دراسة محمد علي ، فذهب أولاً إلى مدرسة في رامبور ، ثم في باريلي وأخـيراً في عليكرة . ولم يكن هناك مـــا يميز محمد علي وهو طفل عن باقي الصغار الاصحاء العاديين ، عندما كان يلعب ويصخب مع إخوته واخواته وابناء عمه ، بـــل في الحقيقة كان شديد الازعاج ومؤذياً . وكان مصدر ازعاج لوالدته المريضة المزمنة في مرضها . وهكذا فقد مضت حياته دون أية نتيجة إلى أن كانت سنة ١٨٩٦،

عندما فاجأ كل واحد بفوزه بالدرجة الأولى في امتحان بكالوريوس الآداب في جامعة الله أباد ، ذلك المعهد الذي كان في تلـــك الأيام يمتحن خريجي المدارس الانجليزية كلهـا والكليات في اوترپرادش وبعض المقاطعات المجاورة والولايات الوطنية كذلك ، وكان ذلك شرفاً عظيماً ، حتى ان أخاه الأكبر شوكت علي الذي كان في خدمة الحكومة آنذاك صار يقتصد لجمع النفقات الكافية لإرساله إلى انجلترا . وفي جامعة اكسفورد نال محمد علي درجة الشرف في التاريخ ، وبعد تخرجه كوفىء بوظيفة عالية في إدارة الثقافة بولاية رامبور ، ثم عمـــل أربع سنوات في بارودا . وكان في ذلك الوقت ان عزم على ترك الخدمة المدنية وخدمة بلاده عن طريق الصحافة . وبالرغم من أنه لم يكن لديه الخبرة الكافية أو المران في هذا الميدان ، إلا أنه بكل شجاعة أوجد جريدة Comrade الناطقة باللغة الانجليزية ، وكذلك جريدة Hamdardf الناطقة بالاردية . ولقد جذب اليه انتباه الأمـــة الواسع في الحال بنقده الفائق للادارة البريطانية الضعيفة للهند . وتحليلاته الذكية لأهم المشاكل التي تواجه بلاده ، بالاضافة إلى تملكه زمام النشر الاردي والانجليزي ، وبالطبع سرعان ما بدأت الحكومة البريطانية تنظر إلى هـذه الشخصية القوية بعدم الارتياح . وبالتالي ، وعندما شبت الحرب العالمية الأولى ، وكتب محمد علي مقالته المطولة التي لا تنسى تحت عنوان « اختيار الاتراك » ، يناقش فيها « انـه طالما ان انجلترا وحلفاءها سلكت مسلك الغدر والبغض تجاه القوى المسلمة ، فلم يعد هناك سبب كي لا تأخذ تركيا جانب المانيا» أقفلت الجريدة وزج محمد علي وشقيقه الأكبر شوكت في السجن .

ولقد بدأ وعيه الاسلامي في الاستيقاظ في الفترة التي كان يحرر فيها صحيفة Comrade وصحيفة Hamdardf . وكان محمـد علي واخوه الأكبر شوكت يبدأون كالمئات الآخرين من الهنود المثقفين بثقافـة البريطانيين الذين يتكلمون الانجليزية ، ويسلكون الطرق الغربية في الحياة . وكما يقول محمد علي في مذكراته ، فقد كانت الحرب البلقانية سنة ١٩١١ التي هددت الوجود التركي والامبراطورية

العثمانية بعينها ، هي التي أيقظت في نفسه الشعور بهويته الاسلامية . فإن الخلافة في استانبول لم تكن عاصمة تركيا فحسب بل هي القلب للعالم الاسلامي، لدرجة أن مسلمي الهند كانوا يحسون أن أي تهديد لوحـــدة تركيا كان خطراً على وجودهم بعينه .

كتب محمد علي في مذكراته يقول :

« لا شيء يوضح هذا التطور – تطور الشعور بالهوية الاسلامية – خـير من قصة أخي شوكت . ففي سنة ١٩١٣ تحمل القسط الأوفر في تأسيس جماعـــة خدام الكعبة . وكان ذلك لتوحيد المسلمين في كافـــة المذاهب للمحافظة على قداسة الاحرام الثلاثة للاسلام: في مكة والمدينة والقدس. ولقد جرت المتاعب التي تواجه الحجاج الهنود لتأمين طرق لرحلتهم إلى الأماكن المقدسة ، أخي إلى بومباي كضرورة ملحة . وهناك وجـــد أن الطريقة الوحيدة لمساعدة هؤلاء الآلاف من المتعبين ، الذين كانوا « ضيوف الله » في ذلـك الميناء المزدهر ، هي الحصول على رخصة مذلة باسم « سمسار حجاج » . وهـذه المهنة غيرت طريقة حياته كلية . فبعد ان كان موظفاً مع الحكومة البريطانية ، أنيقاً نصف اوربي في ملبسه ، لا يستغنى عنه في الأنديـة الاوروبية ، والحفلات الرياضية ، بسبب مآثره الرياضية كرئيس شهير لرجال لعبة الكريكت في عليكرة ، والذي كان يمتز بذوقه في القمصان الحريرية ، أصبح عامـلا في بومباي بملابس الفقراء ناهيك عن رثاثتها ، في معطف طويل فضفاض أخضر غريب التفصيل . وعلى الوجنتين الذقن الناعمة في السابق أصبحت ترى لحيةً طويـلة ، والتي كانت – كما اعتاد أن يقول – أقوى احتجاج على اوروبا والنصرانية » .

ولقـــد تعلم محمد علي وهو صغير استظهار بعض السور القصار من القرآن الكريم صماً بالعربية ، لا يفهم معنى لأية كلمـــة . وكذلك الصلوات اليومية المفروضة والوضوء .

ولقد تجاهلت برامج عليكرة التعليمية الإسلام تجاهلا كامـــلا تقريباً وسط

حماسها الشديد لرفع شأن الثقافة الانجليزية بـين المسلمين ، مستخدمة في ذلك الخطباء المحليين المغمورين ذوي الأجور الزهيدة لتعليم العربية والفارسية في حصة الدين . وكانت حصة الدين مملة بالنسبة للأولاد ، حتى أنهم كانوا يتهربون منها أو يخوضون في كل أنواع الهرج المؤذي ، ولم يمض وقت طويل على تخرج محمد علي من اكسفورد حتى تحقق من أنه بعيد عن إتمام تعليمه ، بل انه لم يبدأه بعد . فكان ان قرأ القرآن الكريم والحديث الشريف مترجمين أثناء فترة اعتقاله ، وفهم معانيها لأول مرة في حياته . وهذه الدراسة الذاتية للإسلام حوّلت محمد علي من مسلم بالاسم إلى مسلم جديد ، يتقد حماسة للإسلام ، وهو هنا يصف تجربته :

«ان الرجل الذي يمتلك سر الحقيقة برأس وقلب يكادان ينفجران ، وينبض بدق ١٥٠ نبضة في الدقيقة ، وبدمـه المتهيج في كل عرق في جسده ، كان يشعر أنه أكثر شبهاً بالقنبلة الوشيكة الانفجار بإرادة آخر ، من الكائن البشري الذي يتروى في أعماله وأقواله ويقررها ويتحكم فيها ... وعندما أنظر إلى الوراء إلى أيام تحولي الساذجة ، وبعد السنوات القليلة التي مرّت في ضوء الاعتقادات الاكثر رسوخاً التي كانت تتوهج ، ولكنها لم يعد لها مظهر الشعلة ، فإنني لا يسعني إلا أن ابتسم.. إلا أنني أحمد الله على انني لم أضحك من تلك الحماسة المبكرة للواعظ الحدث . لقد عرفت الله وعندما عرفته عرفت نفسي ، لقد وجدت معنى جديداً للحياة ، ولم أدركه كاملاً حتى الآن . وقـد بدا وجودي السابق قبالته فارغاً مجدباً» .

وفي نهاية الحرب العالمية الاولى اضطر الأتراك لتوقيع معاهدة سلام في غـاية المذلة . ولقد اعتبر مسلمو الهند هزيمة تركيا هزيمتهم هم ، وذلك أنهم خافوا أن تكون تلك الهزيمـة تعني نهاية النفوذ الإسلامي في السياسة الدولية . وبعد مظاهرات جماهيرية للمسلمين في مدارس لكنهو ودلهي وأماكن أخرى احتجاجاً على المعاهدة المشينة لتركيا ، تشكلت لجنة خلافـة في بومباي ٢٤ في نوفمبر سنة ١٩١٩ . وحيث أنـه سمح لغير المسلمين بالمشاركة ، فقد حضر الاجتماعات بعض

الزعماء الهنود البارزين ، مثل المهاتما غاندي والبنديت نهرو . ومـــا أن أطلق سراح محمد علي وأخيه حتى صار « نفس حياتها » ، ولقــد ترأس مولانا محمد علي الوفد لانجلترا حيث طرح مطالب المسلمين بالمحافظة على وحــــدة الامبراطورية العثمانية دون مساس ، فما كان من لويد جورج إلا أن رفض الاقتراح بكليته . ولقــد ألقى أحاديث فائقة في باريس ولندن يفضح فيها كل الدوافع الغــادرة والشريرة لتلك القوى الكبيرة . وذلــك في محاولة أخيرة يائسة لتحريك الرأي العام في اوروبا لصالح تركيا ، وكان الوفد مــا يزال في لندن عندما أبرمت معاهدة « سيفر » التي تقضي بالحل الكامل للامبراطورية العثمانية . ولقد كان في تلك الفترة الحاسمة ان اقترح المهاتما غاندي بكل دهــاء أن تأخذ حركة الخلافة بمقترحاته السلمية لتحقيق مقاصدها ، وهكذا فقد ارتكب محمد علي واحداً من أكبر أخطائه في حياته ، عندما قبل هذه المطالب ووضع مستقبل هذه الحركة الإسلامية العظيمة تحت رحمة الغزوات الهندوسية . ولكن محمد علي لم يكن في ذلك الوقت مستطيعاً أن يتبين خطأه المميت ، وظل معتقداً بأن الوحدة الهندو إسلامية ضرورية للهند المستقلة المزدهرة . فكان دائماً يقول ويؤكد : « انني فيما يأمر به الله مسلم أولاً وثانياً وأخيراً ، ولا شيء غير مسلم . ولكن فــيما يتعلق بالهند ، فــأنا هندي أولاً وثانياً وأخيراً ، ولا شيء غير هندي » . فما ان وصل اتساع حركة الخلافة ذروته سنة ١٩٢٢ حتى صدم المهاتما غاندي ، حتى أنصاره الهندوس ، عندما عزم فجأة على أن يلغي المسألة برمتها ، فلم يكن بدون سبب أن يعتقد المسلمون في الهند أن المهاتما غاندي لم يؤازر حركة الخلافــــة مدفوعاً بالتعاطف النزيه مع مثلها وأغراضها ، ولكن ليتقدم في قوته السياسية وليزيد من سيادة الهندوس على المسلمين ليس إلا .

ورغماً عن الاخطاء التي قد يكون ارتكبها دون مقصد ، فــإن مولانا محمد علي بقي صامــــداً في سبيل الإسلام . والإثبات على إخلاصه المطلق وتفرغه للمبادىء الإسلامية قد ظهر للجميع عندما اتخذت جمعية الخلافة قراراً بمنع أي

مسلم هندي من الانضمام للجيش البريطاني لمحاربة الاتراك ، فألقي القبض عليه وعلى أخيه الأكبر واثنين من معاونيه في العمل ، والذي كان أحدهما زعيماً هندياً متديناً ذا شهرة ، واتهموا بالتآمر على إغراء الفرق المسلمة بسحب ولائها للتاج البريطاني . ولقد أجاب مولانا محمد علي على هذا في المحكمة قائلاً :

« أقانون الله أكثر أهمية بالنسبة للتابع البريطاني أم قانون الملك — القانون البشري ؟ إن خلاص الانسان في الإسلام يعتمد على ما يلي : عليه أن يعتقد ، وعليه أن يسلك حسب تلك العقيدة ، وعليه أن يدعو إلى تلك العقيدة . والانسان الذي يعتقد بالإسلام يؤدي صلواته ، ويخرج زكاة أمواله ، ويصوم رمضان ، ويحج إلى مكة ولا يؤذي أحداً . فهل تفكرون أنه سينال الخلاص بذلك فقط؟ لا ، لأن القرآن يأمرك أن تذهب لتنشر هذه المبادىء ، فإنك لم تولد لتخلص نفسك فقط ، فأنت وجدت لتنقذ جيرانك أيضاً . فإن قال مسلم أنه يؤمن بأن قتل مسلم آخر محرم ، ومع ذلك يذهب ويقتله ، فلعله لن يظفر بالخلاص . وهبوا أنه يعتقد أن ذلك محرم ، ولا يقتل مسلماً آخر ، ولكنه يجلس قابعاً في بيته ، ويدع الغير يقتله ، فإنه كذلك لن يظفر بالخلاص ، ولن يظفر بالخلاص إلا ذلك الذي يحذر الناس من أن ذلك محرم ، ويثابر على ذلك حتى ولو خابت مساعيه . وإذا خاب في مسعاه وتحمل العذاب بموجب المادة ٥٠٥ والمادة ١١٧ من قانون العقوبات الهندي فماذا عليه أن يعمل ؟ عليه أن يبدي شجاعته فربما يشنق ، وربما يغرق ، وربما يقطع . ولكنه عليه أن يظهر شجاعة وصبراً في رسالته . وعندئذ فقط سيحصل على الخلاص ، وينجو من الهلاك ، وعليه أن لا يحاول تغيير قانون الله في أي نص ، وعليه أن يلتزم به وأن يواجه كل النتائج » .

ومع ان كل انسان توقع ان اخوة علي سيحكم عليهم بالسجن مدى الحياة إن لم يعدموا إلا أن مجلس قضاتهم أعلن دون تحيز براءة المتهمين .

كان مولانا محمد علي مسلماً صحيحاً بأصح معنى لهذه الكلمة وأرفعه ، ولم يكن مذهب التحضر مذهبه على خلاف مدرسة عليكرة التي تربى فيها . فكان

يقول : « إنني أعتقد أن أكبر خطأ قاتل مميت هو إضافة أي شيء من عندي إلى شريعة الله أو تغييرها ، أو استخراج أي شيء منها باسم خرافة التأويل ، وليست عندي أدنى معارضة إذا أراد الهندوس أو أتباع أي دين « تقدمي » آخر أن يشرعوا في دينهم ، ولكن «ديني ليس تقدمياً» فهو ينادي بأنه «وحي سماوي». وعندما تتاح الفرصة مرة أخرى فإنني سأجـد ان الإسلام فوق التشريعات البشرية . وبدون ذلك فلن يستطيع أي مسلم أن يتعهد بالإخلاص لأي دستور سواء سنّه الهنود أو البرلمان البريطاني ».

وهذا يوضح معارضته الشديدة لقانون « تقييد زواج الصبيان » الذي صدر سنة ١٩٢٩ يمنع أية فتاة من الرعايا الهنود من الزواج تحت سن الرابعة عشرة ، أو أي رجل تحت سن الحادية والعشرين ، ولقد أدرك مولانا محمد علي أن قانون «تقييد زواج الصبيان» كان بداية لإبطال الشريعة كاملة فيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية ، والأسرة الذي وضعه القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فلم يأل جهداً في تهييج الرأي العام ، وتنبيه المسلمين للأخطار الناجمة عن أمثال هذه التشريعات الظالمة ، بكتابة مقالات مثيرة كما يأتي :

« إن عدم التدخل في قانون الأحوال الشخصية يجب أن يضمن كجزء من القوانين الأساسية التي تؤكد الحرية الدينية ، وان واحداً من الأسباب الكثيرة ، التي من أجلها لا تقبل الأمة الإسلامية ما يسمى بالتسوية الإسلامية الهندوسية التي جاءت في تقرير نهرو ، هو ان القوانين الشخصية لم ينص على ضمانها فيه ، مع ان الحكومة البريطانية ضمنتها مراراً وتكراراً ، إن الشريعة الإسلامية تترك المسلمين رجالاً ونساءاً أحراراً في عقد الزيجات في أي سن ، فمن أجل هذا السبب يجب أن يكون أي قانون مثالي كما يقول الإسلام عن شريعته . ذلك أنـه يجب أن يطبق في كل العصور وفي كل الأماكن وفي كل الظروف . وان تقييد الحرية الانسانية في مثل هذه الحالة ، سيجعل القانون جامداً غير مرن . فـإن الشرائع يجب أن تنظم الطبيعة البشرية لا أن تقف في وجهها ، والإسلام يرفض الوقوع في

الخطأ ، وهو يحرص على الطهارة الخلقية للمجتمع بـدلاً من اتباع نهج من يسمون بالاصلاحيين ، الذين بكل تأكيد يعرفون الطبيعة البشرية - خلقياً وخلقياً - أقل بكثير من خالقهم . وان قانون « تقييد زواج الصبيان » يعاقب الزيجـات المبكرة فقط ، ولكنه لا يحرم الجنس المبتذل وهو بكلمة أخرى يقول : « أنت لن تتزوج ولكن يمكنك أن تزني » وهو في حـالات أخرى يقول في الواقع : «أنت لا تتزوج بل ازن بدلاً من ذلك» ، والإسلام بخلاف ذلك يقول : «يمكنك الزواج في أي سن ، ولكنك لا تستطيع الزنا » . وان هذا التضاد واضح مقنع حتى ان المسلمين يستطيعون تركه تماماً لأي شخص مفكر لم يحجب عقـله بالعنجهية ، ليحكم أي الطريقين هو الأصح ليتبع . ومن الحق أنـه في عصور الانحطاط ، وعندما قابـل الإسلام زمناً سيئاً و«السنة» سيئة ، فإن روح القانون الإسلامي كانت تحترم عندما يخرق القانون اكثر من احترامها عند اتباعه ، ولكن نص القانون لا يمكن لأجـل ذلك أن يطرح مع الركام . ويجب أن نتذكر ان الإسلام لم يفكر في المحاكم القضائية فقط ، بل في المحكمة النهائية لمالك يوم الدين . وهو في الوقت الذي ترك فيه الأخطاء للمحاكم القضائية لتعاقب عليها ، فإنـه احتفظ بالروح التي تدفع الانسان للعمل لأن يحكم عليها من قبله تبارك وتعالى لوحده ، وهؤلاء الذين ينجون من العقوبة لأخطائهم في هذه الدنيا لن ينجوا منها في الحياة الأخرى ، سواء كانت بسبب عقد زيجات مبكرة ، تؤذي اكثر مما تنفع ، أو بسبب الزواج من اكثر من واحدة مع الخوف من عدم القدرة على العدل بينهن ، أو بسبب طلاق زوجة دون سبب قاهر . ولا أحد يعرف أحسن من خالق الناس كيف يمكن للواحـد أن يتجاهل روح الشريعة حتى ولو اتبعها بنصها . ولكن بمـا أنه خلق الانسان كما أراد هو ، فقد ترك للإنسان أن يعمل ما يختار . والقوانين السماوية لا تدعي أنها بنفسها تقدر أن تجعل الناس ذوي أخـلاق ، وكذلك نحن أقل منها قدرة في أن نعمل ذلك بقانون من البرلمان ، فإن القانون المثالي هو ذلك الذي يفضل إنقاذ ألف مجرم عن أن يعاقب بريئاً واحداً ، وطالما أنه لن يفلت من العقاب في يوم الحساب إنسان مجرم ، فلم نحرص نحن على عقابهم

بتشريعات كهذه التي تعتبر أكثر الأعمال براءة للآلاف أعمالاً مجرمة. لقد اعتبرت المسألة في غاية الخطورة ولا تحتاج إلى قوة حدس خاصة لتتنبأ بالقدر المخبأ لقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، وذلك عندما وضع قانون « تقييد زواج الصبيان » في سجل القوانين كسابقة أمام المشرع الهندي . والذي يبدو وكأنه وضع لإلقاء الشرع الإسلامي في بوتقة الانصهار للتشريعات البشرية » .

وفي أخريات أيامه بدأ مولانا محمد علي يشك في إمكانية تحقيق وحـــدة إسلامية هندوسية نزيهة . وكانت آخر بارقة أمل في حياته هي التي أجبرته رغم حالته الصحية الخطرة لإصابته بالسكري ، على السفر إلى لنـــدن سنة ١٩٣١ لحضور مؤتمر المائدة المستديرة حيث طلب في كلمته الأخيرة : « إنني فقط أريد الرجوع إلى وطني إذا استطعت الرجوع بجوهر الحرية في يدي ، وإلا فإنني لن أرجع إلى بلد مستعبد ، فـــإن لم تعطونا الحرية في الهند فعليكم أن تعطوني قبراً هنا » . ولقد توفي مولانا محمد علي بعد أن ألقى كلمته بوقت قصير ، ولقـــد أجيبت رغبته وهو على فراش الموت ، فـــلم يعد أبداً إلى بلد مستعبد ، وتحت الإلحاح الشديد من قبل بعض الزعماء العرب المسلمين البارزين فقد أرسلت جثته إلى بيت المقدس ، ودفنت بجانب مسجد قبة الصخرة المقدسة .

كانت الصفة البارزة في مولانا محمد علي هي إخلاصه ، وتلـــك ظاهرة نادرة في السياسة ، فكان مخلصاً لما يدافع عنه ، مخلصاً لرفاقه ، وفوق كل شيء مخلصاً لنفسه ، وكان مولانا محمد علي صريحاً واضحاً ، لا يعرف الدبلوماسيات ، فأي مسألة، إما أن تكون عادلة أو لا ، فإن كانت عادلة رمى بكامل ثقل شخصيته في المعركة ، وحارب من أجلها للنهاية . وإن لم تكن عادلة حاربها للنهاية المرة. وكانت معتقداته عميقة الجذور ، وكانت حماسته دون حدود . وهـــذه الفضيلة كانت عند مولانا محمد علي في أعلى درجاتها ، وجعلت منـــه مجاهداً في سبيل الاسلام من الصف الأول .

رسالة العلامة محمد إقبال

في وسط الانحطاط الثقافي للمجتمع الاسلامي الذي كان يزداد تدهوراً بسبب السيطرة الغربية ، سيبقى الشاعر الفيلسوف العلامة محمد إقبال فريداً في الأدب الاسلامي الحديث . وبخلاف الشعراء المعاصرين له في العالم العربي ، من أمثال أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢) وحافظ ابراهيم (١٨٧١ – ١٩٣٢) وخليل مطران في سوريا ، الذين كانوا يطرقون المواضيع الاسلامية لخدمة أهداف القومية الدنيوية ، ومعروف الرصافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥) الذي لم يكن يخجل في نشره للفلسفة المادية ، فقد ركز العلامة محمد إقبال كل مواهبه الفطرية الأدبية ، وبكل عواطفه في سبيل الاسلام . ومع أنه كتب غالب أعماله بالفارسية إلا أنه استطاع أن يتجنب مزالق خيالات مذهب وحدة الوجود ، والمثيرات الجنسية والوجدانيات الزائدة التي تشاهد جميعها بكثرة عند الشعراء في تلك اللغة حتى المشاهير المعروفين . ويدل شعره بلا ريب على فهمه الحاد لدور الفنان الصحيح في الاسلام . ولن نكون مغالين إذا قلنا إن محمد إقبال هو واحد من القلة النادرة من الفنانين في العصور المتأخرة الذي استطاع أن يعبر بشعر ذي قيمة أدبية خالدة عن معنى كون الانسان مسلماً .

لقد ولد محمد إقبال في البنجاب سنة ١٨٧٣ ، وهو سليل عائلة ارستقراطية براهمية من أصل كشميري ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون خلت تقريباً .

وكان مثقفاً عالياً بالثقافتين الاسلامية والغربية ، وبعد تخرجه من كلية الحكومة في لاهور سنة ١٨٩٩ بقي فيها محاضراً لمدة ست سنوات ، وقد درس الفلسفة بين ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٨ في كمبردج وميونخ في تأهله للقانون ، وبعد ان عاد إلى لاهور صار يكسب رزقه القليل من مهنة المحاماة مكرساً وقته الزائد للشعر .

« ولكن محمد إقبال بكل عبقريته الشعرية لم يكن ينجو من الأخطار ، واسوء الحظ فإن كتاباته لا تخلو كلية من المتناقضات . لقد كان إقبال يمر دوماً بمراحل مختلفة للتطور العقلي أثناء حياته ، ولم يستطع أن يكون فكرة صافية عن الاسلام إلا في السنوات القليلة الأخيرة في حياته . ففي السنوات الأولى من حياته تداخلت أفكار ومؤثرات غربية مع أفكاره الإسلامية »[1] .

وأخطر أخطائه كانت تلك المقالات المنتقدة، والتي يكثر تداولها في مؤلفين له باللغة الانجليزية ، حيث يعاضد فيها الحركة التقدمية في العالم الاسلامي ، ويشير بالأخص إلى الكماليين في تركيا ، وكان ذلك في ست محاضرات ألقاها سنة ١٩٢٨ بطلب من الجمعية الاسلامية في مدراس، في جامعات مدراس وحيدر أباد وعليكرة . وبعد ذلك جمعت هذه المقالات وحررت بواسطة ابنه جويد ، ونشرت بشكل كتاب تحت عنوان: « The Reconstraction of Religious Thought in Islam » . وأما المؤلف الثاني بهذا الصدد فهو رسالة — كتيب — بعنوان : « Islam aud Ahmadism With a Reply to Questions by Pundit Nehru » والتي تحتوي دفاعاً طويلاً عن الاصلاحات الكمالية في تركيا يحاول فيها أن يثبت أن تلك الاصلاحات لم تكن غير إسلامية ، وان المبشرين النصارى والمستشرقين الغربيين والتقدميين المحليين عندنا لا يعوزهم أن يقتطفوا من هذين المؤلفين ليعززوا بذلك حججهم المدمرة ضد القيم الإسلامية . والذي يزيد من آثار أذاها التي تحدثه هو أن محتويات هذين الكتابين جاءت عن رجل

---

(١) من رسالة كتبها السيد ابو الأعلى المودودي للمؤلفة .

له هذه المنزلة ليس إلا وأسوأ ما في الأمر أن العالم الذي يتكلم الانجليزية والذي يجهل أشعاره بالاردية والفارسية ، يعتقد أن هـذين الكتابين يمثلان بدقة أفكار العلامة محمد إقبال. وبذلك يسببان ضرراً لا يمكن إصلاحه للمسألة نفسها التي آمن بها الكاتب نفسه وناضل بحماس من أجلها .

جـاء في كتابه الأول : « في القرون الخمسة الأخيرة كان الفكر الديني في الإسلام في الواقع ساكناً. ولقد كان هناك عصر أخذ فيه الفكر الاوروبي إلهامه من العالم الإسلامي . ولكن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الهائلة التي يسير بهـا العالم الإسلامي روحياً نحو الغرب . ولا من خطأ في هذه الحركة إذ أن الثقافة الغربية من الجانب الفكري مـا هي إلا تطور آخر لبعض الأوجه الأكثر أهمية في الثقافة الإسلامية »[1] .

هذه هي الحجة المحببة للتقدميين لتبرير تثقيف العالم الإسلامي بالثقافة الغربية ، وإن نقـل الفلسفة اليونانية إلى اوروبا في العصور الوسطى بواسطة المعتزلة الذين اتهموا بالزندقة من قبل كل العلماء البارزين ، كانت صدفة تاريخية تختص بالإسلام وحده . وان الفلسفة اليونانية تبقى فلسفة يونانية ، حتى ولو تصادف ان اولئك الذين أشربوها كانت أسماؤهم إسلامية . ومن مظاهر التناقض ان العلامـة إقبال يفنـد العبارة السابقة في نفس الكتاب مبيناً العبث الكامل في محاولة معاودة تفسير مبادىء الإسلام في ضوء الفلسفة الغربية الحديثة .

« تحتاج الانسانية لثلاثة أشياء في هـذا العصر – تفسير روحي للكون ، وتحرير روحي للفرد ، وقواعد أساسية ذات أهمية عالمية توجـه تطور المجتمع الانساني على أسس روحية . وان اوروبا دون ريب أوجدت نظماً مثالية غير واقعية على هذه الخطوط ، ولكن التجربة أثبتت ان الحقيقة المكتشفة عن طريق العقل وحده ، لم تستطع إذكاء تلك النار الموجودة في العقيدة الحية ، التي يستطيع

---

(١) عن كتاب بعث الفكر الديني في الاسلام – للشيخ محمد اشرف .

الالهام الشخصي ايجادها منفرداً ، ولهذا السبب كان الفكر الخالص قليل الأثر على الناس ، بينما كان الدين دوماً يعلي من الأفراد ، ويحول المجتمعات بكاملها . وان المثالية الاوروبية لم تصبح أبداً عاملاً مؤثراً في حياتها، وصدقوني ان اوروبا اليوم هي اكبر معوق في طريق تقدم الانسان الاخلاقي »[١] .

وعلى ظهر شهرة إقبال ومسؤوليته يتهجم التقدميون، فهو الذي كتب الفقرة التالية في كتابه المشار اليه، والتي كان خطؤها عظيماً كعظمة عبقريته في الشعر: « كانت اوروبا خلال قرون نومنا الفكري كلها تفكر بجد في المسائل العظيمة ، التي كان فلاسفتنا ورجال العلم منا في الإسلام شديدي الاهتمام بها . فمنذ العصور الوسطى عندما كملت المذاهب الإسلامية الدينية حدث تقدم هائـــل في ميدان الفكر والتجربة الانسانيين... فـــلا عجب إذن أن تسعى الأجيال الناشئة في المسلمين في آسيا وأفريقيا في توجيه دينهم توجيهاً جديداً . فمن الضروري إذن لايقاظ الإسلام ، أن نختبر بروح مستقلة ما فكرت به اوروبا ، وإلى أي بعد تستطيع النتائج التي توصلت اليها خدمتنا في مراجعة الفكر الديني في الاسلام ، وفي اعادة بنائه إذا لزم الأمر حتى ولو ربما أدى بنا الأمر لمخالفة من سبقونا » .

ولكن العلامة إقبال يشرح وجهة النظر المخالفة في مؤلفه الفارسي الشهير « الأسرار الإلهية » Asrari - i - Khudi بالكلمات التالية :

« لا تطلب وهج الحب في معارف العصر .
لا تطلب طبيعة الحق من كأس هذا الكافر .
فمنذ زمن طويل وأنا أجري متخبطاً .
أتعلم أسرار « المعرفة الحديثة » .
لقد وضعني بستانيوها تحت التجربة .
وجعلوني آلف ورودهم .

(١) بعث الفكر الديني في الاسلام .

ورود !! هي خزامي أجدر بالانسان أن يحذر شمها !

كورود الورق ، سراب من العطر !

المعرفة الحديثة هي أكبر أعمى :

عبادة الأصنام ، بيع الأصنام ! صناعة الأصنام !

مصفدة في سجن المدركات الحسية . . .

انها لم تتخط حدود المحسوس . .

لقد سقطت في عبور قنطرة الحياة .

لقد وضعت السكين على رقبتها » . . .

وهـــذه فقرة أخرى تؤخذ عليه يستعملها تقدميونا لتبرير ترك كل القيم الإسلامية الأصيلة واستبدالها بالمادية الغربية تحت الشعار الشائع « فتح باب الاجتهاد » .

« لقد استمر المسلم في تعديل نظرته الدينية طبقاً للعوامل الثقافية التي كان يتشربها من الشعوب المحيطة به . . وروح التشرُّب هـذه تظهر بجلاء في مجال القانون . فالقرآن ليس دستوراً قانونياً . . وإن مهمته الرئيسية ، كما قلت سابقاً، هي إيقاظ إدراك أعلى في الانسان عن علاقته بالله والكون . . . والنقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة في هذا المقام هي نظرة القرآن الحركية . فمن الواضح بالنسبة لتاريخ القرآن ومبتدئه ، أن كتاب الإسلام المقدس لا يمكن أن يعادي فكرة التطور . . . فالعـــالم الإسلامي اليوم يواجه ويتأثر بقوى جديدة أطلقهـا الرقيّ الفكري الانساني العجيب في كل نواحيه . وإني لا أرى سبباً لإبقاء باب الاجتهاد مغلقاً لوقت أطول . وإن مطالب الجيل الحاضر من المسلمين المتحررين، لإعادة تفسير الأصول الشرعية الأساسية في ضوء تجاربهم الخاصة، وضوء الأحوال المتغيرة للحياة الحاضرة ، هي في رأيي لها ما يبررها تماماً. وإن تعاليم القرآن، في أن الحياة هي عملية خلق متوال، تستوجب أن يسترشد كل جيل بأعمال أسلافه لا أن يعوق . كما يجب أن يعطى الفرصة لحل مشاكله الخاصة » . .

وهؤلاء التقدميون ، الذين يتغنون بشهرة العلامة إقبال ، ليعززوا سفسطتهم ضد الإسلام ، يبدون أنهم يتجاهلون كلية أن إقبال نفسه قد أعلن رأيه المضاد لذلك في هذه النبذ الفصيحة من شعره :

« من أراد سيادة الشمس والنجوم
فليجعل نفسه أسير الشرع .
يا من تحررت من عاداتك القديمة !
عُد وزيّن قدميك بنفس السلسلة الفضية اللطيفة .
ولا تشك من قسوة الشرع !
ولا تخالف شريعة محمد !
أتعرف ما هو شرعك ؟
حيث يكمن سرّ قوتك تحت العوالم البعيدة ؟
يا صاحب الحكمة الخالدة ، الأزلية ؟
التي لا ريب فيها ولا تبديل لكلماتها .
لا تطلب تأويلا آخر للشرع !
لا تفتش إلا عن الضياء ، لتجده في داخل الجوهر .
فالله — سبحانه — هو الذي صاغ هذا الجوهر .
فالشرع هو المعرفة الوحيدة للحقيقة .
ولذلك فإني أعلن ان سر الإسلام هو الشرع .
حيث تبدأ به كل الأشياء وتنتهي » .

ويفنـّد العلامة إقبال في نفس القصيدة العبارات الخاطئة في مؤلفاته الانجليزية بفصاحة كبيرة عندما يؤكد بشدة أنه في عصور الانحطاط يكون التقيد التام بالماضي أفضل بكثير من التحرر المطلق :

ويا من تشققت شمالك القديم ..
وخمد في صدره مصباح الحياة .
إن حقيقة التوحيد عسيرة على قلبك .
وفي الانسجام يسهل عليك إصلاح .
أطلال نصيبك . ففي عصور الانحطاط
يكون السعي في تجربة حكم العقلي التحرري :
هو المكمل لدمار الناس في النهاية ؟!
فالنجاة تكون باتباع الرأي المعلق المحجوب
الذي يوضع كتقليد متواضع للماضي .
لم تفسر الغطرسة عقول آبائك .
إن جهد الاتقياء لم تلوثه الأهواء .
لقد حاكت تأملاتهم خيوط الفكر بدقة كبيرة ،
لقد وافقت حياة المسلمين سنة الرسول .
بأقرب ما يكون باتباعهم شرعاً واحداً .
وهو هيكل العقيدة لأمتنا .
التي تنبض قلوبها حية" لكلمة القرآن
نحن كل الأرض !! هذا ما يتمسك به قلبنا الحي
لينقذ نفسه .. طالما أنه حبل الله .
وعلى خيوطه الجوهرية المقدسة فلننتظم بكل أمان
وإلا فلنتشتت كالغبار في اليوم العاصف ،
اسلك سبيل أجدادك ، فذلك قوة .
فميزة المحافظة هي التئام الأمة .
فمن الواجب علينا كلنا أن نحذر النزوات الفارسية .

فوافق نفسك مع سنن العرب .

لتقوّي قلبك وتكن مسلماً حقاً » .

وهذا هو مـا يحدث بالضبط ، عندما يحاول أولئك الذين لا يتفهمون القيم الاسلامية ، فتح باب الاجتهاد . وذلك كما جاء في الكتاب المذكور سابقاً .

« إن كان غرض الدين هو جعل القلب روحياً فيجب إذن أن يخترق نفس الانسان ، وهو يمكن أن يدخل إلى داخلية الانسان على أحسن وجه إذا كانت مثله المعلية للروح تلبس لسان قومه ، كما يقول الشاعر التركي ضياء جوكلاب وأغلب الناس في الهند الذين يشجعون استبدال العربية بالتركية . ولقد تعرضت اجتهادات الشاعر التركي ، لأسباب تتضح فيما بعد ، للمعارضة الشديدة . إلا أنه يجب أن نسلم أن الاصلاح الذي نادى به لم يكن بدون مثيل في تاريخ الاسلام الماضي . فنحن نجد أن محمد بن تومرت مهدي المسلمين في اسبانيا ، والبربري ، عندما تسلم السلطة ، وأوجد حكم الموحدين الديني ، أمر من أجل البربر الأميين بترجمة القرآن ، وقراءته بلغة البربر . والحقيقة أن تركيا هي الوحيدة من بين الأمم الإسلامية الحاضرة ، التي نفضت عن عينيها السبات العقائدي ، ورجعت إلى وعيها الذاتي . وهي الوحيدة التي طالبت بحقهـا في الحرية العقلية . وهي الوحيدة التي تخطت من المثال إلى الواقع – وتلك نقلة تستوجب كفاحاً أخلاقياً وعقلياً حاداً . وبالنسبة لها ، فإن تعقيدات الحياة المتحركة المتشبعة ، ستوجد بالتأكيد حالات جديدة تتطلب وجهات نظر جديدة ، وتستوجب تفسيرات جديدة للقواعد ، في ذات الأهمية التقليدية لأناس لم يتذوقوا لذة التقدم الروحي . فأغلب بلاد المسلمين اليوم تكرر دون تفكير القيم القديمة . بينما يسير التركي ليوجد قيماً جديدة مرة أخرى . لقد مرّ من خلال تجارب عظيمة كشفت عن نفسه العميقة له . ولقد بدأت الحيـاة بالنسبة له تتحرك ، وتتغير ، وتتسع ، وتولد رغبات جديدة ، وتوجد عقبات جديدة تتطلب تفسيرات جديدة .

ولكن العلامة إقبال نقض جميـع هـذه الآراء في أواخر أيامه ، واعتبر

التجربة الكمالية في تركيا لا شيء سوى تقليد أعمى للمادية الغربية بشكل آلي غير خلاق على أشد صورة ، فجاء في كتابه « Zarbri - Kli » ما يلي :

« ما نورك إلا نور اوروبا قد انعكس ..
فأنت الجدران الأربعة التي شادها بناؤها .
محارة من الصلصال لا تسكنها الروح .
قراب فارغ مزين بالذهب الزاهي .
فوجود الله يبدو غير ثابت في ذهنك .
و كذلك وجودك يبدو غير ثابت عندي .
فالذي تشع نفسه كالجوهرة هو وحده الموجود .
فاصغ اليها !! فإني لا أرى شعاع نفسك !

وهذه مقالة أخرى اعترف إقبال نفسه في آخر حياته . انهـا خطأ كبير ولكنها لا تزال تذكر لتعزز موقف اولئك الذين يريدون فرنجة العالم الاسلامي وتحضره .. وجاءت هذه المقالة في كتابه : « الجواب على اسئلة نهرو » .

لقد ظل العلماء دوماً منبع قوة عظيمة للاسلام ، ولكنهم على مر الزمن ، وخاصة منذ دمار بغـــداد ، اصبحوا جامدين لحد كبير ، ولا يتسامحون في أية حرية في الاجتهاد . وهكذا كان هم المصلحين في القرن التاسع عشر هو توجيه العقيدة توجيهاً جديداً ، والحرية في إعادة تفسير الشريعة في ضوء التجربة الزاحفة وليس من الممكن في هذا المكان أن نقدم إحصاء مفصلاً عن التغيير الذي أحدثه هؤلاء المصلحون في دنيا الفكر والشعور الاسلاميين . ولكن هناك شيئاً بيناً ، فهم قد أعدوا الأرض إلى حد بعيد ، لمجموعة أخرى من الرجال ، مثل زغلول باشا في مصر ، ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا ، ورضا شاه بهلوي في إيران . فالسيد أحمد خان والشيخ محمد عبده شرحوا وناقشوا وأوضحوا . ولكن زمرة الرجال الذين جاءوا بعدهم — مع أنهم أقـــل منهم شأناً في العلوم الأكاديمية — كانت لديهم الشجاعة للاندفاع في الفضاء المشرق ، ولأن يعملوا ولو بالقوة ، ما

تطلبته الظروف الجديدة للحياة ، معتمدين في ذلك على مواهبهم الصحيحة . فهل تطور النظرة المادية العامة في تركيا هو مـــا يظهر مناقضاً للإسلام ؟ لقد كان للإسلام تنازلات كثيرة جـــداً . ولقد حان الوقت للمسلم لينظر إلى الحقائق . فالمادية سلاح شديد ضد الدين ، ولكنها كذلك سلاح مؤثر جداً ضد احتراف الدين واحتراف الصوفية اللتين تتعمدان تضليل النـــاس بقصد استغلال جهلهم وسذاجتهم ، ان روح الاسلام لا تخشى الاحتكاك بالمادة . وانه من العسير على غير المسلم أن يدرك أن تقـــدم النظرة المادية خلال القرون الأخيرة في تاريخ المسلمين الماضي ، كان لا يعدو أن يكون صورة في صور الفهم الذاتي . فهل كان إذن منع الزي القديم ، أو إدخال الحروف اللاتينية ، هو المناقض للاسلام ؟ فالإسلام كدين ، ليس له وطن خاص ، وهو كمجتمع ليس له لغة معينة أو لباس معين ، وحتى ان قراءة القرآن بالتركية ، لم تكن بدون نظير مماثل سابق لها في التاريخ الاسلامي . فهل هو إذن منع تعدد الزوجات أو منع احتراف الدين — أي رجال الدين؟ فبحسب الشرع الاسلامي ، فالأمير له السلطة أن يلغي الرخص الموجودة في الشريعة ، إذا اعتقد انها أصبحت تنحو لايجاد الفساد الاجتماعي . أما بالنسبة لمحترفي الدين ، فإني كنت بكل تأكيد أدخلها إلى الهند ، لو كانت لديّ القوة على ذلك . والخرافات التي يبتدعها المشايخ ، تعود بدرجة كبيرة إلى خمول الرجل المسلم العادي . ولقد عمـــل أتاتورك عندما طردهم من حياة الناس الدينية ، ما يثلج صدور أمثال ابن تيمية ، أو شاه ولي الله . وهناك حديث عن الرسول ﷺ ورد في المشكاة ، يقول أن أمير الدولة الاسلامية أو من يعنيهم هم الموكولون بوعظ الناس. وانا لا أعلم فيما إذا كان أتاتورك قد عرف هذا الحديث . ومع ذلك فما يدعو للعجب كيف أن نور قلبه المسلم أنار له سبيل عمله في هذه المسألة المهمة .

ولقد كتب إليّ أحد اولئك الذين عرفوا العلامة إقبال في أواخر حياته في رسالة شخصية ، الايضاح التالي لمـــا اعتقد به إقبال من وجهات نظر لفترة من حياته :

« كانت لدى إقبال مسحة من القومية الاسلامية في أكثر أيام حياته ، بدلاً من أن يكون مسلماً بوجهات نظر عالمية ، وربما لم تفارقه طيلة حياته . ومن أجل ذلك كان يتردد عادة في شجب الزعماء والحكام المسلمين ، وكان أحياناً يذهب إلى حد تبرير نشاطاتهم الغير إسلامية ومساندتها . ويرجع ذلك إلى تساهله الشعري . كما يجب ألا ننسى أنه كانت هناك عوامل تاريخية وسياسية ، كانت تعمل عملها لتغذية الشعور بالعطف العميق الجذور في نفوس المسلمين الهنود والباكستانيين تجاه تركيا . لقد كان للمسلمين ، بعد ان استعبدهم البريطانيون ، ترابط وجداني مع هذا الأثر الباقي لمجدهم الزائل . ولقد دافعوا عنه بكل الطرق الممكنة . ولقد كان العلماء المسلمون والمفكرون هنا مهيئين للتغاضي عن أعمال أتاتورك الغير إسلامية ، بل الأعمال الكفرية . وذلك مكافأة على ما عمله لإنقاذ هذه الدولة المسلمة المتداعية . ولقد ظل إقبال على ما عنده من الأساس العقلي والعاطفي ، ماضياً في الدفاع عن « إصلاحات » كمال أتاتورك وموضحاً لها حتى سنة ١٩٣٠ . واستمر في ذلك محاولاً إيجاد مكان لها في الاسلام . ولكن يبدو أن صبر شاعرنا لم يعد يطيقها ، فبدأ يلعن بدع أتاتورك جهراً فكتب في (Bal - i - Jibril) :

« العقل ، والفكر ، والذكاء ، لها طرق غريبة .

وهي العدو الموعود للدين بين شيعة « الحب » .

وأنا أعرف لها التواءات لطيفة يحتمي بها معلموها .

فآه كيف سيتحطم شعبي ؟!

فهذا الطائر الفرد قد يرفرف قرب بابي .

ولكني لا أنتظر شيئاً من ألحان في أغانيه .

فمن يعلم تركيا كمال هذه القصيدة مني ؟!

والأتراك – كما أعلم – لا ينكرون الشعر ؟

لماذا تعتبر تركيا اوروبا جارتها القريبة ؟

وهي التي تحميها النجوم من سماء أقرب ؟

ثم يقول في (Zarbr - i - Kalim) :

سمع الخشخاش غنائي فمزق غلافه .

والصبا لا يزال يفتش عن حديقة .

وروح الشرق قد ساءَ استقرارها في أتاتورك ورضا شاه .

وهي لا تزال تبحث عن جسد .

والعالم لا يزال يفتش عن مشنقة » .

وبالرغم من الأخطاء الفكرية التي وجدت طريقها إلى مؤلفات محمد إقبال النثرية بالانجليزية ، إلا أن حبه للاسلام لم يتزعزع أبداً . ويمكن تفهم إخلاصه في نواياه في موقفه الصامد نحو فكرة الاسلام عن المرأة :

« إن الأمومة رحمة ارتبطت .

بحبل الشبه القريب بالنبوة ...

فهو الذي قال من أجل الإله « لتكن هناك حياة » .

فأعلن ان الجنة تحت أقدام الأمهات .

ففي تعظيم الأرحام وحسب .

تستقيم حياة الأمة ...

خذ أية امرأة فلاحة جاهلة .

سمينة منفرة فجة .

أمية ، دميمة المنظر بسيطة ، بكماء .

تجد آلام الأمومة مزقت أحشاءها .

وتجد عيوناً أحيطت بهالات سوداء كئيبة .

فإن تكسبت الأمة من على صدرها .

مسلماً واحداً متحمساً للدين .

فإن أمة الله المؤمنة التي تحملت كل الآلام
قد عززت وجودنا . وينير فجرنا بالشعاع .
من بهجة ليلها المظلم .
ولكن خذ النحيلة الهيفاء الرقيقة ،
ونظراتها الصاخبة .
تلمع أفكارها بنور الغرب .
فهي في مظهرها الخارجي امرأة .
ولكنها في داخليتها ليست امرأة .
لقد قطعت الأوصال التي
تحفظ مجتمعنا النقي آمناً .
لقد أفلتت وسفكت مفاتنها المقدسة .
عيونها جريئة . وتحررها مثير .
لا تعرف الحشمة إطلاقاً .
لقد كانت ثقافتها قاصرة .
عن حمل عبء الأمومة .
وفي ظلام لياليها لم يتألق نجم قط .
يا ليت هذه الزهرة لم تنبت
في حديقتنا . . يا ليت عارها
غسل عن ثياب أمتنا .
إن المثل الكامل ، فاطمة البتول ،
مع أن كل الخلائق من نفس النار والنور ، على حد سواء ،
أطاعت ما أمرت به . قد أغمضت عن رغبتها
إرضاء لزوجها الطيّب .
كانت الحماسة والوداعة مدرستها
فبينما كانت شفتاها تتغنى بالقرآن ، كانت يداها تدير الطاحون

فيا حامية بركات شرع الله !
إن هذا العصر متصنع غرور .
وما قافلته إلا قاطع طريق مدجج بالسلاح .
يريد أن يستولي على ثروة الدين ويغنمها .
أعمى ذلك القلب الذي لا يعرف شيئاً عن الله .
وخسيسون أولئك الأسرى لأصفاده .
وعينه وقحة طائشة .. وسريعة أطراف سياطها ،
في خطف فريستها المسكينة .
يدعي لنفسه الحرية .. ينتفش صدعاه .. وهو يعيش
فاحفظي — يا حامية الأمة —
رأسمال أمتنا من الدنس .
تتعلم منك شفاه أطفالنا التي ترضع من صدرك .
أول شيء نطق « لا إله إلا الله »
فلا تتعبي نفسك بحساب ما تربحين وما تخسرين
وأنت مطمئنة لتسلكي الطريق
الذي سار عليه آباؤنا قبلنا .
فاحذري من غدر الزمان ، وعلى صدرك
الرحب ضمي صغارك ، هذه الفراخ الصغيرة ،
لم ينبت عليها الزغب لتطير . قد سقطت بعيداً
عن عشها الدافىء . فبعيدة من السماء
تلك الرغائب التي تصارع نفسك . فكوني
دائماً على ثقة من أسوتك فاطمة
فلعلّ فرعك يحمل حسيناً جديداً .
زهرة بستاننا في عصرنا الذهبي » .

وإن النادر القليل ، إن وجد في شخصيات العالم الإسلامي البارزة ، من تمرّس بالمعرفة والفلسفة الأوروبية كما عرفها محمد إقبال . ومع أن إيمانه العميق بالإسلام لم يتزعزع أبداً ، إلا أنه لم يستطع إلا أن يقارن قوة بلاد كانجلترا والمانيا ، وازدهارها وحركتها ، بالصفة المذلة لشعبه هو. وعدّ ذلك من المآخذ التي ذكرت في كتاباته . إلا أنه في أواخر حياته ، وعندما زايله غروره ، وصار لديه الفكر الثاقب العميق كتب هذه الأسطر :

« تمتزج موسيقى بلاد غربية بنار الإسلام
التي عليها يبنى انسجام الأمة .
فروح أوروبا خالية من الائتلاف
تلك التي سارت حضارتها في غير طريق مكة . (Aal - i - Jabril)
تغدو الحقيقة مطموسة للعيون
التي تستغرب طرق العبودية والببغاءات .
فهي ترضع بلاد فارس أو العرب لبن الحياة .
من ثقافة أوروبا التي هي نفسها على حافة القبر (Zarb - i - Kalim)

مولانا السيد ابو الأعلى المودودي

هو أبرز زعيم موجود للاسلام الحديث ، ولد في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ في اورانجبار حيدر آباد . وكان في الهند من عائلة تدعي أنها تسلسلت مباشرة من الخواجة قطب الدين مودود تششق مؤسس الطريقة الصوفية المعروفة بالتششتية والتي وصلت تعاليمها إلى شبه القـــارة الهندية والباكستان عن طريق تلميذه الخوجا معين الدين من أجمر . وقبـل مولد أبي الأعلى بثلاثة سنوات زار والده رجل تقي ، وأخبره بأن الله -سبحانه- سينعم عليه قريباً بولد يسمى أبو الأعلى قدر له أن ينقطع لخدمة الدين بشكل مريـع . وكان والد مولانا ابو الأعلى محامياً ومع أنه كان من نفس عائلة سيد أحمد خان، ونال ثقافته في عليكرة ، إلا أنه في أواخر حياته ضاق ذرعاً بالحكم البريطاني وأعوانه ، ولم يرد أن يرسل أولاده إلى المدارس الانجليزية. ذلك أنه صدم بالحضارة الغربية ، فعمل على تعليمهم تعليماً ممتـازاً في البيت ، في كل من العربية ، والفارسية ، والاردية ، والانجليزية . وفقد المودودي والده وهو لم يجاوز السادسة عشرة من العمر . ومنذ ذلك الوقت في سنة ١٩٢٠ بـدأ يعيل نفسه كصحفي في صحف هندية مختلفة . وكان في هذه الفترة في حياته المبكرة مناصراً شديد التحمس لحركة الخلافة التي قام بها مولانا محمد علي جوهر لمساندة الحكم التركي ، وإنقاذ هـــذه الدولة الوحيدة الاسلامية الموجودة ذات النفوذ ، من الاطماع الاستعمارية الاوروبية المدمرة .

ولقـد جذب مولانا المودودي انتباه الرأي العام لأول مرة عندما كتب في سنة ١٩٢٦ عن « الجهاد في الاسلام ». ذلك الموضوع الذي قارن فيه بالتفصيل بين مبدأ الجهاد –في الاسلام– وقانون الحرب الدولي الحديث ، وميز فيه بكل عناية الجهاد عن الأعمال الحربية القديمـة والحديثة . وكان لرسالته – الجهاد في سبيل الله – الثانية في نفس الموضوع أثر كبير في تفكير الشيخ حسن البنا بعد ان ترجمت إلى العربية . وأصبحت هذه الرسالة بترجمتها العربية مع غيرها، من الرسائل التي كتبها المودودي من الكتب المفضلة للقراءة لدى الاخوان. ثم ألف المودودي في سنة ١٩٣٢ أكثر كتبه شهرة، وأوسعها مداولة ، وهو كتاب «نحو فهم الاسلام» (Towards Understanding Islam) . وكان ذلك بقصد كسب عقول الشباب المثقفين بالثقافة الحديثة إلى عقيدة نقية . وقد ترجم هذا الكتاب لأكثر من اثنتي عشرة لغة ، وأعيد طبعه مراراً وتكراراً ، وبيع منه بالتالي أكثر من مائة ألف نسخة في كل أنحاء العالم . وأصبح هذا الكتاب مقرراً في المدارس الحكومية ، في بعض البلاد الاسلامية . وفي سنة ١٩٣٣ ابتدأ مولانا المودودي يحرر الصحيفة الشهرية التي عرفت مقرونة باسمه منذ ذلك الحين باسم «ترجمان القرآن» . وصار هو ومؤيدوه يشرحون فيها الاسلام الصافي للجماهير التي تتكلم الأردية لمدة تزيد عن ثلاثين سنة .

وفي سنة ١٩٣٧ أقنع الشاعر الفيلسوف العلامة محمد إقبال مولانا أبو الأعلى المودودي بالمجيء إلى لاهور ليتعاون معـه في بعث الشرع الاسلامي . ولكن لسوء الحظ توفي إقبال قبل أن يأخذ هذا العمل شكله . وفي سنة ١٩٣٩ صار مولانا المودودي عميداً لقسم الدين في الكلية الاسلامية في لاهور . وأوجد في سنة ١٩٤١ الجماعة الاسلامية ، وذلـك ليقاوم التفرنج ، والمادية ، والقومية ، والدنيوية ، ورسالة هـــذه الجماعة هي الاصلاح الشامل لحياة المسلمين اليوم على أسس الاسلام النقي ، وباتخاذ الشريعة الاسلامية كدستور للبلاد .

لم يساند مسلم هندي حركة الباكستان بحماس كما ساندها مولانا المودودي .

ففي الكتاب تلو الكتاب ، والرسالة تلو الرسالة ، والحديث تلو الحديث ، أخذ يقنع المسلمين الهنود بأنهم أمة متميزة . وأن عليهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، في دولة خاصة بهم ، إذا أرادوا صدّ خطر الاضطهاد والسيادة الهندية . وفي الوقت الذي كان فيه المفكرون الأحرار المخلصون أمثال مولانا محمد علي جوهر ، ومولانا شوكت علي ، وحتى القائد الأعظم (Qaid - e - Azam) أعضاءاً في وقت واحد في « المؤتمر الهندي الوطني » فإن مولانا المودودي لم ينضم إليه يوماً واحداً قط . وعندما طلب من « القائد الأعظم » أن ينضم إلى الجماعة الإسلامية ، أوضح وجهة نظره بأنه لا تعارض هناك ، مهما يكن ، بين الجماعة الإسلامية والحلف الإسلامي – عصبة المسلمين – فإن الأولى تعمل لمثل أعلى ، والثانية تعمل لتحقيق الحاجة الملحة الفورية للمسلمين في الهند ، في إيجاد قومية مستقلة لهم ، والتي بدونها يكون إنفاذ رسالة الجماعة الإسلامية العملية مستحيلاً .

بعد تقسيم شبه القارة الهندية في أغسطس سنة ١٩٤٧ ، كرّس مولانا المودودي كل جهوده في سبيل إيجاد منهاج إسلامي نقي للحياة في باكستان . وفي شهر يناير إلى مارس سنة ١٩٤٨ ألقى سلسلة من خمسة أحاديث أذيعت بالراديو ، يشرح فيها أبرز المظاهر في تعاليم الإسلام الروحية ، والخلقية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية . فالاسلام ، بالنسبة له ، لم يكن مجرد شعار . فقد كان واحداً من الزعماء القلائل في البلاد ، الذي أثبت في كل عمل يعمله أنه يعني ما يقول . وأخذ يطوف البلاد بهمة لا تعرف الكلل ، يلقي الأحاديث ، ويحشد القوى في سبيل إقامة دولة إسلامية بمعنى الكلمة . وعندما تجرأ على المطالبة بدستور إسلامي أصيل للبلاد ، اتهم بأنه عدو للدولة ، وسجن في أكتوبر سنة ١٩٤٨ إلى مايو سنة ١٩٥٠ . ذلك أن مثل هذا النبل في الغاية لم يكن ليحتمله بعض النفعيين المقنعين . إلا أن جهوده في تحقيق الأسس لدستور إسلامي للبلاد أتت ثمارها عندما وافق المجلس القومي الدستوري في مارس سنة ١٩٤٩ ، على « الأهداف والقرارات » التي تضمن في مطالبه .

وفيما يلي نصوص هذه القرارات :

« لما كانت السيادة المطلقة على هذا الكون هي لله القدير وحده، وان السلطة التي أناطها بدولة الباكستان ، ممثلة في شعبها لتمارسها ضمن الحدود التي شرعها ، هي أمانة مقدسة ، فإن هذا المؤتمر الدستوري ، الذي يمثل شعب الباكستان ، يوطد العزم على تشكيل دستور لدولة الباكستان المستقلة ذات السيادة » .

« فيه تمارس الدولة سلطتها ومسئوليتها عن طريق ممثلي الشعب المختارين » .

« وفيه تكون أصول الديمقراطية ، والحرية ، والمساواة ، والتسامح ، والعدالة الاجتماعية ، كما جاء بها الإسلام ، معمولاً بها على أتم وجه » .

« وفيه يمكن المسلمون من تنظيم حياتهم ، في المجالين الفردي والاجتماعي ، طبقاً لتعاليم الإسلام ومقتضياته كما جاءت في القرآن والسنة » .

« وفيه تجعل الشروط الكافية للأقليات ، لتعتقد وتمارس أديانها بحرية تامة ، وتنمي ثقافاتها. والذي بموجبه تكون المقاطعات، التي تشتمل عليها الباكستان ، أو المرتبطة بها ، وكذلك المقاطعات التي قد تشملها الباكستان فيما بعد ، أو ترتبط معها ، اتحاداً يتمتع فيه الأعضاء بالاستقلال الذاتي ، بحدود وأبعاد في حدود قواها ومسؤولياتها كما يقرر فيما بعد » .

« وفيه تكفل الحقوق الأساسية ، بما في ذلك المساواة في الحالات والفرص أمام القانون ، والعدالة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وحرية الفكر والتعبير ، والاعتقاد ، والدين ، والعبادة ، والاجتماع ، في إطار القانون والأخلاق العامة » .

« والذي تجعل فيه الشروط الكافية لتأمين المنافع المشروعة للأقليات والطبقات المتأخرة والمهضومة » .

« والذي فيه يضمن استقلال القضاء ضماناً تاماً » .

« والذي تؤمن فيه وحدة مقاطعات الاتحاد واستقلالها وكل حقوقها ، بما في ذلك حقوق سيادتها البرية والبحرية والجوية » .

« وذلك كي يتسنى لشعب الباكستان الازدهار. ليأخذ مكانه اللائق الصحيح بين أمم العالم . وليساهموا مساهمة تامة في السلام الدولي ، وفي تقدم الانسانية وسعادتها » .

ولقد كان حدثاً تاريخياً هاماً ، ولأول مرة منذ أربعة عشر قرناً ، عندما اجتمع واحد وثلاثون عـالماً يمثلون المذاهب الإسلامية الفكرية الرئيسية في الباكستان – ديابانذي ، بريلفي ، أهل الحديث ، والشيعة – وذلك بإقناع مولانا المودودي . وعقدوا اجتماعاً في كراتشي من ٢١ – ٢٤ يناير سنة ١٩٥١. ووضعوا باتفاق تام إحدى وعشرين قاعدة لا غنى لدولة إسلامية حديثـة عن إدراجها في الدستور الجديد. ونصّت القرارات الاجتماعية لهؤلاء العلماء ما يلي :

يجب على دستور الدولة الإسلامية أن يبرز الأصول الأساسية التالية :

١ – إن السيادة المطلقة على الكون كله والشرائع كلها هي لله رب العالمين .

٢ – إن قانون البلاد يجب أن يبنى على القرآن والسنة . كما لا يجب أن يسن قانون أو ينفذ أي تنظيم إداري يتعارض مع القرآن والسنة .

(إيضاح) : إذا وجدت أية قوانين نافذة المفعول في البـلاد تتعارض مع القرآن والسنة فمن الضروري أن يدون في الدستور إن أمثال هـذه القوانين ستعدّل تدريجياً وفي فترة محددة بما يتفق مع الشرع الإسلامي أو تلغى .

٣ – يجب أن ترسى قواعد الدولة لا على الأسس الجغرافية ، أو اللغوية ، أو أية مبادىء مادية أخرى ، بل على الأصول والأهداف للطريقـة الإسلامية في الحياة .

٤ – ويجب أن يكون واجباً على الدولة أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كما هو منصوص عليه في القرآن والسنة ، وأن تتخذ كل الوسائل اللازمة لإحياء

العقائد الإسلامية ورفعتها . وأن تهيء لثقافة إسلامية ، طبقاً لمقتضيات المذاهب المختلفة المعروفة .

٥ – ويجب أن يكون لزاماً على الدولة أن تقوّي عرى الوحدة والأخوة بين كل المسلمين في العالم . وأن تمنع من بين المواطنين المسلمين في الدولة نمو الميول المتولدة من الأهواء اللاإسلامية ، نحو التمييز على أساس الجنس أو اللغة أو المنطقة أو أي اعتبار مادي آخر . وذلك لحماية وحدة الملة الإسلامية وتقويتها .

٦ – وسيكون من مسئولية الدولة ضمان توفير الحاجات الأساسية للإنسان كالغذاء ، والكساء ، والمأوى ، والدواء ، والتعليم لكل المواطنين – دون النظر للدين أو الجنس – الذين لا يستطيعون وقتياً أو أبدياً كسب معاشهم بسبب البطالة أو المرض أو أي سبب آخر .

٧ – وسيمنح المواطنون جميع الحقوق التي أعطاها الشرع الإسلامي . فسيكفل لهم ، ضمن حدود الشرع ، الأمن التام على الحياة والممتلكات والعرض ، وحرية الدين والعقيدة ، وحرية العبادة ، والحرية الشخصية ، وحرية الرأي ، وحرية الانتقال ، وحرية الاجتماع ، وحرية العمل ، وتكافل الفرص ، وحق الانتفاع من الخدمات العامة .

٨ – ولا يجب أن يسلب شخص ما ، في أي وقت ، أياً من هذه الحقوق إلا بالشرع ، كما لا يجب أن يعاقَب أحد بأية تهمة بدون أن يعطى الفرصة الكاملة للدفاع ، وبدون قرار من محكمة .

٩ – والمذاهب الإسلامية المعروفة يجب أن يكون لها ، في حدود الشرع ، الحرية الدينية الكافية ، والحق في المشاركة في تثقيف أتباعها بالثقافة الدينية ، وأن يكون لها الحرية في نشر آرائها ، والمسائل المتعلقة بأحوالهم الشخصية يجب أن تحل وفق الأصول الفقهية لهذه المذاهب . ومن المستحسن أن يشترط أن تحل هذه المسائل بواسطة قضاتهم الخصوصيين .

١٠ - والمواطنون غير المسلمين في الدولة يجب أن تكون لهم - ضمن إطار الشرع - الحرية الكاملة في الدين والعبادة ، وطريقة الحياة ، والتربية ، والثقافة الدينية . ويجب أن يعطوا الحق في أن تحل مسائلهم المتعلقة بأحوالهم الشخصية طبقاً لقوانينهم الدينية الخاصة ، وعاداتهم وتعاليمهم .

١١ - وكل الالتزامات المفروضة من قبل الدولة ، في حدود الشريعة ، تجاه المواطنين غير المسلمين، يجب أن تحترم. ويجب أن يمنحوا بالتساوي مع المواطنين المسلمين كل حقوق المواطنية ، كما نص عليها في البند السابع .

١٢ - يجب أن يكون رئيس الدولة مسلماً ، رجلاً ، يثق الشعب أو ممثلوه بتقواه ، وقدرته ، ورجاحة عقله .

١٣ - ومسؤولية إدارة الدولة يجب أن تخوّل مبدئياً لرئيس الدولة ، ولو أنه ربما يفوّض جزءاً من سلطته إلى أي فرد أو هيئة .

١٤ - وحكم رئيس الدولة يجب أن لا يكون مطلقاً بل شورياً . ويجب أن يصرف واجباته بالتشاور مع الأشخاص ذوي المناصب العالية في الدولة ، ومع ممثلي الشعب المنتخبين .

١٥ - ولا يحق لرئيس الدولة أن يعطل الدستور كليـــاً أو جزئياً ، أو أن يسيّر الأمور بطريقة أخرى غير أساس الشورى .

١٦ - والهيئة التي لها حق اختيار رئيس الدولة ، يجب أن يكون لهـا حق تنحيته بأكثرية الأصوات .

١٧ - وفيما يختص بالحقوق المدنية ، يجب أن يتساوى رئيس الدولة مع غيره من المسلمين ، ولا يجب أن يكون فوق القانون .

١٨ - وكل المواطنين ، سواء كانوا أعضـــاء في الحكومة أو موظفين أو أشخاصاً عاديين ، يجب أن يخضعوا لنفس القوانين التي يجب أن تطبق على الجميع بواسطة نفس المحاكم .

١٩ – يجب أن يكون القضاء منفصلاً ومستقلاً عن الجهاز التنفيذي في أداء واجباته .

٢٠ – والآراء ، والمبادىء ، التي من شأنها أن تقوّض الأصول الهـامة والأساسيات للدولة الإسلامية ، يجب أن يمنع نشرها والدعوة لها .

٢١ – والمناطق المختلفة ، والمقاطعات في البلاد ، يجب أن تعتبر وحدات إدارية لدولة واحدة ، ويجب أن لا تكون وحدات على أساس الجنس أو اللغة أو القبيلة ، بل وحدات إدارية فقط ، والتي قد تمنح – تحت سيادة المركز – من السلطة حسب الضرورة ، وذلك للراحة الإدارية . ويجب أن لا يكون لها حق الانشقاق .

٢٢ – ويجب أن لا يُعمَل بأي تفسير للدستور يتعارض مع شروط القرآن والسنة .

وفي المدة بين ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ، عندما طالبت الأغلبيـة الساحقة من الباكستانيين في البنجاب ، أن يعلن في الدستور أن القاديانية أقليـة منفصلة ، فرضت الأحكام العرفية لإبطال هذا المطلب . وعندئذ كتب مولانا المودودي كتيّباً بعنوان « المسألة القاديانية The Qadiani Problem » ، يدعم فيها تلك المطالب ، ويشجب سياسة الحكومة :

« تختلف المسألة القاديانية كليـةً عن اتهامات الهرطقة المتبادلة بين الفرق المختلفـة . فقد أوجدت القاديانية نبوة جديدة في شخص ميرزا غلام أحمـد (١٨٣٩ – ١٩٠٨) ، ووصموا كل من كذّب ادعاءاته بالكفر . والقاديانيون يندسّون في المجتمع المسلم كمسلمين في الظاهر ، ينشرون دينهم الجديد بطريقـة سيئة ، ويجاهدون دوماً لتكثير أعدادهم على حساب المجتمع المسلم . وفي الحالة الراهنة ، فإن المطالبة بفصل القاديانية عن الأمة الإسلامية قد قدمت من أغلبية المسلمين ، ذلك أن هـذه الأغلبية هي التي عانت من الأمر . فالقاديانيون من

جهة ، يتمتعون بكل امتيازات الأقليـة التي يحصلون عليهـا بفضل انفصالهم الحقيقي عن الهيكل العام للمسلمين المؤمنين ، بينما هم من جهة أخرى، يسرقون كل الفوائد بكونهم جزءاً من غالبية الأمة المسلمة ، فيندسّون في المجتمع المسلم في مسوح المسلمين ، وينمّون أعدادهم بالدعوة الخفيّة ، فيغرّرون بالجهلة . وهم ، في نفس الوقت ، يسرقون حظاً أكبر ممـا يستحقون في دروب الحياة الجماعية . وذلك هو السبب الذي من أجله ألحّت الغالبية ، وليست الأقليـة ، بالمطالبة بالفصل » .

ونتيجة لذلك فقد ألقي القبض على مولانا المودودي في ٢٨ مارس سنة ١٩٥٣ وأودع السجن دون محاكمة . وعندما حكم عليه بالشنق في الأحكام العرفية صرح بما يلي: « إن كانت تلك إرادة الله فإني أتقبلها بكل فرحة ، وإن لم يرد لي الموت في الوقت الحاضر فلا يهمني ما يحاولون فعله ، فإنهم لن يستطيعوا إلحاق أقـل ضرر بي » . ولقـد كانت الاحتجاجات على الحكم عليه بالاعدام عظيمة جداً في جميع أنحـاء العالم الاسلامي ، لدرجة ان السلطات أجبرت على تخفيف حكم الاعدام إلى السجن مدة ١٤ سنة .

وبينما كان مولانا المودودي يقضي مدة حكمه ، وضع قاضي القضاة محمد منير بمعاونة القاضي م. ر. كياني تقريره المشهور « بتقرير منير » . والذي بتحريه في أسباب الهياج العام ضد جماعـة القاديانية ، وبالأخص المطالبة العامة باقصاء شودري سير ظفر الله خان وأخويه من القاديانيين ذوي المناصب العاليـة من وظائفهم ، شخص أسباب القلاقل على أنها حماس وتعصب إسلامي أعمى . ومن هذه المقدمة ، خلص إلى انه إذا سمح للباكستان أن تصبح دولة إسلامية ، فإن غير المسلمين بالتـالي سيصبحون أهدافاً للاضطهاد الديني . وستقع الفرق الإسلامية المختلفة في خصومات لا نهاية لهـا ، ومنازعات دموية . وستسن قوانين بالية تتضارب مع مقاييس العالم المتحضر ، وستطرد الباكستان بسبب ثقافتها المنحطة وحكومتها الرجعية ، كطريدة من المجتمع الدولي .

لم يهاجم الإسلام أحد، حتى ولا المستشرقون الغربيون والمبشرون النصارى بوقاحة كما هاجمه « تقرير منير » . والذي ضاعف ضرره ان واضعه كان مسلماً. وتلك مأساة ، ولقد أدرك مولانا المودودي ، والجماعة الإسلامية ، هذه الحقائق فتصدوا له ليثبتوا للعالم ان كل تهجماته على دولة إسلامية في الباكستان، وكذلك كل المذمات التي وجهها لشخصه هو ، لم تحو شيئاً من الحقيقة إطلاقاً . ولقد أجاب مولانا المودودي على الطلب الختامي في « تقرير منير » لإعادة تفسير الإسلام جذرياً لجعله متفقاً مع الفكر المعاصر ، ولينظر إلى الباكستان بعين الاعتبار في الرأي العام ، بقوله :

«إذا أراد شخص ما أن يعيد توجيه الإسلام أو بنائه فهو وشأنه. وستشكر له جهوده، شريطة أن يثبت بالحجة السليمة أي أجزاء في الاسلام ليست حيوية، ولم كانت كذلك ، وعلى أي الأسس يمكن تغييرها . وكذلك ما هي الأجزاء الحيوية الموجودة فيه ، وبأية صورة يريد الابقاء عليها . ولكن عليه أن يكون مدركاً تمام الإدراك لأمرين: فأولاً: نحن يمكننا أن نحصل على قرارات من محاكمنا في قضايانا. ولكن ليس بالامكان إجبارنا على قبول قراراتها في المسائل المبدئية. وثانياً : ان المسلم قد يقتنع إذا كانت الحجج مبنية على القرآن والسنة. ولكن إذا وضع الاسلام بين أيدي أمريكا ، وبريطانيا ، والهند ، وزعيمات الأسر الدولية الأخريات ، ثم طلب منها أن تقتطع منه ما لا ترغب فيه ، وان تبقي على ما تحب ، وأن تضيف ما تراه لازماً ، ثم بعد تلك التعديلات والتصليحات والتبديلات والإضافات والازالات ، يعطى المسلمون شيئاً يحمل اسم « الاسلام » فمهما كان انتساب هذا الشيء لكبار الموظفين والطبقات العالية ، فهو بالنسبة للمسلم العادي لن توجد طريقة لرفضه الصريح إلا أن يركله برجله بأشد بغض ».

وفي ٢٥ مايو سنة ١٩٥٥ ، وبأمر كتابي من المحكمة العليا بإعادة النظر في قضية مولانا المودودي ، أطلق سراحه . وبعد وقت طويل أعلن أول دستور لجمهورية الباكستان المسلمة في مارس سنة ١٩٥٦ . وقد تضمن كثيراً من مطالب

الجماعة الاسلامية . ولكن لسوء الحظ، ففي الوقت الذي كان فيه هذا الدستور يوضع في صورته النهائية ليكون أساساً لدولة إسلامية صحيحة، فقد أمر الرئيس « اسكندر ميرزا » بالغائـه في اكتوبر سنة ١٩٥٨ . وفي السابع والعشرين من ذلك الشهر بالذات قبض المشير أيوب خان على أزمــة الحكم، وفرض الأحكام العرفية، وحل جميع الأحزاب السياسية، بما فيها الجماعة الاسلامية .

ولكن المودودي بقي كمـا كان، وبدون تهيب، مصمماً على رفعة شأن الاسلام بكل ثمن . وبالرغم من وجود قـانون الأحكام العرفية، فقد استطاع أن ينشر الطبعة المراجعة والموسعة لمجموعـة من أحاديثه ومقالاته، ترجع في تاريخهـا من سنة ١٩٣٩ - ١٩٥٨، تحت اسم « الشرع الاسلامي والدستور Islamic Law and Constitution »، الذي يرسخ بقوة، واقناع الضرورة للشريعة، وقابلية تطبيقها في الحكومة الحديثة . وكانت حجج مولانا المودودي قوية مقنعة، لدرجـة ان نصارى من ذوي المراكز العالية، مثل قاضي القضاة في الباكستان أ . ر . كورنيلوس، تبنى علنـاً اختيار الشريعة كنظام شرعي وحيد ملائم للبلاد . وفي الذكرى المئوية للمحكمة العليا في باكستان الغربية، في فبراير سنة ١٩٦٧، أعرب جميع القضاة عن رغبتهم في رؤيــة الشريعة الاسلامية سائدة .

وفي (٥ - ٦) مايو سنة ١٩٦٠ اجتمع مولانا المودودي مـــع تسعة عشر آخرين من العلماء، يمثلون المذاهب الاسلامية المعروفة في الباكستان، اجتمعوا في لاهور وأجابوا بصوت واحد على السؤال الموجــه اليهم من لجنة الدستور المعينة من قبـل الحكومة حول أسباب فشل النظام البرلماني في عدم صلاحيته للتنفيذ في باكستان . ومن ثم اقترحوا وسائل العلاج اللازمة لتثبيت الديمقراطية والحقوق الانسانية .

« لقد وجدت الباكستان بفضل المسلمين العوام . وفوق ذلـك، وبعد رحمة الله، فإن عزم عامــة المسلمين، ليس إلا هو الكفيل ببقائها وقوتها . ولم يظهر

هذه البلاد للوجود أحد من غـير المسلمين . ولم تكن لتظهر للوجود بدون تضحيات المسلمين . ولن تستطيع أن تبقى وتحيا إذا فقد المسلمون الأمل فيها -لا قدر الله- وتخلوا عن تصميمهم على الحياة والموت في سبيلها. فإذا استثنيت قلة من ذوي المراكز العالية ، من موظفي الدولة ، وعدد ضئيل من الشعب من العائلات الغنية ، فإن جمهور عامة المسلمين يرغب في بناء هـذه البلاد ورؤيتها تزدهر كدولة إسلامية . يجب أن تكون شرائعها إسلامية ، وأنظمة تعليمها إسلامية ، وثقافتها وديانتها إسلامية . وهـذا هو الغرض الذي من أجله ضحى المسلمون بأنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، ليقيموا الباكستان . ولن تكون هناك خيانة أكبر لهذه الدولة من تدمير هذه المصلحة للشعب . فما هذه المساندة التي تستطيع تقديمها للدولة حفنة من هؤلاء الناس الذين يضايقهم مجرد ذكر الاسلام — دينهم — بعد ايجاد المثبطات والمعوقات في صفوف عامة المسلمين »[1] ؟

وعندما نجحت الجمعيـة النسائية لعموم باكستان ، في مارس سنة ١٩٦١ ، في إقناع الحكومة بسَنّ قانون تنظم العائلة المسلمة ، والذي يتعارض بكل جلاء مع الشريعة ، ويضع قيوداً صارمة لتعـدُّد الزوجات ، ويجعل تسجيل الزواج إجبارياً ، ويعين حداً قانونياً أدنى للزواج ، ويعتبر الطلاق الذي يوقعه الزوج والذي لا تقرُّه الزوجة من جانبها ، غير جائز ، رفع مولانا المودودي ، بالمشاركة مع ٢٠٩ من العلماء من جميع أنحاء البلاد ، احتجاجاً صارخاً ، وطالبوا بإلغـاء القانون ، أو على الأقل تعديل فقراته المعترض عليها . ولكن قرار العلماء هذا ، المعارض لهذه القوانين الجديدة للأسرة ، أتبع بإجراءات فظَّة صارمة ، وزُجّ بأولئك المسؤولين عن طباعته وتوزيعه في السجون .

وفي خلال هذه الفترة ، تابع مولانا المودودي ، بكل همّة ونشاط ، كتاباته

---

(١) رد على استفسار لجنة الدستور والقواعد الأساسية للدولة الاسلامية - مولانا سيد محمد داوود غزنوي .

وخطاباته على أسس فردية مستقلة. وبين سنتي ١٩٥٩ و ١٩٦٢ ، جابَ الشرق الأوسط العربي ، حيث زار في فلسطين ، والجزيرة العربيــة ، ومصر ، جميع الأماكن المقدسة التاريخية ، المذكورة في الكتب المقدسة ، كي يساعده ذلك في مؤلفه المكوّن من خمسة مجلدات ، الذي هو « ترجمة وشرح القرآن الكريم » ، باللغة الاردية ، المعروف بـ « تفهيم القرآن » . وقد بُدىء فيه منذ سنة ١٩٤٣ ، وتمت أربعة مجلدات من « تفهيم القرآن » لهذا اليوم. وعليه طلب كبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي . واستجابة للطلب المتزايد له ، فهو الآن تحت الترجمة إلى العربية ، والبنغالية ، والانجليزية ، ولغة البشتو . ومولانا المودودي يثبت عن علم كامل في مؤلفه « تفهيم القرآن » الحقيقة الكاملة ، وعلو طريقة الاسلام في الحياة على كل ما سواها ، وبيّن فيه أين ومتى أفسد اليهود والنصارى كتبهم . وقد نشر تفسير مولانا المودودي لسورة النور ، وسورة الأحزاب ، كل على حدة. وتشمل تفاسيره عرضاً ممتازاً للعقوبات الاسلامية للجرائم . وكيف أنها أكثر إنسانية ، وتأثيراً من أي قانون دنيوي للعقوبات من صنع البشر . وقد أصبح ذلك كتاباً لا يستغنى عنه للقراءة عند الطلاب الباكستانيين في كليات العلوم الانسانية والحقوق . كما ترأس مولانا المودودي مشروعاً للبحث في الحديث في كتابه « المكانة الشرعية للسنة » . والتي تشمل تفنيداً عنيفاً للسيد « أحمد خان » « وغلام أحمد باروز » الذين طعنوا في قوة أحاديث الرسول الكريم (كأصل للشريعة) .

وفي سنة ١٩٦١ ، وتحت إلحاح الملك ابن سعود في العربية السعودية ، وضع مولانا المودودي خطة كاملة لتأسيس جامعة إسلامية في المدينة ، يؤمل مع الزمن أن تملأ الفراغ الذي خلفه الأزهر. حيث أن الطابع الإسلامي للأزهر في القاهرة أتلفته القومية والدنيوية ، وقد جاء في خطاب أرسله لي شخصياً :

« لقد وضعت الخطة بنفسي ، ووافقت عليها لجنة معينة من الملك ، للجامعة الإسلامية في المدينة ، وهي تعــد لتعليم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ،

والفقه ، والتاريخ الإسلامي ، وعلم الكلام ، إلى جانب الفلسفة الحديثة ، والقانون الحديث ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأديان المقارنة ، وستكون إحدى اللغات الانجليزية ، أو الفرنسية ، أو الالمانية ، إجبارية . والثقافة البادية في هذه الخطة لا يمكن أن تسمى « دنيوية أو دينية » بالمفهوم لهذين المعنيين . وستختلف هذه الجامعة عن جميع المعاهد الثقافية القديمة والحديثة ، وستنفرد بمكانة خاصة بها . ونحن نطمع أن يتخرج منها العلماء المسلمون الضليعون في العلوم الإسلامية مع المعارف العصرية ، القادرون على تطبيق القواعد الإسلامية على مشاكل الحياة اليومية » .

وفي سنة ١٩٦٣ ، عندما رفض الملك ابن سعود الكساء السنوي للكعبة المشرفة بسبب المنازعات السياسية بين مصر والسعودية ، عرض مولانا المودودي تعهده بأن يصنع الكساء في الباكستان. فقبل الملك هذا العرض. وهكذا وتحت ضمانته ، حيكت كسوة سوداء ، غاية في الإتقان ، وطرزت بالخيوط الذهبية ، بأيدي أمهر الصناع في لاهور . وعندما أنجز هذا العمل خرج قطاران محملان برجال الجماعة الإسلامية ، يحمل كل منها قطعاً كبيرة كثيرة من لاهور إلى كيوتا إلى كراتشي . ومن لاهور إلى بشاور إلى كراتشي بطوفان كل أنحاء باكستان الغربية . ولقد آثار هذا العمل حماساً دينياً لم يسبق له مثيل في كل البلاد . إذ أن قرى ومدناً بكاملها خرجت إلى محطات السكك الحديدية نساء مع أطفالهن أولاد ورجال من مختلف الاعمار والمناصب . وكان من بين تلك الألوف المؤلفة من الجماهير ، من جلس ينتظر بقلق شديد لأيام طوال . وعندما كان القطار يصل في النهاية ، كان رجال الجماعة الإسلامية يرفعون قطع الكسوة عالياً ليراها كل إنسان . فيصلي الناس ويبكون من وجد الفرحة ، وكان اولئك الذين يمكنهم الاقتراب كل بدوره ، كانوا يقبلون الكساء المقدس ، ويغمسونها في العطور . وعندما وصلت الكسوة في النهاية إلى مطار لاهور احتشد أكثر من مليون شخص ، وارتصوا في كل فسحة ممكنة على الطريق يرتلون آيات من القرآن الكريم

آملين بالفوز بلمحة لها . وفي المطار قــدم مولانا المودودي الكسوة إلى السفير السعودي الذي عبر عن جزيل امتنانه . ولم يبق عند أي واحد من الذين شاهدوا أمثال هذه المناظر حتى ولا عند الصحفيين المتشككين الأجانب ، والمراسلين ، والمصورين ، أدنى ريب في حب الشعب الباكستاني للإسلام ، وتطلعهم لجعلـه سائداً في كل مجال من مجالات الحياة الوطنية والدولية .

لقد حاول أعداء مولانا المودودي من قبيل حسدهم لشعبيته ونفوذه المتزايدين أن يفسدوا المؤتمر السنوي للجماعة الإسلامية الذي عقد بين ٢٥ — ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٦٣ . فبالرغم من جميع العقبات التي حاول أعــداؤه أن يضعوها في طريقه ، بسحبهم اذون السفر وعدم السماح له باستعمال مكبرات الصوت . فقد عقــد الاجتماع وحضره أكثر من ١٠ آلاف من الشعب ، وتحت سمع الشرطة وبصرها ، وحمايتها ، حاول المجرمون أن يحرقوا قاعة المؤتمر ، بل وحتى أن يعتدوا على حياة مولانا المودودي. إلا أن شجاعته وهدوء أعصاب رجال الجماعة الإسلامية أدت إلى نجاح المؤتمر نجاحاً كبيراً .

ولكن ذلـك لم يكن ليتحمله خصومه ، فواصلوا الحملات الدعائية ضده في الصحافة الرسمية . وقد وصلت تلك الحملات ذروتها عندما اعتقل جميع الزعماء البارزين في الجماعة الاسلامية في يناير سنة ١٩٦٤ ، وأودعوا السجن دون تحقيق وحلّت الجماعة الاسلامية واعتبرت غير رسمية . وشمعت جميع مكاتبها ومكتباتها وأماكن اجتماعاتها . ولكن عندما رفعت القضية إلى المحكمة الباكستانية العليـا للنظر العادل المنصف ، وجد أن حــل الجماعة الاسلامية ، وسجن زعمائها كان باطلاً . ولم تمض على خروج مولانا المودودي خمسة عشر يومـاً من السجن في ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ ، وفي خضم المعركة الانتخابية الوطنية لرئاسة الجمهورية ، حتى ألقى في لاهور خطاباً امتد ساعتين أمام حشد غفير من الجماهير ، بكلماته الملتهبة ، وحججه المفحمة ، وهاجم فيه كل سياسات العهد الحاكم لدرجة تحدى فيها شرعية حقه في البقاء في الحكم .

جاء في رسالة « الحالة السياسية في باكستان » ما يلي :

« إن أكبر ذنوبنا هو أننا لا ننافق في أمر عقيدتنا بالاسلام ، واننـا جادون في جهرنا لصياغة شؤون أمتنا كي تنسجم مـــع مناهج الاسلام. فعندما نُقر أن الاسلام هو ديننا ، فيكون طبيعياً بالتالي أن يكون الاسلام ، والاسلام وحده هو نورنا الذي نهتدي به في جميع مجالات حياتنا ، في المعنويات ، والسلوك ، في العقيدة أو المبدأ في الاخلاق أو الثقافـــة ، في النظام الاجتماعي أو التحصيل التربوي ، في النظام الاقتصادي أو البناء السياسي ، في القانون أو في القضاء ، في الشؤون الداخلية أو العلائق الدولية . وكل مفسدة ذات تأثير غريب لا نتهاون في التنازل بأي قدر في هذه المسألة. كما وإننا مصممون على أن نفعل ما نعتقد به. وهـذا يغيض جداً لأولئك الذين يريدون المخادعة باسم الاسلام ، فسياستهم هي السير عمداً ضد الاسلام في جميع مناحي الحياة . ومـــع ذلك يتشدقون دوماً بالعمل له، حتى تبقى الأمة متعلقة بهم بتأثير ذلك الخداع. وجريمتنا الثانية هي أننا نحاول إيجاد رجال ذوي خلق قوي متين ، فنحن لا نضم الناس إلى زمرتنا إلا بعد تمحيص خاص ، وكل من ينضم إلى الجماعة الاسلامية يفعل ذلك بعـــد تفكير عميق ، وبعد روية . وإذا سلك هذا السبيل فإن حياته كلية تتعدل طبقاً له، وهو لا يخلد إلى الراحة مقتنعاً بمجرد التصريحات باللسان عن عقيدته، ولكنه يحاول أن يعيش لما أقرّ به . وأن يجري التغييرات اللازمة في سلوكه، وأخلاقه. فالكبت والاضطهاد لا يغيران شيئاً فيهم . وهم يجاهدون علناً ، فإن هذا صالح وهذا منكر ، والسجون بالنسبة لهم شيء لا يخشى أمره ، بـل هي بالنسبة لهم تكون معسكرات تدريب روحي وأخلاقي » .

وحتى أشد التقدميين عتواً ، الذين فرضوا قانون تنظيم الاسرة أثناء الاحكام العرفيـة ، اتهموا مولانا المودودي بتشويه تعاليم الاسلام ، عندما وقف بجانب السيدة فاطمة جناح لمنصب الرئاسة . فأجاب على ذلك في الرسالة المذكورة آنفاً :

« والآن سأتعرض باختصار لهذه المشكلة ، وهي هل يجوز للمرأة أن تكون

رئيسة دولة ؟ فهل يكون من الخطأ إذا وضعت أمـام هؤلاء الأشخاص المعنيين بالأمر بعض الأسئلة ؟ فهل يجيز الاسلام للمرأة أن تكون وزيرة أو سفيرة؟ وهل التعليم المختلط والاختلاط الحر بين الرجال والنساء في المجتمع ومكاتب وظائفهم أمور مرغوب بها في نظر الاسلام ؟ هل يسمح الاسلام للمرأة المسلمة أن ترقص علناً وأن تخوص في الاستعراضات الرياضية التي تنظمها الحكومة ؟ هـل يسمح الاسلام حقيقة للفتاة المسلمة أن تصبح مضيفة في الطائرة تقـدم المشروبات الروحية للمسافرين ؟ فإن كان كل ذلك يسمح بـه هنا في الباكستان فكيف يستفيقون على الاسلام فقط عندمـا تقفز مسألة انتخابات الرئاسة إلى مكان الصدارة ؟ وسيكون في صلب الموضوع حقاً أن نتساءل فـيما إذا كان المقياس الوحيد لرئاسة الدولة في الاسلام هو كون الرئيس ذكراً ، ولا تتوفر فيه أية صفات أخرى ؟ فإن حدث ان ووجهت الامة بوضع توجب عليها فيه أن تختار واحداً من بين شخصيتين : الأول منهما امرأة ، وهي السيدة فاطمة جناح — ولا شيء يؤخذ عليها مطلقاً إلا أنها امرأة — بينما الثاني رجل ، ولكنه خلو من تلك الصفات الحسنة ، التي هي ضرورية للرئاسة الفاضلة العادلة ، فهل يستطيع أي إنسان عنده أقـل معرفة بدائية في الاسلام أن يترك الأول ويصوت بجانب الآخر » ؟!

وخلال المحاولة الهندية الغادرة لتدمير باكستان في سبتمبر سنة ١٩٦٥ ، ألقى المودودي خمسة أحاديث من إذاعة باكستان في لاهور ، وأعلن فيها ان القتال دفاعاً عن أرض الوطن هو عين الجهاد . وقـد أكد للشعب ان ليس الجنود في جبهة القتال فقط بل كل العمال النافعين ، سواء كانوا في حرفهم أو في التجارة أو الصناعة أو الزراعة يخوضون الجهاد . وان ما ساهمت به هذه الأحاديث اللاهبة في المجهود الحربي لا يمكن أن يقدر . فقد ارتفعت معنويات الباكستانيين نتيجة لذلك إلى السماء ، فـلم تعظم عندهم تضحية ، ولم يدخروا وسعاً في الدفاع عن الأمـة . فاندفع الآلاف من الرجال والنساء ، وحتى الولدان مسرعين يتبرعون

بالمـــال والجوهر والغذاء والكساء لمنظمة الدفاع الوطني ، كما لم يدخر مولانا المودودي جهداً في إحقاق الحق في كشمير ، فقد هاجمت أحاديثه من اذاعة أزاد كشمير في مظفر آباد بأقوى لهجة وأقساها الوحشية الهندية ضد مسلمي كشمير. ولقد عارض مولانا المودودي قرارات هيئة الأمم المتحدة القاضية بوقف إطلاق النار التي عمل بهـا في ٢٤ سبتمبر ١٩٦٥ ، كما عارض قرار طشقند في العاشر من يناير سنة ١٩٦٦ على أساس أنها تمثل انتصاراً سياسياً كاملاً للهند ، وتوجد حلاً عادلاً للمشكلة الكشميرية ، لا يمكن تطبيقه في الحقيقة .

ومنذ ان ارتكبت اسرائيل عدوانها اللانساني ضد مصر وسوريا والأردن في الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، فقد سخر مولانا المودودي كل قواه في مناصرة إخواننا العرب لتحرير فلسطين تحريراً كامـلا ، وعلى الأخص الأماكن المقدسة في بيت المقدس من الاحتلال الصهيوني .

وفي دورة انعقاد مؤتمر العالم الإسلامي المنعقد في مكة في مارس سنة ١٩٦٦ أكد المودودي بصفته أحد مؤسسي هـذه الرابطة على الحاجة الملحة لكل قطر إسلامي في أن يصبح مكتفياً بذاته عسكرياً ، وغـــير معتمد على أمريكا ، أو على الاتحاد السوفياتي ، أو أية قوة أجنبية أخرى. ثم وجه نداءاً إلى مسلمي العالم قاطبة أن ينبذوا القوميات ، وأن يتحدوا كتلة متراصة للذود عن أنفسهم ، وفي سبيل الإسلام في كل مكان . ثم أعلن بـأن الإسلام هو المبدأ الوحيد القادر على توحيد الأجناس والأمم في أسرة واحدة . والذي يمكن أن يكون أساساً لدولة للعالم بأسره . والقادر على إبراز العدالة الدائمة والسلام العالمي إلى حيز الوجود .

لقد جاء في رسالته « وحدة العالم الإسلامي » بهذا الخصوص ما يلي :

« ان الإسلام لم يضع عقيدته في المساواة بين البشر كفلسفة جامدة ، ولكنه بنى مجتمعاً على أساس تلك العقيدة . فلقد جمع في ذلك المجتمع الأجناس والأمم المختلفة على أساس المساواة الكاملة بين كل الأفراد . وقـد اجتث منه كل تمييز على أساس الجنس أو اللون أو اللغة أو الوطن . وليس ذلك فقط ... بل أوجد

الإسلام دولة عالمية على أساس تلك المثل نفسها، وسيّرها بنجاح . فقد كان العالم الإسلامي بكامله يحكم بنفس القانون ، وكان المسلمون جميعهم يشكلون أسرة واحدة . فإذا دخل شخص ما في الإسلام بغض النظر عما إذا جاء من الشرق أو من الغرب ، فإنه يصبح في الحال عضواً في المجتمع الإسلامي يتمتع بنفس الحقوق والامتيازات ، فسواء كان زنجياً ، أو فارسياً ، أو قبطياً ، أو بربرياً ، فإنه يقف في المجتمع الإسلامي على قدم المساواة مع آل بيت رسول الله ﷺ وأصحابه وأتباعه العرب، فيتساوى بهم اجتماعياً ، ويستطيع أن يحوز أرفع الدرجات في المجتمع الاسلامي على أساس خلقه وتقواه . فالمؤمن بالاسلام مهما كان جنسه أو موطنه الأصلي ، أو لغته ، أو لونه ، هو أخ لكل مسلم آخر ، وأينما انتقل في المجتمع الاسلامي فإنه يتمتع بما يتمتع به غيره من المسلمين من الحقوق ، والمسلم في أية بقعة في العالم يمكنه أن يذهب إلى أي قطر مسلم آخر دون أية قيود ، وينتقل حراً في ذلك القطر ، ويمكث فيه كما يشاء ، ويعمل في أي عمل ، ويحتل أرفع مركز في الحكومة في ذلك القطر ، ويتزوج دون عناء . وتاريخ الاسلام مفعم بالشواهد ، حيث يخرج المسلم من دياره ويعيش في ديار أخرى لعشرات السنين ، فربما كان يتلقى العلم في قطر ، ويشتغل بعد ذلك في عمل في قطر آخر، ثم يصبح وزيراً ، أو قائداً عاماً للجيش في قطر ثالث ، وربما ينتقل بعد ذلك إلى قطر آخر حيث يقيم ويتزوج . وابن بطوطة الذي جاب الأقطار الاسلامية المختلفة لمدة عشرين عاماً ، هو مثل مشهور على ذلك، فلم يحتج إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول لأي من هذه الأقطار ، ولم يُسأل في أي مكان عن جنسيته، ولم تقف في وجهه عقبة في تحصيل رزقه من أي مكان ، ولم يحتج لأي إذن لزيارة أي مكان ولم تحدد له فترة إقامة ما ، وكان إذا احتاج لأي عمل ، ومع أية حكومة ، يحصل عليه دون صعوبة . ولقد وصل إلى الهند إبان حكم السلطان محمود توغلاق وكونه جاء من أقصى ركن في المغرب مسقط رأسه ، لم يقف في وجه تعيينه قاضياً في الهند . ولقد أرسله السلطان بعدئذ سفيراً له في الصين. وذلك يثبت ان ليس ثمة شيء وقف حائلاً دون دخوله السلك السياسي. وهذا يظهر بجلاء انه

في ذلك الوقت لم تكن فكرة الترابط بين الدول هي الفعالة فحسب ، بل فكرة المواطنة المشتركة أيضاً . وكانت القوة البشرية في العالم الاسلامي بأسره ميسرة لكل بلد إسلامي . وكان الدفاع عن بلاد المسلمين وحمايتها من مسؤولية المسلمين كلهم . وقد سادت تلك الحالة في العالم الاسلامي حتى بداية القرن التاسع عشر وأي دليل أكبر من ذلك على ان الاسلام لم يوجد فقط الأسس النظرية والمبدئية لفكرة الدولة العالمية ، التي يتوق إليها المفكرون في يومنا هذا ، بل إنه في الحقيقة أوجد مثل هذه الدولة ، وجعلها قائمة تعمل لعدة قرون .

فأينما ذهبنا من أندونيسيا إلى المغرب ، فالمسلمون لهم ثقافة مشتركة بين كل المؤمنين بالاسلام . ومبادىء هذه الثقافة تبدو جلية في كل الأقطار الاسلامية على السواء . فأينما حل المسلم فإنه في لحظة سماعه الأذان للصلاة يستيقن أنه بين اخوة له في العقيدة ، فهو فرد من جماعة المسجد كأي مواطن مسلم . ولا يوجد بين جماعة المصلين من يعتبره غريباً ، بل انهم يتدافعون ليعانقوه عندما يعلمون أنه قادم من قطر إسلامي آخر . وقد لا يعرف لسانهم ولكن « السلام عليكم » هي طريقة التحية المشتركة بينه وبينهم . وأشكال الصلوات ومضمونها واحد من أندونيسيا إلى المغرب . وتستطيع جماعة المصلين أن تختاره ، وهو الغريب الوحيد ليؤمها في الصلاة ، وكذلك هو الغريب الوحيد يستطيع أن يؤدي صلاته مؤتماً بإمامهم . وأينما تحرك خارج المسجد في المجتمع الاسلامي في تلك البلد ، فإنه يجد أواصر الثقافة تربطه بالمسلمين من أهل تلك البلد ، وهو يستطيع أن يؤاكلهم وهو واثق من أن جميع المحرمات بغيضة له ولهم على السواء . وقواعد النظافة تراعى من قبله ومنهم على السواء ، وأي بلد يزوره من بلاد المسلمين تجد الطبقة المثقفة ، وعامة الناس على السواء يستفسرون عن أحوال بلده كما لو انهم كانوا أقرباءهم ، فإن علموا أنهم في يسر حمدوا الله على تلك الأنباء السارة ، وتهللت وجوههم بالبشر ، وان لم تكن الأنباء مسرة شعروا بالحزن كما يشعر أهل بلده إذا علموا بمصيبة مواطنيهم ، وليس ذلك فحسب . فكل الشرائع

التي تنظم الزواج والطلاق والميراث وغيرها في بلاد المسلمين ، تتشابه فيما بينها. حتى ان المواطن من بلد ما لا يجد صعوبة في الزواج من واحدة من قطر آخر. وهذه الأحوال لا توجد في أي مكان آخر في العالم ما عدا العالم الاسلامي . وهذا يثبت على وجود أواصر عميقة قوية بين بلدان العالم الاسلامي بأسره ، أساسها الشعور المشترك ، والتعاطف المتبادل والثقافة المشتركة والمدنية الواحدة . وتلك أواصر لا تستطيع أية قوة أن تنال منها ، حتى في عصر عبادة القوميات هذا . وبالإضافة إلى ذلك فإن جميع بلدان العالم الإسلامي من غربه إلى شرقه ، متلاصق بعضها إلى بعض جغرافياً ، فلماذا لا يتحدون إذن ليحلوا مشاكلهم العامة ، ويساعد بعضهم بعضاً للتقدم والتطور ؟! إن الواحد ليأخذه العجب من اولئك الذين يعارضون وحدة الدول الإسلامية على أساس أن تجمعاً مثل ذلك على أسس دينية هو تجمع غير سليم .

ان الواحد ليأخذه العجب من أن تشابك الأيدي باسم الشيوعية هو مقبول وحكيم . وكذلك إقرار اللون كأساس للتجمع ... وان الاتحاد باسم الله وباسم دينه هو الحماقة !!!

والآن ، وقد استعاد المسلمون حقهم في بناء أنفسهم ، فإننا نجد أعداء الإسلام مرة أخرى يشغلون أنفسهم بالدعوة للقوميات التي يأملون أنها ستمنع المسلمين من توثيق عرى الوحدة القوية بينهم . ولا شيء يفزع القوى العالمية ، والصهيونية ، والاستعمار الهندي الناشيء ، مثلما يفزعها بعث الإسلام الوحدة الإسلامية . فإذا ما جمع المسلمون صفوفهم ، وهم يعدون حوالي ٦٠٠ مليون ، فإن ذلك يعني نهاية جبروتهم واستغلالهم لبلاد المسلمين . فالصهيونية تدرك جيداً ، أنه إن جاء يوم وحدة المسلمين ، فإن يوم نهاية اسرائيل يكون في متناول اليد . وان ذلك الشعور يشاركهم فيه من يحلمون بالسيطرة والنفوذ القوي الهندي على آسيا وأفريقيا . وتخشى القوى الاستعمارية أن تجعل هذه الوحدة أن من المستحيل لها التلاعب بمقدرات العالم الإسلامي ، كما كانوا يعملون في الماضي ، حيث ينصبون

ألعوبة هنا وأخرى هناك .. وفي الفوضى التي تطوّق العالم الإسلامي اليوم . فإن الدعوة لمؤتمر قمة إسلامي بعثت آمالاً جديدة . ومن هنا فإنـــه في الوقت الذي يتوجب على المسلمين أن يرحبوا بالصداقة والتعاون الذي يأتي من أي بلد، فعليهم أن يبقوا متيقظين إزاء القوى العالمية التي تتربص بهم دائماً، لتستغل تأخرنا وفرقتنا. وفي الحقيقة فإن ذلك يزيد في الإلحاح على المسلمين أن يتقاربوا كي تصبح قوة كل دولة منهم قوة للجميع ، وهذا هو الطريق الوحيد الذي يستطيع بـه المسلمون أن يصونوا استقلالهم ، ويلعبوا دوراً صحيحاً بناءاً في الشؤون العالمية ، ويحققوا نهضتهم التي طالما رنوا اليها [١] .

ولقـــد انتقد مولانا المودودي طيلة أيام حياته مساوىء الحكام دونما وجل ودونما اعتبار لسلامة شخصه ولراحته، وهو وحركته يشكلون أقوى حصن في العالم الإسلامي قاطبة في وجه حملات الفلسفة المادية والدنيوية والإلحادية ، وهو العدو اللدود لكل المحاولات التي يقوم بها التقدميون لتغيير الشريعة ، وبالأخص الشرائع التي تتعلق بالأحوال الاجتماعية ، والأسرة ليجعلوها متلائمـة مع النظم الدستورية الغربية الحديثة ، كما أنه هو أقوى خصم لكل سياسة وطنية أو دولية للحد من تزايد السكان بواسطة موانع الحمـل ، أو الاجهاضات ، أو العقم ، على أساس انها تتعارض مـع تعاليم الإسلام . وفي سنة ١٩٦٢ نشر مقالته « الإسلام وتحديد النسل » بيّن فيها بالدليل القاطع النتائج القاتلة للطرق المصطنعة لتقليل السكان ، ومن وجهة نظر فردية ، واجتماعية ، وقومية ، ودولية ، واقتصادية ، واخلاقية . وقد منع هذا الكتاب من النشر بقانون رسمي منذ التاسع من أغسطس سنة ١٩٦٦ إلى العـاشر من مارس سنة ١٩٦٧ . إذ أن السلطات خشيت أن يفسد عليها برنامجها الوطني لتنظيم الأسرة .

ولمـدة ثلاثين عاماً ، خاض المودودي معركة لا هوادة فيها مع هرطقات ،

---

(١) وحدة العالم الإسلامي – المودودي .

كتلك التي تنكر الحديث الشريف . والتي يقودها غـــلام أحمد ، والقاديانية في رابواه . والحركة الأحمدية في لاهور ، التي تقوم على ادعاء ميرزا غلام أحمد بأنه « المهدي » و « النبي » . وقد أسهب في بحث الهرطقة القاديانية في كتيبه « خاتم النبوة » ، الذي نشر سنة ١٩٦٥ . والذي يتناول أيضاً موضوع المسيح الدجال ، ورجوع المسيح ﷺ ، والإمام المهدي . ويفضح فيه النوايا التوسعية الاسرائيلية والمؤامرات الصهيونية على العالم الإسلامي .

وقد فاقت منجزات مولانا المودودي في الكم والنوع ، كل من سبقه في ميدان الكفاح لبعث الإسلام ، وهو لم يحز معرفة تامة بالعلوم الإسلامية فحسب ، بـل وهب بصيرة نافذة كذلك في المعرفة الدنيوية الحديثة . ومع أنـــه ثقف نفسه بنفسه تقريباً في كل ذلـــك إلا أن معارفه المكتسبة موسوعية . فهو يستطيع الحديث والكتابة في الدين والفلسفة ، أو في الفن والعـــلم ، أو في السياسة والاقتصاد على حد سواء . وقد استغل معرفته الجمة ، التي حازها خلال أربعين عاماً من سني حياته ، ليدحض بكل قوة ، كل ريبة عند خصومه في علو النظام الإسلامي على كل نظم الحياة الأخرى . ولقـد أبرز بعلمه الواسع كل مظهر من مظاهر الإسلام بدقة متناهية بالنسبة للمثل المادية المعاصرة ، في أكثر من مائة كتاب ورسالة قادرة على استقطاب عطف الجيل الناشىء من الشباب المثقف . وليس ذلك فحسب ، ولكنه في سلوكه النقي في حياته الخاصة والعامة ، أظهر للعـــالم مقدار صحة تطبيقه للقول بالفعل . فهو ككل الخلّص من المجاهدين في سبيل الإسلام قديماً وحديثاً ، قد وهب نفسه كلية في سبيل الله ، لا يعرف الأنانية ولا الخوف ، وقد عصم في سلوكه وخلقه ، فهو أبـداً متواضع حيي ، رؤوف يمقت التملق ، وينبذ العجب والغنى والترف ، ويصر على البساطة في بيته لنفسه ولأسرته . ولم يقنع مولانا المودودي بتكريس نفسه للإسلام ، بل أفلح في التأثير في زوجته وأبنائه الستة وبناته الثلاث ، ليسيروا في نفس الطريق . ولقد كانت زوجته لسنوات عدة على رأس الجناح النسوي في الجماعـة الإسلامية في باكستان

الغربية ، وهي فضلاً عن أنها ربة بيت ممتازة وأم تقضي الكثير من وقتها الفائض في دراسة القرآن والحديث ، وتلقي المحاضرات المتكررة للجموع الكثيرة من النساء اللواتي يتعاطفن معها في كل الأعمار ، واللواتي يجتمعن بهـا في بيتها . ويساعده ابنه الأكبر عمر فاروق في الاشراف على « ترجمان القرآن » ونشرها . كما يعاون والده في الأعمال الأخرى كذلك، وكل أبنائه الباقين مطيعون لوالديهم يعاونونهم في مجهوداتهم، متمسكون بدينهم، أذكياء . وعلى قدر عال من الثقافة في الشؤون الإسلامية والمواضيع المعاصرة. وفي عصر كل يوم يجلس مولانا المودودي لعامة الناس دون قيد . حيث يتحلقون في صحن داره من جميع الأعمار ، ومن مختلف الأجناس يبحثون معه كل مـا يريدون معرفته عن الإسلام ، وصلته بالشؤون الوطنية والدولية . ولقد أشار إلى أحـد أبنائه عندما كنت أعيش في بيته قائلاً : هذه هي أسرة والدي . هذا ويقضي مولانا المودودي الوقت الكثير في الرد على الرسائل العديدة التي تأتي باسمه من جميع بقاع العالم، من المسلمين وغير المسلمين ، الذين يتشوقون لمعرفة أكثر عن الإسلام .

والقليل — ان وجد العاملون للبعث الإسلامي قديمـاً وحديثاً — من جمع الكتابة والخطابة والتطبيق العملي بالدرجة الفعالة كمولانا المودودي .

لقـد كتب المودودي في كتابه « موجز تاريخ حركات البعث في الإسلام The Revivalist Movements in Islam » يقول :

« ومع ان المجدد لا يكون نبياً إلا أنه يكون روحياً قريباً من النبوة ، فهو يتصف بالعقل الراجح والبصيرة النافذة والتفكير المستقيم الذي لا يميل، والمقدرة الفذة على رؤية الصراط المستقيم واضحاً في كل معالمه ، وعلى المحافظة على الاتزان والقوة على التفكير المستقل عن كل النزوات الاجتماعية المعاصرة والقديمة وغيرها . ويملك الشجاعة لمحاربة مفاسد العصر ، والقدرة الأصيلة على القيادة والإرشاد ، وكفاءة فذة لتحمل أعباء الاجتهاد ، والعمل من أجـل إعادة البناء . وبجانب هذه الحقائق ، يجب أن يكون قـد حاز على معرفة شاملة عميقة للإسلام ، وأن

يكون مسلماً حقيقياً في الفكر والعمل، وأن تكون لديه الفطنة في تمييز الإسلام من غيره في أدق التفاصيل ، وأن تكون لديه القدرة لاستخلاص الحقائق من اخلاط الكذب المزمن . وهذه هي الصفات التي تميز النبي ، ولكن بدرجة أعلى والحقيقة الأساسية التي تميز النبي عن المجدد ، هي أن النبي يختار لرسالته من قبل الله – جل وعلا – وهو مدرك تماماً لاختياره هـذا ، ويتلقى الوحي وهو يبدأ رسالته باعلان نبوته، وعليه أن يدعو الناس له، وقبول الناس دعوته أو رفضهم لها ، يقرر كونهم مؤمنين به أو كافرين به . وبالمقابل من ذلك ، فالمجدد لا يحتل أي مركز من هـــذه المراكز ، فهو لم يختره أحد . وغالباً لا يدري إذا كان مجدداً أم لا . ولكن الناس يعرفونه مجدداً بعد موته، بحسب نوعية العمل الذي قام به ، وهو لا يبدأ حياته بأي ادعاء ، كما أنه لا يخول ذلك . إذ أنه ليس من المفروض على الناس تصديقه كي يظلوا مسلمين . وهـا هي المجالات المختلفة للمنهج التجديدي في الاسلام التي يسير فيها المجدد :

أولاً – تشخيص العلل الجارية ليختبر الأحوال والظروف السائدة في عصره خبرة تامة، ويعين بالضبط مدى تغلغل الجاهلية ،وأين تغلغلت، وكيف تغلغلت، وما هي جذورها، وإلى أين تمتد، وما المكانة التي يحتلها الاسلام في ذلك العصر.

ثانياً – خطة الإصلاح، ليعيّن بالضبط أين يضرب الضربة ، بحيث تباد القوة غير الاسلامية ، وتمكين الاسلام من أن يتملك زمام الحياة كلية .

ثالثاً – تقدير للأبعاد والموارد الذاتية . فيزن ما في يديه من القوة ويقدرها، ويعيّن خطوط عمله لوضع الاصلاحات موضع التنفيذ .

رابعاً – ثورة فكرية ، ليصوغ الأفكار والمعتقدات ووجهات النظر الخلقية للشعب في قالب إسلامي ، وليصلح منهج التعليم ، ويحيي العـــلوم والأوضاع الاسلامية بشكل عام .

خامساً – إصلاحات عملية ، ليقتلع جـذور العادات السيئة ، وينظف الاخـلاق ، ويبعث روح تطبيق الشريعة ، ويعد الرجال القادرين على القيادة الاسلامية .

سادساً – الاجتهاد ، ليتفهم أصول الدين الأساسية ، ويحـكم على الثقافة المعاصرة ومناحيها من وجهة النظر الاسلامية . ويعين التطويرات التي يجب أن تتخذ في أشكال الحياة الاجتماعية القائمة ، كما تريد الشريعة ، بقصد إدراك نهاياتها وتمكين الاسلام من متابعة قيادة العالم في الأوضاع الاجتماعية المصلحة .

سابعاً – الدفاع عن الاسلام ، ليواجه القوى السياسية التي تريـد اضطهاد الاسلام وتدميره ، فيكسر شوكتها كي يجعل من الاسلام قوة حية .

ثامناً – بعث النظام الاسلامي ليمتلك زمام السلطة من أيدي غير المسلمين . ويعيد عملياً تأسيس الحكومة بشكل خلافة ، أسوة بالرسول الكريم ﷺ .

تاسعاً – الثورة العالمية ، فلا يرضى بإيجاد النظام الاسلامي في قطر أو أكثر يقطنه المسلمون . بـل يوجد حركة عالمية قوية ، بحيث تكون قادرة على نشر الرسالة الثورية للاسلام بين الجنس البشري عامـة . والعمل على تمكين الاسلام ليصبح القوة الثقافية السائدة في العـالم ، وعلى استلام زمام القيادة الخلقية والفكرية والسياسية للجنس البشري .

وحتى لو استطاع شخص ما أن يوجد عملاً ذا أهمية في أحد هذه المجالات ، أو في عدة منها ، فإنه يعتبر مجدداً . ولكن مجدداً كهذا يعد مجدداً محدوداً لا واحداً مثالياً . فالمجـدد المثالي (أو الإمام المهدي) لا يكون إلا شخصاً يحقق بنجاح تلك الأهداف كلها التي ذكرت آنفاً ، كي يجعل من نفسه خليفة للأنبياء .

وانها لحقيقة واقعة ، وليست مجرد رأي ، أن مولانا المودودي قد أفلح في سبع نقاط من هذا المنهج ، ويعمل الآن جاداً في النقطتين الأخريين . إلا أنـه لا يسعى للسلطة الشخصية مع ما أحرزه من كل هـذه الانجازات . ولقد صرح

في أكثر من مناسبة « انه سيكون سعيداً بخدمة دولة إسلامية أصيلة ، بطاقته المتواضعة ، ولكن لا يقبل بأية حال من الأحوال ، حتى ولو كان أهم المناصب، في ظل حكم دنيوي قومي » .

ولقد درس مولانا المودودي كل الحركات الاسلامية السابقة بعمق شديد ، ولاحظ بكل حرص نقاط الضعف والقوة فيها . وهو لذلك يستطيع أن يفيد من أخطائها ، كما يستطيع الإفادة من إنجازاتها . فيتجنب بذلك أي منزلق . فيحقق بذلك العهد حيث فشل سابقوه ، فإن مسعاه إن شاء الله ناجح .

الجماعة الاسلامية في باكستان

يعود تاريخ إنشاء الجماعة الاسلامية إلى سنة ١٩٣٣ ، عندما بدأ مولانا المودودي يشرح بانتظام منهاج الحياة الاسلامي ، كما فصلته تعاليم الاسلام في صحيفته الشهرية « ترجمان القرآن » . ولقد كرّست « ترجمان القرآن » عناية خاصة بالمشاكل التي نجمت عن تأثيرات المدنية الغربية على المسلمين . ولقد شجب بكل قوة من خلال مناقشاته القوية وأسلوبه الأدبي الرقراق، تلك الفلسفة المادية التي أفسدت عقول الناشئة من المسلمين ، كما نجح في دفاعه عن علو منهج الحياة الاسلامي .

وفي سنة ١٩٣٧ ، بدأ المؤتمر الهندي الوطني برنامجه الثقافي الاجتماعي. وكان ذلك ملحقاً أشد الضرر بمصالح المجتمع المسلم. فكتب مولانا المودودي سلسلة من المقالات في « ترجمان القرآن » ونشرت أخيراً في كتاب . وذلك كي ينبه المسلمين في الهند إلى خطر التسلط الهندوسي . وليقنع مسلمي الهند أنهم أمة منفصلة متميزة . فأسفرت هذه الفترة من حياة الحركة – ثماني سنوات ، إلى أن قام مولانا المودودي بدعوة كل من يشاركه الرأي لتنظيم أنفسهم . وذلك بعد أن تحقق من الحاجة إلى جهود جماعية للوصول إلى وجود عملي لمنهج الحياة الاسلامي. وهكذا التقى مولانا المودودي مع خمسة وسبعين ممن ناصروه في لاهور في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ ، وأوجدوا الجماعة الاسلامية .

وهدف الجماعة الاسلامية المعلن هو السير بالحياة الانسانية على أساس الخضوع لشريعة الله وإطاعتها، كما نزلت على الرسول الكريم محمد ﷺ في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وذلك في كل مسالك الحياة المختلفة : في العقيدة والمثل والدين والأخلاق والفضيلة والسلوك والتعليم والتربية والنظم الاجتماعية والثقافية والنظم الاقتصادية والبناء السياسي والقانون والقضاء والحرب والسلم والشؤون الداخلية والعلاقات الدولية . ولقد شمل البرنامج الأول للجماعة الاسلامية مرحلتين – دعوة حية لمبادىء الاسلام تبعها تدريب صارم للمجتمع الاسلامي في شبه القارة الهندية ، ليترجم هذه المبادىء إلى واقع ملموس، فلقد تلوث المجتمع المسلم في الهند بتأثير الهندوسية الوثنية لعدة قرون ، بالكثير من العادات بدلاً من تعاليم الاسلام النقية ، وليزداد الطين بلة ، فقد استغل ضعف المسلمين من قبل الاستعمار البريطاني الذي بدأ بالتالي يقذف بهذا المجتمع الضعيف في قالبه الخاص . فبعد أن هزم المسلمون جسدياً في أرض المعركة ، أصبحوا مستعبدين فكرياً لمن عليهم . ونتيجة لذلك فقد كرهوا كل ما هو مألوف ، وقدسوا كل ما هو أجنبي .

وفي هذه المرحلة بدأت الجماعة الاسلامية تشن هجوماً مزدوجاً ضد كل المؤثرات التي تعارض الاسلام، وضد الوثنية الهندوسية بوجه خاص، وضد المادية والإلحاد الجديدين . فتظهر مفاسدهما المتأصلة فيهما ، وتعرض العلاج الذي يقدمه الإسلام .

جاء في كتاب المنهاج الانقلابي للإسلام بقلم المودودي ما يلي :

« هناك فهم خاطىء ينتشر بيننا . ذلك أنه لو كان مسلمو الهند جميعاً على خير تنظيم ، ولهم كيانهم المستقل ، فإن ذلك سيكون البلسم لكل أمراضنا ، وهذا في الحقيقة برنامج قوي . فإن أية أمة تتطلع إلى المنعة والعظمة والقوة ستنهج الطرق التي تحقق لها هذه الغايات، سواء كانت أمة هندوسية أو من السيخ أو الألمان أو الطليان . والزعيم الذي يكرّس نفسه لخدمة أمته ، الحاذق في

ملائمة خططه واستراتيجيته ، لتتفق مع احتياجات الوقت ، والموهوب بالفطرة وبالقدرة على حمل الغير على تنفيذ أوامره ، يكون دوماً لائقاً لقيادة أمته في طريق الطموح ، سواء كان هتلر أو موسوليني . وتصير السلطة في هذه الحال إلى أيدي أفراد بعيدين كل البعد عن الاسلام في أفكارهم وسلوكهم ، ولو أنهم محسوبون على الاسلام في سجلات الاحصاء . وامتلاك القوة بواسطة أناس أمثال هؤلاء ، لا يعدو أكثر من أن نبقى حيث نحن الآن تحت سلطة حكومية غير مسلمة . لا بل ربما نكون في حالة أردأ ممـــا نحن عليه . ذلك ان دولة وطنية تحمل اسم الاسلام ، ستكون أجرأ وأقل خوفاً من دولة غـــير مسلمة في اضطهاد الثورة الاسلامية ، ودولة وطنية كتلك ستحكم بالاعدام ، وبالخروج على القانون ، على أعمال لا تعاقب عليها الدولة الغير إسلامية إلا بالسجن البسيط . وبدون تمييز ، سيسمى كل قائد لهذه الدولة الاسلامية بالغازي في حياته ، وسيعتبر من «الأولياء» بعد وفاته ، لا لشيء إلا لأنه ولد بالصدفة مسلماً » .

وهكذا ، فبعد تقسيم الهند سرعان ما وضح للجماعة الاسلامية أن ليس لاولئك الذين امتلكوا زمام الأمور أية نية في إقامـة دولة إسلامية حقيقية في باكستان . ولكنهم أرادوا استمرار شرعية الحكم البريطاني ليس إلا .

« يجب أن تفهموا أن رسالة الجماعـة الاسلامية الحقيقية ليست مجرّد تغيير الأيدي التي تسيّر الادارة الحالية ، أو نظام الحياة الجاري . ولكن لتغير النظام نفسه ، وان مساعينا لا تتجه للمحافظة على نظام الحياة – الذي ورثناه عن بريطانيا – وتركه يسير على نفس الأسس ، ونقنع بمجرد تغيير طفيف ، فيسيره أناس شرقيون لا غربيون ، فلا يسيره البريطانيون بـــل الهنود ، ولا يسيره الهندوس بل المسلمين . فـلا فرق البته في رأينا ، إذا تغيرت الأيدي ، ونحن لا نركز أبصارنا على الأيـدي التي تسير النظام ، ولكن على المبادىء والأسس التي تسيّره وتختفي وراءه . فإن كانت هذه خاطئة فعلينا حينئذ أن نقاومها ، وأن نجاهد في استبدالها بأسس صحيحة غير قابلة للفساد » .

وبالتالي ، فإن من أول الواجبات العظيمة الملقاة على عاتق الجماعة الاسلامية هو تحريك الرأي العام ، ليكون قادراً على الضغط على الحكومة ، لتلزم نفسها بدستور يحدد بالضبط أهداف الدولة الجديدة ورسالتها الموعودة . ولقد تحققت الجماعة الاسلامية أن وضع دستور صحيح للباكستان كان أمراً حاسماً جداً لتقرير صبغتها الاسلامية . فإن وجود الباكستان نفسه وتماسكها وتكاملها ووحدتها ، كل ذلك يعتمد على طبيعة الدستور الجديد . وهكذا فقد ركزت الجماعة الاسلامية كل جهودها في الضغط على « المجلس الدستوري » كي يدمج في الدستور القرارات ذات الأهداف الشهيرة ، والتي تنص بالتحديد على أن جميع القوانين السائدة يجب أن تتفق مع القرآن والسنة . كما أنه يجب أن لا يقر أي قانون يتعارض مع تعاليم الاسلام. ولقد ضايق ذلك أصحاب السلطة لدرجة أن مولانا المودودي، وميان طفيل محمد،ومولانا أمين أحسن اصلاحي، زج بهم في السجن. ولم يفت ذلك في عضد الجماعة الاسلامية ، فواصلت مطالبتها بإقرار القرارات ذات الأهداف ، إلى أن وافق عليها المجلس الدستوري في مارس سنة ١٩٤٩ .

« ان سياسة الجماعة في حاجة إلى بعض الايضاح ، بسبب سوء الفهم عند بعض الجهات فيما يتعلق بمشاركة الجماعة في السياسة الجارية ، فهم يظنون أن من الأفضل للجماعة أن تحصر نشاطاتها في التبليغ فقط . ويزعمون بذلك أن الجماعة لو عملت ذلك لتجنبت الأنظار الرسمية . ولم يكن ليحدث أي صدام مع السلطات الحاكمة . وموقف الجماعة فيما يتعلق بهذا الأمر في غاية الوضوح . فهي تفكر وتعمل على ضوء التاريخ ، مدركة أن التبليغ الصادق الحقيقي للاسلام لم يكن في يوم من الأيام ، طبقاً شهياً للحكام المستبدين الذين أعمتهم السلطة ، ولم يعبأوا بهدى الله . وعلى النقيض من ذلك ، فهي تعلم أن ذلك النوع الغريب من التبليغ الذي يعتبرونه محدوداً أو يقبلونه ، ويشجعونه في جو من التأييد ، ليس هو التبليغ الذي قام به الرسول الكريم محمد ﷺ ودعا إليه وعلمه وأسسه . ولذلك فإن أي أسلوب في « التبليغ » كانت الجماعة ستختاره ، شريطة أن

بكون الرسالة الاسلامية الصحيحة الانقلابية لنظام متكامل للحياة الانسانية . فكان من المؤكد أن يوجد متعارضاً مع هؤلاء الحكام المفتونين بالفلسفة الدنيوية ، المنهمكين في تعليم الناس ثقافة الغرب وقيمه »[1] .

وبالرغم من الشعارات المتواصلة التي يرفعها أصحاب السلطة ، وبالرغم من الخدمات اللسانية المبالغة التي يقومون بها ، فإنهم يرفضون حتى أدنى محاولة لتحقيق تعاليم الاسلام . فقد كان الجو الحكومي مسمماً بالفلسفة الدنيوية الخالصة والانتهازية ، وملوثاً بكل أنواع الفساد . وقد كانت المدارس والجامعات حيث تزايد شيوع التعليم المختلط ، منهمكة في تخريج شباب دنيوي التفكير ، خلو من كل أثر من الفكر الإسلامي . وكانت الإذاعة والسينما والصحافة تنشر أحط المظاهر الاخلاقية للثقافة المعاصرة . وفي هذا المجال فإن أصحاب السلطة لم يفشلوا في ايقافه فحسب ، بل ساهموا بكل نشاط فيه . وبالتالي فإن الجماعة الإسلامية وجدت نفسها مضطرة لتقود حملة شعبية تحث الناس — من وجهة نظر دستورية — على تنحية الزعامة الحاضرة من مركزها ، واستبدالهم بأناس أكثر أمانة وإخلاصاً ومقدرة ، يخدم للشعب أكثر حباً للاسلام . وكانت هذه الخطوة أكثر إثارة للمسؤولين من أن يحتملوها . وهكذا ، وبدعوى أن الجماعة الإسلامية كانت مسؤولة عن أعمال العنف التي ثارت في البنجاب حول المطالبة باعلان القاديانية خارجة عن المجتمع الإسلامي رسمياً ، فقد قبض على مولانا المودودي وأودع السجن . وفي أثناء وجود المودودي في السجن وضع « محمد منير » قاضي قضاة باكستان تقريره الشهير الذي عرف في كل أنحاء العالم « بتقرير منير » . وكان غرضه أن يظهر مدى ما ستصبح عليه الباكستان من رجعية وتعصب لو حكمت بالشرع الإسلامي الأصيل . ومن النادر أن نجد كتاباً ، حتى بأقلام غير المسلمين ، قام بتشويه وطمس متعمد للاسلام ، ولما يدعو له الإسلام .

---

(١) الجماعة الاسلامية في باكستان — علي أحمد خان .

ولم تألُ الجماعة الإسلامية جهداً في دحض « تقرير منير » دحضاً كاملاً ، نقطة بعد أخرى . وذلك كي تتحاشى أثره السيىء على العلماء الأجانب من غير المسلمين. فثبت بطلان الحجج التي وردت في التقرير ، والتي تعارض الدولة الإسلامية ، بفضل الجهود الشاقة للجماعة . وبالتالي لم يعد العلماء من غير المسلمين يعتبرون « تقرير منير » وثيقة صحيحة .

وأقر أخيراً في سنة ١٩٥٦ دستور يعلن جمهورية الباكستان الإسلامية . ومع أن ذلك لم يكن مكتملاً في كثير من الوجوه ، في نظر الجماعة ، إلا أنه على الأقل يبشر بخطوة قوية في الطريق القويم . ولكن لسوء الحظ ، فإن الحكومات المتعاقبة أهملته جانباً وتجاهلته ، في الوقت الذي كانت الفلسفة الدنيوية ، واللاأخلاقية ، وكل أشكال الفساد تلوّث البلاد . وبعد أن قفز اللواء أيوب خان لتسلم السلطة في اكتوبر سنة ١٩٥٨ ، أعلنت الأحكام العرفية في الحال . وبعد رفع قانون الأحكام العرفية سنة ١٩٦٢ ، وضع الرئيس أيوب للبلاد دستوراً جديداً تماماً ، وضعه وأقرّه بنفسه .

وبعد أن توقف قانون الأحكام العرفية ، طلبت الجماهير أن تفي الحكومة بوعدها بالانتخابات الوطنية الشاملة . ومنذ أن برزت الجماعة الإسلامية بعد قانون الأحكام العرفية ، كمنافس سياسي وحيد ، ذي مطلب لتصحيح الدستور الجديد وتعديله ، ليصل إلى مستوى دستور سنة ١٩٥٦ ، كأبعد ما نصّت على ذلك بنوده الإسلامية والديمقراطية ، فقد وجد المسؤولون أن من الضرورة الشروع في حملة في الصحافة الرسمية ، لتشويه سمعة الجماعة الإسلامية قدر المستطاع . ووصلت الحملة على الجماعة ذروتها في يناير سنة ١٩٦٦ ، عندما حلّت الجماعة الإسلامية ، واعتبرت غير قانونية . وسُجن مولانا المودودي وأبرز زعمائها . فكان من المضحك أنه لوقت قصير ، قبل حدوث ذلك ، فقد اعترف ، حتى أشد الناقدين للجماعة ، بأنها لم تقترف خطأ في خرق قانون البلاد طيلة عمر الباكستان . ولقد قال مولانا المودودي في كلمة أرسل بها إلى الصحافة في نوفمبر

سنة ١٩٦٣ ونشرت في صحيفة (Nawa - i - Waqt) وغيرها من صحف لاهور ، ما يلي :

« إنني أصلاً أعارض كل طرق العمل الخفية التي لا تتفق مع القانون والدستور . ورأيي هذا ليس ناتجاً من مقتضيات الحال أو التهديد ، ولكنه رأي ذو اعتبار كبير . وبعد سنوات من الدرس والتفكير ، توصلت إلى نتيجة ثابتة ، وهي أن احترام القانون لا غنى عنه لوجود المجتمع المتمدين نفسه . وإن أفسدت حركة ما هذا الاحترام مرة ، فإنه يصبح من المستحيل في الحقيقة لتلك الحركة أن تعيد احترام القانون ، عندما تسنح لها الفرصة . وبالمثل ، فإن العمل الخفي يعاني من عيوب متأصلة ، تجعل من أولئك الذين يلجأون إليه خطراً على المجتمع أكبر من ذلك الذي يسعى العمل نفسه لإزالته . وهكذا فإن كل عمل عملته كنت أعمله جهاراً في حدود القانون والدستور السائد . لدرجة أنني لم أخرق حتى تلك القوانين التي كافحتُ بشدة في معارضتها .. لقد حاولت دوماً تغييرها بالطرق القانونية والدستورية ، ولم أسلك أبداً طريق خرق القانون » .

وأخيراً ، وعندما عرضت القضية على محكمة الباكستان العليا ، فقد اتفق أكبر قضاة الباكستان على أنه طالما كانت أسباب حل الجماعة الإسلامية وسجن قيادتها باطلة طبقاً للقانون السائد ، فإن عمل الحكومة كان لذلك باطلاً .

وعند تقسيم شبه القارة الهندية ، سنة ١٩٤٧ ، انشطرت الجماعة الإسلامية ، وبرزت الحركة في الهند تحت قيادة منفصلة ، إلا أنها بقيت محتفظة بنفس المثل والغايات للحركة الأم . ولا يزال فرع آخر للجماعة الإسلامية يعمل في كشمير التي تحتلها الهند . وهناك أيضاً تنظيم صغير للجماعة الإسلامية ، ولكنه نشيط ، يعمل في سيلان .

ويوجد الآن أكثر من ألفي عضو عامل « أركان » في الجماعة الإسلامية . وما يقرب من مائة ألف من الأعضاء المعاضدين « المتفقين » . ويوجد مئات الآلاف من الرجال والنساء في البلاد يتعاطفون مع الحركة ، ولكنهم تمنعهم

ظروفهم الخاصة (كأن يكونون مستخدمين مدنيين) من المشاركة الفعّالة .
ومع أن عضوية الجماعة مفتوحة للجميع ، إلا أنه يجب على كل مَن يسعى إليها أن يظهر ، خلال فترة تجريبية طويلة ، أنه لم يستوعب أهداف الجماعة وغاياتها وأساليب عملها وسياستها وبرنامجها ، ويتفق معها فحسب ، بل ويلتزم بما يطلبه الإسلام في حياته اليومية .

وبعد الانضمام للجماعة ، يجب على العضو أن يغيّر حياته الشخصية في كل النواحي الجوهرية ،فعلى العضو أن يُلمّ بمعرفة إسلامية كبيرة تمكنه من التمييز بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي في أساليب الحياة ، وأن يكون على فهم تام بالحدود التي تنصُّ عليها الشريعة المقدسة ، فيما يتعلق بالأعمال المباحة وغير المباحة . وعليه أن يقوم بكل ما تتطلبه الشريعة ، ويبتعد عن كل عمل تحرّمه تعاليم الإسلام. وعليه أن يقطع كل صلة له بالآثمين والأشرار ، وألاّ يصادق غير الأخيار . وعليه ألا يزاول أية طريقة لكسب العيش يحرّمها الإسلام. وعليه أن يتخلى عن أي مال حرام اكتسبه ، بما في ذلك كل ما سبق للعضو أن استولى عليه . ويُطلب منه أن يسيّر جميع أموره بالتقوى ، والعدل ، والصدق المحض ، وخشية الله . ويؤمل منه أن يعدل في رغباته ، ومكروهاته ، وذوقه ، وعواطفه ، وأهوائه ، لتتفق كلها مع نمط الحياة الإسلامية . وأن ينبذ كل ميوله السابقة التي تتعارض مع الإسلام. ويؤمل منه أن يصرف كل ساعات يقظته في مواصلة كفاحه لإرساء قواعد نمط الحياة الإسلامية .وأن يهجر كل نشاطاته الأخرى – ما عدا ضرورات الحياة العادية – التي لا تساهم في الوصول لتلك الغاية .

والأعضاء « المتفقون » المعاضدون في الجماعة هم كل أولئك الأشخاص الذين يريدون أن يسود النظام الإسلامي في البلاد ، ويرغبون في التعاون مع الجماعة للوصول إلى ذلك . ولكنهم لا يستطيعون ، لأسباب شخصية ، الخضوع لأحكام الجماعة ومسؤولياتها . وحيثما وجد خمسة أو أكثر من « المتفقين » في قرية أو مدينة ، فإن حلقة متآزرة تشكل منهم ، تعمل بإشراف أحد المؤسسين .

ويوجد في الجماعة أقل من مائة عضو في الأركان من النساء ، ولكن توجد الكثيرات من النساء المتعاطفات مع الجماعة . ومتطلبات عضوية الجماعة للنساء هي نفس متطلبات عضوية الرجال . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأعضاء النساء عليهن واجبات خاصة ، كأن تعرّف عائلتها وصديقاتها برسالة الإسلام ، وأن تذكي جذوة الإيمان في قلوب أبنائها . وفي حالة انضمام والدها ، أو زوجها ، أو ابنها ، أو أخيها ، للجماعة ، يجب عليها أن تقوّي من عزيمتهم ، بمؤازرتها لهم بصبرها وثباتها في الأوقات العصيبة . وفي حالة جهل زوجها بتعاليم الإسلام ، واكتسابه الرزق عن طريق غير مشروع ، أو ارتكابه الآثام ، فعليها أن تعمل جهدها بصبر في سبيل إصلاحه ، أو على الأقل تبقى بعيدة ، قدر استطاعتها ، عن أعماله السيئة ، وأن ترفض طاعته في الأمور التي تتنافى مع القرآن الكريم والسنّة المطهرة .

ودرجة الرجل في الجماعة لا يقررها مركزه الاجتماعي في الحياة ، ولا تحصيله الثقافي الدنيوي ، ولكنها تتناسب ودرجة امتثاله لأوامر الله ، وعلوّ منزلته في فهم الإسلام ، وتنظيمه لأمور حياته الخاصة لتتفق مع الإسلام ، ومقدار قدرته في تسيير الحركة ، ودرجة استعداده للتضحية بماله ، وذكائه ، وجهده ، ووقته ، لتحقيق أغراضها .

وتعقد كل شعبة من شعَب الجماعة المحلية اجتماعاً لأعضائها أو اثنين اسبوعياً ، لمراجعـــة أعمالهم في اسبوعهم المنصرم ، وللتخطيط بالمشاورة المتبادلة ، لأعمال الأسبوع التالي . ويُطلب من كل عامل في الجماعة أن يقدم تقريراً بكل نشاطاته المسؤول عنه اسبوعياً ، قبل انعقاد الاجتماع . ويُطلب من كل عضو أن يكون نشيطاً . والتغيّب عن أكثر من اجتماعين أو ثلاثة ، دون عذر مقبول ، هو في حد ذاته سبب كاف لإبعاد العضو من الجماعة . وفي اجتماعات الجماعة الإسلامية ، التي يدعى لها الجمهور ، تلقى أولاً محاضرة يفسر فيها قدر من آيات القرآن الكريم . وتتبعها محاضرة حول تعاليم الرسول الكريم ﷺ ، تستند إلى الحديث

والسنة . ثم تُقرأ مختارات من أدب الجماعة . ويتلو ذلك مداولة للمسائل الوطنية والعالمية . وقد يأتي بعد ذلك بعض الأبحاث في المسائل العامة .

وتحث الجماعة في لقاءاتها على المباحثة الحرة لسياستها ، وبرنامجها ، وسلوك أعضائها الخاص والعام ، ولا عبرة لعلوّ مكانة العضو . ولا يوجد أحد ، حتى أمير الجماعة ، غير خاضع للنقد . ويكون آنذاك من واجب العضو المنتقد ، أن يقنع الحضور بالاعتذار عن مسلكه ، أو تبريره . والغرض من لقاءات الأعضاء في الحقيقة كي لا تفوت أي واحد الفرصة الخالصة ليقول ما يريد ، في حدود اللياقة . وأمير الجماعة ، مولانا المودودي ، يبادر الخطوة دائماً بتقديم نفسه لجميع أنواع النقد كشخص ، وكمسؤول عن سياسة الجماعة . وسياسة المباحثة المكشوفة هذه ، والنقد الخالص ، أبعدت عن الجماعة أي خطر لدخول أية طبقة تتميز بثرائها أو بعوامل أخرى . ولكنه إذا ما اتخذ أي قرار بعد البحث ، يطلب من جميع الأعضاء الالتزام به . وهذا يجنب صفوف الجماعة أي انقسام أو فرقة .

وتركز الجماعة الإسلامية تركيزاً خاصاً على التربية الروحية والخلقية لأعضائها والعاملين فيها . ومكاتب الرئاسة في أكرا ولاهور ، تضع الخطة للدورات التربوية . وتقام معسكرات التربية في القيادات المحلية والفرعية في طول البلاد وعرضها . ويكون التركيز في هذه التدريبات على دراسة القرآن والحديث ، وتطبيقها على الاحتياجات العصرية . وتشرح كذلك قواعد التنظيم ، والإدارة . وتُعقد ، من وقت لآخر ، لقاءات في بيوت مختلف الأعضاء لصلاة قيام الليل ، حيث يُتلى القرآن ويُقرأ الحديث وتُشرح معانيها .

وتُجرى انتخابات حرة بانتظام كل خمس سنوات لانتخاب أمير الجماعة . ويقرر ذلك بالأكثرية البسيطة . وتكشف قواعد الانتخابات في الجماعة ، التي اتخذت في ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، عن التنظيم الديمقراطي الكامل للحركة . ويعين رئيس للانتخابات قبل موعدها بثلاثة أشهر على الأقل . ويعطى صلاحية تعيين مساعدين له إذا لزم الأمر . وتزوّد الرئاسة المركزية للجماعة رئيس الانتخابات

بقوائم كاملة لأعضاء الجماعة ، قبل موعد الانتخابات بستة أيام . ويحق لجميع الأعضاء المسجلين قبل موعد الانتخابات بتسعين يوماً ، طلب أوراق الاقتراع . ولا يحق للأعضاء الداخلين في الجماعة ، بعد هـذا التاريخ ، أن يصوّتوا في الانتخابات . ويعطى كل واحد من المقترعين رقماً مسلسلاً في قائمة الانتخابات . ويكون الرقم نفسه هو رقمه الانتخابي . واسم المقترع ورقمه وعنوانه لا يدرج في ورقة الاقتراع . ولكن كل هذه التفصيلات تُذكر مع رقمه المسلسل في نسخة عن القـائمة . ويحمل الظرف فقط الرقم المسلسل المقترع ، وذلك كي يستطيع المشرف على الانتخابات من التحقق ، عند استلام الصوت ، من استلام صوت المقترع نفسه ، وذلك بالتأشير على القائمة ، ومطالعة الرقم على الظرف .

وفي وقت فرز الأصوات ، تُفتح كل المظاريف في وقت واحد ، وتُفرز كل أوراق الاقتراع ، ثم تحصى الأصوات . ويجري انتخاب أمير الجماعة الإسلامية بإشراف رئيس الانتخابات نفسه . وتصير طلبات الانتخاب لأمير الجماعة ، بعد إعلان نتيجة الانتخابات بثلاثين يوماً . وتعين هيئة انتخابية لانتخاب المجلس المركزي للجماعة من قبل أمير الجماعة . أما تعيين هيئة انتخابية لانتخابات الجماعة ، فتكون عن طريق المجلس المركزي ، وذلك في نفس الوقت الذي يعين فيه رئيس الانتخابات . ولا يوجد مرشحون لأي مركز قيادي في انتخابات الجماعة . وفي الحقيقة ، فإن أية بادرة من بوادر الطمع في السلطة تعتبر مثلبة في حد ذاتها .

وواجبات أمير الجماعة هي :

١ ـ الإخلاص والطاعة لله ، كما نُصّ على ذلك في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فوق كل ما سواه .

٢ ـ أن يفضّل صالح الجماعة ومسؤولياتها على راحته الخاصة .

٣ ـ أن يأمر أعضاء الجماعة بالاستقامة والعدل .

٤ ـ أن يحفظ العهود التي أنيطت به من قبل الجماعة .

٥ ـ أن يلزم نفسه بالدستور ، وأن يعمل جهده لينظم الجماعة طبقاً له .

وللأمير أن يتصرف في أموال الجماعة في الحدود التي يعيّنها المجلس المركزي، وأن يوافق على قبول الأعضاء الجدد، وطرد أي عضو يخلّ بنظام الجماعة، وأن يدعو لاجتماع عام، وأن ينفذ قرارات الجماعة [1].

ومع أن مسؤولية تسيير الحركة ملقـــاة بكاملها على عاتق الأمير، إلا أنه يمكن محاسبته في كل أعماله على أي خطأ أو سوء تصرّف أمام المجلس المركزي، بل وفي الحقيقة أمام أي عضو في الجماعة. والدعوة لرسالة الجماعة تؤكد دائماً المثل التي تنادي بها، ولا تنشد أبداً تعظيم شخصية الأمير.

وهناك مجلس مركزي مختار ليعاون الأمير في قراراته، وله السلطة :

١ – ليضع سياسة الجماعة.

٢ – لينحّي الأمير إذا طلب ثلثا أعضاء المجلس ذلك.

٣ – ولينظر في كل الأمور المتعلقة بالمالية والميزانية.

وبعض واجبات أعضاء المجلس المركزي هي :

١ – التمسك بالإخلاص والطاعة لله تعالى ورسوله الكريم فوق كل اعتبار.

٢ – أن يكونوا على يقظة دائمـــة على الأمير والجماعة والأعضاء أنفسهم، ليتأكدوا من أنهم يحافظون على مبادىء الجماعة والإسلام.

٣ – أن يشاركوا في اجتماعات المجلس بشكل منتظم وفعّال.

٤ – أن يعبّروا عن آرائهم بكل أمـانة واستقامة في كل الأمور، طبقاً لما يعرفونه وما يضمرونه.

٥ – أن يترفعوا عن إيجـــاد الانقسامات والكتل في الجماعة. فإن وُجد

---

(١) دستور الجماعة الاسلامية، بند (١٧).

شخص في المجلس بتصرف هذا التصرف ، فعلى الباقين أن يعملوا جهدهم في جعل رأيه منسجماً مع آرائهم .

وللجماعة الإسلامية شعب في كل المدن والبلدان في جميع أنحاء باكستان الشرقية والغربية . ولكل شعبة أميرها المحلي المنتخب ومجلسها ، وهو مسؤول مباشرة أمام القيادات المركزية ، في أكرا ولاهور .

وتحصل الجماعة الإسلامية على دخولها لخزينتها ، أو لبيت المال ، من المصادر التالية :

١ — من أرباح مبيعاتها في الكتب والرسائل .

٢ — من الزكاة المفروضة على أعضائها .

٣ — من الهبات التي يدفعها محبوها .

٤ — من أثمان جلود الأضاحي في عيـــد الأضحى ، والتي تصرف عائداتها مقصورة على الفقراء والمساكين .

ومن أعظم مصادر القوة للجماعة الاسلامية هو انتاجها الأدبي الواسع الشامل. ويمكن أن يقدر شيوع كتب الجماعة ورسائلها من حقيقة أن بعض تلك الكتب والرسائل طبع تسع عشرة مرة ، وأكثرها طبع أكثر من خمس مرات . وإلى جانب قاعات المطالعة العامـة العديدة ، التي من شأنها أن تسهل الوصول إلى أدب الجماعة أمام الجميع ، فـإن الكثير من العاملين للجماعة تعهدوا متطوعين بالذهاب من بيت إلى بيت لتعريف طبقات الشعب كلها بهذا الفكر الأدبي ، حيث يقدم كل منهم تقريراً اسبوعياً عنه لرئيسه المحلي . وهناك أيضاً إنتاج أدبي خاص يضم خمسين كتاباً ورسالة خاصة بالنساء ، بما في ذلك الصحيفة النسائية الشهرية « البتول » .

وتهتم الجماعة اهتماماً كبيراً بميدان التعليم . فقد كان هناك قبل حل الجماعة سنة ١٩٦٤ ثلاثة وثلاثون معهداً تسيرها الجماعـــة ، تشارك في التعليم الاسلامي

والمصري ، ولكن بعناية خاصة بالقرآن والحديث والفقه الاسلامي واللغة العربية والأدب العربي والسياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا . وكانت الجماعة نشطة أيضاً في ميدان تعليم الكبار لتمحو الأمية . ولقد نشرت أكثر من أربعة وعشرين كتاباً أولياً في القراءة للكبار لهذا الغرض .

وتوجـــد في داخل تنظيم الجماعة دائرة خاصة بالعمل هدفها تثقيف العمال بتعاليم الاسلام ، وتضع التشريعات لتحسن من أحوالهم المادية والروحية ، وتمنع عنهم الشيوعية ، وأي تسلل مدمر إلى صفوفهم . والجماعة تقاوم الخطط الشيوعية بشدة ، تلك الخطط التي تحث العمال على حرب الطبقات . ذلـك ان الاسلام لا يعرف أية تقسيمات اجتماعية على أساس الاعتبارات الاقتصادية .

وكانت الجماعـــة الاسلامية على الدوام في الطليعة في الأعمال الاجتماعية . وبخاصة في أوقات الشدائد الوطنية . فبعد التقسيم كرّست الجماعة أشهراً كثيرة لإغاثة اللاجئين من الهند الذين جاؤوا ينشدون السلامة من المذابح التي قام بهـــا الهندوس ، وبالأخص في مخيمات اللاجئين الكبيرة في لاهور . فبينما كان الجوع والهـــلاك والأوبئة الفتاكة مستشرية ، كان أعضاء الجماعة الاسلامية يدفنون الموتى الذين ليس لهم أحـــد ، ويوزعون الغذاء والكساء والدواء . وفي الزلازل والفيضانات والأعاصير التي تسببت أخـــيراً في الكثير من الدمار في باكستان الشرقية ، ساهمت الجماعـــة الاسلامية بنصيب موفور من الامدادات لمساعدة المنكوبين . وفي أثناء الصدام مع الهند سنة ١٩٦٥ ، والذي تسبب في فرار مئات الألوف من اللاجئين في كشمير من خطر الإبـــادة الجماعية التي كانت تنتظرهم على أيدي المستبدين من الهندوس ، والذين لجأوا إلى باكستان ينشدون السلامة ، كان العاملون من رجال الجماعة الاسلامية يعملون ليـــلا ونهاراً ، يجمعون المعونات للتخفيف من آلامهم . وبعـــد العدوان الاسرائيلي في حزيران سنة ١٩٦٧ ، لم يكتف زعمـــاء الجماعة الاسلامية بجمع معونات الإغاثة لأفواج العرب اللاجئين

الذين طردهم اليهود من الأردن الغربية وغزة وسيناء ، بل استعدوا أيضاً لإرسال بعثة كاملة لتقدم المساعدات الطبية .

وفي ميدان السياسة الخارجية فـإن الجماعة الاسلامية تمثل أقرب الأواصر وأشدها اخوة مع كل بلد مسلم طبقاً لتعاليم الاسلام مؤكدة ضرورة وحـدة المؤمنين وتماسكهم . وترغب الحركة في نفس الوقت في إقامـة علاقات الصداقة مع كل البلدان دون النظر إلى الجنس أو المبدأ . ولكنها تعتبر أنـه من الأمور الأساسية أن تحفظ الباكستان استقلالها تاماً ، وأن تتجنب بأي ثمن الاعتماد على أية قوة عظيمة اقتصادياً أو عسكرياً .

وبالنسبة للحرب الباردة بين الدول التي تسيطر عليها الشيوعية من بلدان الكتلة الاشتراكية ، والغرب الديمقراطي ، فـإن وجهة نظر الجماعة ان كلا من هذين المبدأين خاطىء . والجماعة الاسلامية تشجب سياسة الرئيس جونسون العدوانية في فيتنام . وتعتبر أن القصف المتواصل لفيتنام الشمالية بقنابل النابالم لا هـدف له إلا المذابح الحقيقية للكائنات البشرية البريئة . ومن ناحية أخرى فإن الجماعة واعية تماماً للاضطهاد الشديد الذي يلحق بالمسلمين داخل الاتحاد السوفياتي ، والصين الشيوعية . وهي تتهم كل من أمريكا والاتحـاد السوفياتي لتشجيعهم الصهيونية ومساندتهم لهـا في عدوانها على العرب . وتركز الجماعة الاسلامية في الوقت الحاضر جهدها في ميدان السياسة الخارجية ، لإيقـاظ الباكستانيين إلى ضرورة الوقوف بقوة في وجه الخطر الصهيوني المتزايد ، والنزعة الاستعمارية للهند .

وان كلا من القوتـين العظيمتين خصصت معونات اقتصادية وعسكرية بكميات دائمة ومتزايدة للهند . كما وقد ساعد الاتحاد السوفياتي من حـين لآخر الهنـد في نقض أي تحرك في مجلس الأمن في سبيل تنفيذ قراراته لعمل إستفتاء عام ، عادل ، غير منحاز ، حول كشمير . ويبدو حقيقة ان كلتا هاتين القوتين تعتبر بروز الهند كقوة استعمارية ، أمراً مساعداً لنفوذها الاستعماري الخاص . فـإن

كلا من أمريكا والاتحاد السوفياتي يبدو حريصاً على اعداد الهند لمواجهة الصين . وتساعدانها لتطويرها إلى قوة نووية . وفي ضوء هذه الظروف، فإنه من الميؤوس منه أن نتوقع أن تساعد هاتان القوتان في فض مشكلة كشمير . وكل الآمـــال والأوهام الخداعة التي انتظرناها طويلاً بهذا الصدد ، قد تبددت نهائياً في بيان طشقند الذي يظهر محاولة الاتحاد السوفياتي المعاونة المكشوفة للولايات المتحدة الأمريكية لوضع مسألة كشمير في ثلاجة ولتخلد من قبضة الهنـــد الخانقة على كشمير المحتلة. ان الهنـد قوة معتدية استعمارية ، وهي تنمو كالأفعى العظيمة لتلتهم كل الدول الصغيرة في المنطقة . فإذا نجح الاستعمار الهندي في كشمير ، لا سمح الله ، فإنه بالطبع سيتشجع ، وسيحاول إرهاب الاقطار المجاورة . وأما إذا شجبت الأطماع الهندية الاستعمارية، فإنها ستصد في أول خطوة لها وسيقضى على الشر في مهده »[1] .

والجماعة الاسلامية لا تقصر تطلعها إلى الباكستان وحدها . بل تتطلع إلى إيجاد نظام إسلامي يشمل العـــالم بأسره ، تحكمه الشريعة الخالدة العالمية الشاملة المنزلة .

كذلك هي الأساليب التي تتبعها الجماعة الاسلامية لنشر المبادىء الاسلامية ومنهجها في الحياة ، والتي تصد بها كل المفاسد والمضار التي تعمل على انتصار الفلسفة الدنيوية والمادية . ولا نبالغ إذا قلنا إن الأكثرية العظمى من المسلمين ، بمـــا في ذلك أيضاً الكثير من المثقفين العصريين يريدون إرساء قواعد النظام الاسلامي ، وينبذون القيم المعاصرة ، على أساس أنها تناقض العقيدة . ولكن لسوء الحظ، فإن الأكثرية منهم ليسوا على معرفة كافية بتعاليم الاسلام. وبالرغم من أنهم يصدمون بقسوة الحياة المعاصرة ، إلا أنهم غير منظمين ، فهم لا صوت لهم، ولا قوة جماعية لهم. وفي مقابل هذا ، فإن القوى المحبة للتفرنج والتحويل

---

(١) كشمير : نداء إلى الضمير الانساني .

الدنيوي قوية منظمة تماماً ، وقوية التماسك ، فهم يسيطرون على الإدارة الحكومية ، والأوساط الشعبية ، والمناهج التعليمية لجميع الاقطار الاسلامية ، ويفرضون التفرنج طبقاً لخطط مدروسة تماماً . وهكذا فإنه من الضروري للمحبين للاسلام في كل مكان أن ينتظموا ويحاربوا هذه العناصر الفاسدة .

فلو حدث هذا مرة على نطاق واسع فإن ابطال المبادىء المادية لن يقفوا أمام العاملين للاسلام . وذلك ان اولئك ستحركهم الانتهازية والأنانية فقط . بينما يكون الآخرون تواقين للتضحية بكل شيء ، بما في ذلك أنفسهم لينتصروا في الصراع .

ويعترف حتى ألد أعداء الجماعة الاسلامية بحقيقة أنها أوسع وأقوى حركة إسلامية في العالم اليوم . وأكثر الحركات ديناميكية ، وأحسنها تنظيماً . وان قيادتها الحصيفة الواعية لا تعرف الأنانية ولا تقبل الفساد . وان أعضاءها العاكفين اليقظين ، وان مئات الألوف من المؤيدين لها في الباكستان ، والذين يحتل الكثير منهم المراكز المرموقة في البلاد ، وان الاعداد المتزايدة من محبيها في العالم الإسلامي ، والنوعية الممتازة لأدبها الواسع الانتشار ، والمتيسر في أكثر من عشرين لغة ، كل ذلك يشكل آكد ضمان لفوزها في المستقبل .

وخاتمة دستور الجماعة الإسلامية يدعو جميع المسلمين « ليطيعوا الله ورسله ، وليبتعدوا عن الشرك والنفاق ، وكل ما لا يرضى عنه الله . ولينحوا من مراكز القيادة والسلطة كل أولئك الذين يعرضون عن أوامر الله ، ويتركون منهج الإسلام في الحياة . ويستبدلونهم بالمؤمنين الأتقياء . وعلى أولئك الذين يعترفون بصحة هذه الرسالة ، أن يتعاونوا معنا . وعلى أولئك الذين يريدون الوقوف في طريقنا ، أن يستعدوا للحساب أمام الله » .

الفصل الثالث

فصل ختامي

١ – الإسلام ومحاولات التبشير به في العالم الغربي .

٢ – واجب الطليعة المفكرة عندنا .

٣ – دلائل النهضة الإسلامية .

الاسلام ومحاولات التبشير به في العالم الغربي

إن الكثير من ذوي النوايا الطيبة من المسلمين يؤمنون بكل اخلاص ، أنه طالما ان امريكا وأوروبا قد فشلتا في مبادئها ، فإن الفراغ الروحي الموجود سيؤدي من نفسه حتماً إلى تحول بالجملة في العالم الغربي للإسلام . فهم يقولون أنه طالما أن مستقبل الإسلام هو في أوروبا وأمريكا ، فإن كل جهودنا التبشيرية به يجب أن تتركز هناك ، وغرض هـــذه المقالة هو إظهار عدم جدوى مثل هذا التفكير الرغبي الكثير التفاؤل .

فمع ان البعض النادر الاستثنائي من الأشخاص ذوي الأصل الأوروبي قـــد اعتنقوا الإسلام ، إلا أن إيمانهم يبقى مسألة خاصة ، ليس له أي تأثير على المجتمع الغربي . فالإسلام على عكس النصرانية ، ليس مجرّد صلة بالله وخلاص فردي في الحياة الأخرى . ولكنه عام كما هو خاص ، اجتماعي كما هو فردي ، يتطلب أن يتشكل كل مظهر من مظاهر المجتمع طبقاً لنمط محدد مميز جداً .

فنحن المسلمين ، يجب أن نواجه الواقع الصعب . وهو أن العداء الغربي للإسلام لا ينبني على أسس تاريخية فحسب ، بـل ان الأكثر من ذلك أنه بني على عدم إمكانية أساسية في التوفيق بين ثقافتين متضادتين. وبالتالي فإن الكثير، إن

لم يكن للغالب ، من القيم الإسلامية الأصيلة تبدو غير جذابة إلى حد كبير ، بل وحتى مكروهة ، للعقلية الغربية . والأمثلة البارزة على ذلك هي فكرة الإسلام الشاملة عن الحياة ، التي تخضع الفرد كلية للدولة ، التي تسيطر على جميع مظاهر الحياة ، وامتزاج الدين بالقانون ، والحكومة ، وفكرة الجهاد ، والحجاب . والفصل التام بين الجنسين ، والسماح الصريح بتعدد الزوجات الذي يقره الشرع ، وتحريم أكثر الفنون الجميلة ، واللهو ، أو عدم تشجيعها . وهذا الجزء المقتطف من رسالة شخصية لي من اوروبية شديدة الاخلاص والتمسك بدينها ، داخلة في الإسلام ، تبين بجلاء الحرمان النفسي الذي يجب أن تتحمله هي وزوجها ، في تحولها من طريقة العيش الغربية إلى الطريقة الإسلامية .

ونحن بخلاف شخصك المحظوظ ، قد تمتعنا كثيراً بحياتنا في الغرب . فزوجي يعزف على البيانو منذ إحدى عشرة سنة ، وهو مغرم بالموسيقى الكلاسيكية الأوروبية . وكذلك بالروحانيات الأمريكية الزنجية ، وهو شديد الولع برسم الاسكتشات ، وخصوصاً للأشخاص ، وهو وأنا أيضاً قد أحببنا الرقص من وقت لآخر ، واعتدنا تذوق جميع أنواع الأطعمة الغربية المباحة ، وحتى المحرمة . ولم نفهم ذلك جيداً إلا بعد مدة . وكلانا أحب العطل الأسبوعية حباً كثيراً ، والجلوس سوية مع الجنسين ، والذهاب للسباحة على شاطىء ، وزيارة المطاعم الراقية ، والمسارح ، والمتاحف الفنية ، والسينما ، ولبس الحلل والملابس الجميلة ، وامتلاك النقود الكافية لرغائبنا الصغيرة . ولم يتحقق أحد منا كيف ان الإسلام ينفذ بعمق إلى أكثر مجالات الحياة الخاصة والجوهرية . لقد كنت أتوقع عندما جئت لأعيش في الباكستان ، انني سألبس الساري والقميص والسروال والدوباتا . أما عن البردة والبرنس فقد علمنا بالحاجة الماسة لها عندما بدأنا نلاحظ الحياة اليومية لجيراننا المسلمين ، ولم يدر بخلدنا أبداً ان أخذ الصور لأسرتنا وأصدقائنا هو شيء مكروه . وان الزوجة لا تستطيع الذهاب مع زوجها حيث تريد وأينما تحب . وان مشاهدة فيلم في السينما شيء قبيح ، وان الذهاب للسباحة على شاطىء

البحر ليس بالأمر الصواب إطلاقاً . ومع ذلك فقد وجدنا كبديل للترفيهات التي خلفناها في أوروبا حديثاً للرسول الكريم ﷺ يأذن فيه للرجال بالرمي بالسهام ، وبتدريب خيولهم ، وباللعب مع زوجاتهم ، وكل الملاهي الأخرى يجب أن تعتبر مضيعة للوقت . ومع اننا نحن الاثنين نقر أن الأمر كذلك إلا أننا لا زلنا نجد صعوبة كبيرة في الابتعاد عن المسرات التي تعودنا أن نتمتع بها بكثرة».

ان الغالبية حتى من اولئك الأفراد الغربيين الاستثنائيين ، الذين يعتنقون ديننا يقاسون من الفكرة المشوهة كثيراً عنه ، طالما أنهم عاجزون نفسياً عن تحويل عقولهم من عقليات كافرة إلى عقليات مسلمة . وذلك بسبب فشلنا في تقديم الإسلام بشجاعة بطريقة مستقيمة أمينة . وهكذا فإنهم يحملون في دينهم الجديد عن غير وعي ، قيمهم القديمة ، وطرق تفكيرهم التي يحاولون يائسين أن يجعلوها متفقة معهم . والحقيقة المرة التي تنكشف لهم بعد ذلك تقود الكثيرين للردة . وان أسوأ ما نسلكه هو أن نحاول بالسفسطائية الحاذقة أن نجعل ديننا مستساغاً للعقلية المعاصرة بحبوب دواء مغلفة بالسكر ، محاولين بذلك أن نقنع الغربيين بأن الإسلام شيء هو ليس منه . فإذا كنا واثقين حقاً من علو منزلة الإسلام كمنهج للحياة سماوي منزل ، فيجب أن لا نخشى النقد أو الازدراء من اولئك الذين تختلف قيمهم عن قيمنا .

فإذا كانت المدنية الغربية قد أفلست في مبادئها ، فإنه لا يزال على الغربيين أن يدركوا هذه الحقيقة ، وهم لا يستطيعون إدراكها طالما أنهم يرون أن طرقهم في العيش لها الاعتبار الأعلى في جميع العالم ، في الوقت الذي تتفكك فيه بسرعة كل المدنيات الأخرى بمثلها المختلفة . ولأن الغربي ثابت القناعة بتفوق طريقته في الحياة ، فعلينا أن لا ننتظر منه أن يترك ما هو متمتع بالنفوذ والهيمنة المتزايدين في العالم إلى ثقافة مختلفة تماماً تبدو عظمتها الماضية قد استهلكت .

ولسوء الحظ فإن الاعداد المتزايدة من الطلبة والديبلوماسيين من الأقطار الإسلامية الذين يزورون أوروبا وأمريكا لا يفعلون شيئاً سوى الأذى ، فإن

المسلمين لا يذهبون إلى الغرب بالاعتقاد المتقـــد بالتفوق الكامل للإسلام على كل طرق الحيـاة الأخرى ، وبالحماسة للدعوة لهذه العقيدة عند الغير ، فهم بعيدون عن ذلك كل البعد . بل ويشعرون بالعار المذل يسحقهم بسبب بلادهم « المتأخرة غير المتقدمة » وهكذا فإنهم يتوافدون إلى معاهد العـــلم الغربية ليتقنوا تعلم المبادىء الغربية والفنون الغربية ، ليستوردوها إلى أوطانهم إذا رجعوا إليها . وأسوأ مـــا في الأمر هم اولئك الديبلوماسيون الذين يفخرون بنشر صورهم في الصحف ، يشربون المسكرات في الحفلات الرسمية ، ويراقصون زوجات رجال آخرين مستخفين بصفاقة بتعاليم الاسلام دون وخزة من ضمير .

أليس من غير المنطقي إذن أن تتوقع من الأمريكيين والأوروبيين أن يعتنقوا الاسلام في الوقت الذي يرون فيــه ، ان كل بلد يشكل فيه المسلمون الأكثرية العظمى لقرون عـدة ، يتشوق أهله لترك تراثهم الاسلامي نظير ثقافة الغرب . فكيف يعتنق غير المسلمين كحقيقة سماوية ذلـــك الذي لا يبدي له المسلمون أنفسهم أي احترام ؟ أليس من السخرية المحضة والنفاق أن تبشّر لغير المسلمين في أوروبا وأمريكا ، بفضائل النظام الاسلامي السياسي ، وبكمال النظام الاقتصادي الاسلامي ، وبالاسلام كدواء ناجع لكل المشاكل الاجتماعية في الوقت الذي لا يوجد فيه مجتمع في أي مكان في العـــالم الاسلامي بكامله كحقيقة فعلية ؟ فأي شيء مميت أكثر من الخلط بـــين الاستقلال بالاسم فقط تحت حكم طغاة قوميين مسعورين ، والتطور الصناعي والفني ، ونشوء المعاهد الثقافية الدنيوية ، وحقوق المرأة في الانتخاب ، ومنع الرق في السعودية العربية ، وناطحات السحاب المغالية في عصريتها في مدننا المقدسة مكة والمدينة ، وبين النهضة الاسلامية ؟ ان هذه الأشياء لا تدل على نهضة إسلامية ، ولا على يقظة إسلامية . ولكنها مجرّد السيادة المتزايدة للثقافة والمثل الغربية في بلاد المسلمين . ونحن لا نستطيع أن نأمل بأي نفوذ حاسم ديني أو أخلاقي على العـــالم غير الإسلامي حتى توجد نحن أنفسنا مثلا واقعياً حياً ثابتاً لديننا فردياً وجماعياً .

واجب الطليعة المفكرة عندنا

ان من الواجب على المثقفين المسلمين أن يركزوا انتباههم لإيجاد دواء لأخطر مرض يصيب كل قطر إسلامي – ألا وهو لعنة التحضر . فذلـــك خير من الانشغال الزائد بالمشاكل السياسية والاقتصادية . وعليهم أن يدركوا أن الحركة التجديدية الوطنية عندنا تحت شعار التغير تبعاً للعصور المتغيرة ، تهدد بتدمير كل أثر لديننا موجود في الكتاب والسنة ، وينذر أخطر حـــتى من الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، أو السيطرة الهندية على كشمير ، أو اضطهاد المسلمين في الحبشة ، أو محاولات الابادة الجماعية للأقلية التركية المسلمة في قبرص . فكل هذه مظاهر لبلوى واحـدة ، وهي نفس البلوى التي أصبح المسلمون لسوء الحظ مبتلين بهـا كغيرهم من غير المسلمين . تلك هي القومية المتطرسة ، فطالما نحن المسلمين نشترك مع غير المسلمين في تلك الأباطيل فكيف نكون خيراً منهم ؟.

فأول واجب يواجه علمـــاء المسلمين هو شجب كل الفلسفات الخاطئة ، التي تحكم العـالم في الوقت الحاضر . تلك هي جدليات سقراط وأفلاطون وأرسطو التي تنكر صلاحية الحقيقة الكاملـة الواقعية المبنية على الوحي الالهي . وتمجد الريبة والشك والهرطقة ، على أنها من الفضائل تحت شعار « البحث العقـلي » والحرية الفكرية والانتهازية السياسية التي جاء بهـا ميكافيللي في كتابه « الأمير Prince » ! وما يسمى « بالاستنارة المتحررة Liberal Enlightment »

لفولتير ، التي تجعل من كل شيء ديـــني شيئاً خرافياً تعصبياً أعمى ؛ والمبادىء الفرويدية التي تدعو للانطلاق الجنسي على أن ذلك هو ذروة الكمال للفرد والأمة ، والنظرية الماركسية التي تنادي بـــأن يكون الانتعاش الاقتصادي هو الهدف الأول للسياسة العامة ، والذي يجب أن يضحي من أجـله ، أو تخضع له كل القيم الأخرى ، والتي تقول بأن المثل الثقافية لأمة ما تتبع حالتها المادية ، وان التقدم الروحي والأخلاقي يعتمدان على التقدم المادي ، وفوق كل ذلك فإن شبح التقدم المتطور كما وضعه داروين في « أصل الأنواع » قد طبق بعد ذلك بقليل في عـــلم الاجتماع بواسطة هربرت سبنسر . فكل هذه الأباطيل يجب أن تشجب تفصيلاً نقطة بعـــد نقطة ، بأسلوب هادىء علمي ، وبحجج منطقية مقنعة ، وفي نفس الوقت مقروءة جذابة ، قادرة على تحويل انتباه الجماهير الكبيرة . وعلى العلماء المسلمين في نفس الوقت أن يتمسكوا بالمثل المطلقة لحاكمية الله ، وضرورة الطاعة دون سؤال لشريعته المنزلة الثابتة ، وفكرة الحلال والحرام والحدود والحجاب والجهاد ، وذلك ليقنعوا الناس بمزاياها الجوهرية دونما أي أثر للدفاع عنها .

فعندما تقنع أفعال للعلماء كهذه عـــدداً كافياً ، يتحتم حينئذٍ إرساء قواعد المثل الاسلامية بإيجـــاد مؤسسات إسلامية اجتماعية قوية ، كالمدارس الاسلامية ، والمؤسسات الخيريـــة الاسلامية ، والمستشفيات الاسلامية ، ومراكز البحث العلمي . فإذا استطاعت هذه البدائل الاسلامية أن تسيطر مرة على كل مجالات الحياة الفردية والجماعية ، فـــإن « فرنجة » العالم الاسلامي ستنتهي من نفسها . وهكذا فبـــدلاً من التشكي من نتائج الاستعمار الأجنبي التعسة علينا أن لا نتذمر من أعراض المرض وأن نبدأ بعلاج المرض ذاته .

دلائل النهضة الاسلامية

ان خصوم المجاهدين لإعادة بناء مجتمع إسلامي نقي يحتجون بكل غطرسة بأن الحضارة الاسلامية قد تلاشت إلى الأبد، وان عصرها المبدع أصبح في طيات الماضي . وانها لا تملك المزيد لتضيفه إلى هـذا العالم ، ويشعرون بالغبطة الزائدة عندما يذكرون كيف ان البلد الاسلامي تلو الآخر قد تهاوى أمام المدنية الغربية وتوصف مراحل التبادل الثقافي بالتفصيل لإثبات ان انحلال الحياة الاسلامية ، والانتصار الكامل للفرنجة ، هي أمور حتمية . ويؤكد زيادة على ذلك ، أن لا شيء يستطيع وقف هـذه المسيرة . والخلاصة هو ان المدنية الحاضرة لا يمكن التغلب عليها ، ولم تملك أيدي أعدائنا من وسائل الدعاية ، التي نجحت في قتل معنويات الأجيال الصاعدة من الشباب المسلم ، مثل اختيار هـذه الكليشهات . وبالرغم من الدعاية الوفيرة التي تفيد عكس ذلك ، فإن المدنية الغربية لا تزال بعيدة عن ألا تقهر . فتباغض الأجناس ، والنزاعات الطبقية ، وداء التمرد على القوانين ، والانحراف في استعمال الانجازات العلمية للأغراض المدمرة ، وتفكك الأسرة ، والانغماس في الجنس في كل أنحاء العالم ، وتبديد الموارد الانسانية والطبيعية المذهل في أشد أمور الترف لامعقولية ، هي من أخطر نقاط الضعف فيها . فكل ما أودى بالمدنيات الغابرة سيحطم المدنية الحاضرة دون شك . ان أقوى سلاح بأيدينا على خصومنا هو أن الحياة الاسلامية الأصيلة لا يشوبها أي

من هذه المفاسد . والمدنية الغربية تظهر بمظهر الذي لا يقهر لعدم وجود منافس لهـــا . فإذا ما ظهرت المعارضة الفعالة لها مرة على مسرح الوجود ، فإن عفن الثقافة الحاضرة سينكشف أمره للجميع ليراه .

ان أشد مـا يفسد علينا أمرنا هم اولئك البعض من كتابنا الذين يتهربون من إيجاد الحلول العملية الواقعية لمشاكلنا الحاضرة ، وذلك بتمجيد الماضي ، ويغفلون كلية عن الحقيقة وهي أن المديح الزائد لإنجازات المسلمين منذ ألف سنة لا يشكل ضماناً لازدهار مجتمعنا المسلم في المستقبل ، ان هؤلاء المؤلفين الطيبين يكتبون الكثير في مدح الرسول الكريم ﷺ وصحابته . ولا يملون من الاغتباط لامتياز « القواعد الاسلامية الروحية النبيلة » ، يرافق ذلـك أشد اللعن لمثالب « الغرب المادي » ، كما لو كانت كلامياتهم المسرفة في التعبير ستؤدي في ذاتها إلى حياة إسلامية جميلة فاضلة ، دون أي جهد يقومون بـه . وذلك كما كتب أحد المسلمين في هذه المشكلة يقول :

« ان المسلمين في العالم يمرون في أحرج فترة من تاريخهم . فإن المدنية الغربية المسماة « بالتحضر » قد سيطرت على كل المدنيات الأخرى بأقوى مطارق التقدم العلمي . ولقد ناضلت النصرانية ضدها بقنوط ولكنها لم تستطع الصمود لمـــدة أطول . وذلـــك لوجود الكثير من الصدوع الموهنة في أسلحتها ، كما كان ذلك حظ أديان أخرى كالنصرانية . وقد توجد بعض العادات لا تزال سائدة في أقطار مختلفة ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أنها متأثرة كثيراً ومصبوغة إلى حد كبير بالمدنية الحاضرة ، لدرجة أنها تغيرت كلية وفقدت اصالتها . ومع أن النصارى في كل البلاد يحاولون بجهد لتجنب الضربة القوية التي وجهتها لهم المدنية الحاضرة ، إلا أنهم يخسرون في المعركة ضدها . وحتى أن أكثر المسلمين أنفسهم قد استساغوها ، وهم الآن يندمجون تدريجياً في هذه المدنية العالمية »[1] .

---

(١) سحر التحضر The Spell of Modernism — م . بشير الدين .

ويبدو في الظاهر على الأقـــل ان فرص النجاح لأولئك الذين يعكفون على ارساء قواعد الحياة الاسلامية على مستوى واسع فرص بعيدة جداً. فإن استعادة السيادة السياسية من أيدي الأوروبيين لم يضعف من تأثير الثقافة الغربية . فعلى النقيض من ذلك ، وتحت شعار الإنماء الاقتصادي ، فإن فرنجة آسيا وأفريقيا تواصل مسيرتها بسرعة متزايدة أبداً .

« لقـد شهد مطلع القرن التاسع عشر اندماج مجتمعنا المسلم في المجتمع العالمي الواسع في العصر الراهن . وفي رأيي ان أكبر مشكلة فريدة يواجهها المجتمع المسلم في يومنا هذا، هي أن يعي المعنى المتضمن في هذا الاندماج. لقد كان التأثير الغربي عظيماً لدرجة أنه عندما استعادت الشعوب الاسلامية استقلالها السياسي وجدت من المستحيل عليها العودة إلى طريقة عيشهم الاسلامية التقليدية »[1] .

فـإذا كان الكلام المقتطف المذكور هو طراز عقلية مثقفينا العصريين فهل يعني أنـــه يجب علينا نحن المسلمين أن نستسلم للقنوط التام ونركع للقهر ؟ وإذا كانت كل حضارة قد هزمت أمام التحضر (Modernism) فهل يترتب علينا أن نسلم أنفسنا بكل خنوع إلى نفس المصير ؟ أليس من أمل لنا ؟.

فمها كانت دلائـل النهضة الاسلامية تبدو ضعيفة في الوقت الحاضر فإنني لا أزال أعتقد أن هناك أمـــلا كبيراً باق لنا شريطة أن نبتدر العمل المناسب في الوقت الملائم . وهذا الشعاع من التفاؤل مبني على الفروض التالية :

أولاً – ان المصدرين الأساسيين للإسلام وهما القرآن والسنة سليمان لم يدخلهما التحريف . فلا يوجد دين آخر يزعم لنفسه هذه المزية .

ثانياً – ولمـــا كانت تعاليم الإسلام شاملة محيطة في نظرتها، وتامة بذاتها كل التمام ، لم يسمح الاسلام « بالانتقائية » ، أو الموافقة لأية ثقافة تتعارض مع أصوله

---

(١) مقتبسة من كتاب Islam - the Straight Path «الاسلام الطريق المستقيم» لشفيق غربال .

فالاسلام منفرداً يقدم سبيلاً مرشداً تاماً للحياة بكليتها . والاسلام لا يعرفنا ما سنعمله فحسب بل يعلمنا كيف نعمله .

بينما التعاليم الموجودة للأديان الأخرى جميعها تعاليم محدودة محصورة لا ارتباط بينها .

ثالثاً — ولقد وجدت العزيمة على حفظ الاسلام ونشره نقياً صافياً كما جاء بالفعل على مدار التاريخ الاسلامي ، وفي جميع بلدان المسلمين وفي وقت واحد ، على أيدي المجددين المتتابعين . ومع ان « المتحضرين » من بيننا يحاولون فرض شروحهم المشوهة للإسلام على الأمة بكاملها ، وذلك بمساعدة العلماء الغربيين ، والسياسيين ، وتشجيعهم ، إلا أنهم لحسن الحظ يقابلون بالمقاومة العنيدة في كل جانب من قبل اولئك الذين لم يغتروا بهذا النفاق ، وصمموا على حفظ الاسلام الصافي سليماً .

رابعاً — وان الغالبية العظمى من مراكش إلى أندونيسيا تريد الاسلام، فإذا ما وجدت لهم القيادة المحركة مرة ، فإنهم سيكونون مستعدين للسير وراءها بكل حماسة .

فإن كانت هذه هي الحالة فلم لم تظهر القيادة المسلمة في أي بلد مسلم؟ ان علينا أن نتأكد ان ذلك لا يرجع إلى أية مزية جوهرية في الثقافة الغربية ، كما أنه لا يعود إلى نقص أصيل في الاسلام . والجواب على ذلك يمكن أن يوجد بالتبصر في طبيعة الاستعمار الأوروبي ، ولقد كتب اللورد كرومر في كتابه «مصر الحديثة» في الفصل الأخير . وكان ذلك سنة ١٩٠٨ يقول : « ان انجلترا كانت مستعدة لتمنح الحرية السياسية النهائية لكل ممتلكاتها المستعمرة ، حالما يكون جيل من المفكرين والسياسيين المشحونين بمثل الثقافة الانجليزية ، عن طريق التربية الانجليزية ، مستعد للاضطلاع بالأمور . ولكن الحكومة البريطانية لن تسمح بحال من الأحوال بقيام دولة إسلامية مستقلة ، ولو للحظة واحدة » .

فما كان يصدق على مصر يطبق كذلك على باكستان . وما كان من السياسة

البريطانية كان كذلك في السياسة الفرنسية ، والايطالية ، والهولندية . ولا تزال هذه هي السياسة الأمريكية والروسية لهذا اليوم . وبالتالي فإن سيادتنا السياسية هي اسمية أكثر منها حقيقية . وان القوى الغربية عازمة على الابقاء عليها تسير في نفس الطريق . وذلك بالوسائل الاقتصادية .

وفي هذه المرحلة فإن من الضروري أن نتفحص البناء الاجتماعي في بلاد المسلمين بالنسبة للقضايا الراهنة :

يأتي في قمة سلمنا الاجتماعي والاقتصادي النخبة من مثقفينا المعاصرين الذين يشكلون بعقليتهم نسخة طبق الأصل عن سادتهم السابقين ، رغم انحدارهم من أصول عربية ، أو هندية ، أو ملاوية ، أو أفريقية . وهم مندفعون بكل حماس ليجعلوا بلادهم مشابهة أشد الشبه للمجتمعات في بلاد الغرب . ومع أنهم يشكلون جزءاً بسيطاً من مجموع السكان ، إلا أن بأيديهم أزمة السلطة . وما لم يوضع حد لنشاطاتهم في الوقت المناسب ، فإن القيم الخلقية والتربوية العفنة ، المحصورة حتى الآن في الطبقة الارستقراطية ، ستنتشر وتفسد كل طبقات الشعب .

وتأتي الكتلة الثانية في أسفل السلم ، وهي تشكل أكثر من ثلاثة أرباع السكان في جميع بلدان المسلمين ، وتلك هي فئة الجماهير العامة البسيطة . وتشمل هذه الكتلة الثانية كل اولئك الذين ظلوا لحسن الحظ في معزل عن التأثر بالتربية الحاضرة ، ولم ينالوا أية ثقافة عصرية . ومع ان هؤلاء المسلمين فقراء غالباً ، وأميون ، وأصحاب حرف متواضعة ، فإن العلماء وأئمة المساجد الذين اقتصرت ثقافتهم على التعلم في الكتاتيب أو الأزهر ، يتبعون لهذه الفئة . ومع ان الأكثرية منهم مسلمون طيبون بقلوبهم ، والبعض بأفعالهم كذلك ، إلا أنهم بسبب جهلهم الساذج ينخدعون بسهولة ، ومع أنهم كذلك كثيرون ، إلا أنهم لا حول لهم بسبب ضعفهم وعدم تنظيمهم . ومما يزيد الطين بلة فالكثير منهم - إن لم تكن الأكثرية - يدينون بالاسلام كعادة وعرف أكثر منه كعقيدة شخصية . وبما أنه لم تبق أية حيوية أو حركة في الثقافة التقليدية التي يمثلها

هؤلاء، فإن الشباب المثقف العصري لا يملكون إلا أن يلصقوا كل ما هو إسلامي بكل ما هو قديم بدائي متأخر مسكين مضمحل. بينما يبدو لهم كل ما هو غربي براقاً جميلاً. وتبدو هذه الثقافة، بالنسبة للسائح الأجنبي، لا شيء سوى البقايا البالية للشرق العجيب. ولأنه لا يوجد الشاب الذي يستطيع أن يتحمل أن يوصم بالتأخر أو الرجعية المتعصبة، ويرنو لأن يثنى عليه كمستنير ومتحضر ومتقدم، فما أن يتأهل هؤلاء الشبان في المعاهد الحكومية أو التبشيرية النصرانية العالمية، كرجال أعمال أو فنيين أو أطباء أو مدرسين أو اجتماعيين، حتى يضعوا في أذهانهم طرح كل ما هو قديم موروث. وذلك كي يظفروا بالنفوذ والاحترام ثم ينشروا « بركات » التقدمية في أقاصي البلاد، وهم في هذا متأكدون من نجاحهم بمساندة الحكومة النامية، والقوى الغربية، وببرامجهم الفنية المعينة، وبتقلدهم مناصب الأعمال الأجنبية، وأكثر ما تستطيع الجماهير العامة عمله هو المقاومة السلبية. وحتى إذا لم يتهاووا هم أنفسهم، فإن أبناءهم بعد تشربهم للثقافة الحديثة، من المحتم سيتهاوون.

ولو ان المسألة انحصرت في هذين الفريقين فقط، فإن قضيتنا ستكون خاسرة حقاً. ولكن بفضل الله، فإن هناك فريقاً ثالثاً يبرز بطيئاً، وهم مع أنهم الأقل عدداً، إلا أنهم سيقررون نهائياً مستقبل الأمة المسلمة، وهؤلاء هم الرجال والنساء الذين احتفظوا بعقيدتهم وحبهم للإسلام. والذين يبدون في حياتهم اليومية حماسهم واستعدادهم للتضحية بأرواحهم في سبيل عقيدتهم، مع أنهم تعرضوا بالكلية للثقافة الغربية، وانشئوا تنشئة عصرية، وحتى لدرجة أنهم تعلموا بل وعملوا في الخارج في أوروبا وأمريكا.

وهذه الفئة، لأنها تملك السلاح العقلي اللازم للمقاومة الفعالة لتغلغل الثقافة العصرية في الحياة الإسلامية هي وحدها الجديرة بقيادة العالم الإسلامي.

والرأي السائد عند الكتاب والعلماء المسلمين المعاصرين هو ان الكنيسة النصرانية في الغرب فقدت سلطانها ونفوذها بسبب معتقداتها اللامعقولة في

التثليث والتجسد والخطيئة الأولى، أو النظام الرجعي للكهنة. وما دام الإسلام مبدأ سهلاً مستقيماً خالياً من التعارض مع التقدم العلمي، ولا يعرف النظام الكهنوتي المتميز عن جمهور المسلمين، فإن ديننا في مأمن من النوازل التي حلت بالنصرانية. وهذا النمط من التفكير العقلي، ولو أنه قد يكون مريحاً، هو تفكير خطر وغبي. فمها يتعارض الإسلام مع المعتقدات النصرانية والأنظمة النصرانية. فإن هذه المعتقدات والنظم لم تكن السبب في سقوط النصرانية. فعندما ووجهت الكنيسة الكاثوليكية بالفلسفة الإنسانية الدنيوية لعصر النهضة، والإصلاحات البروتستانتية، وموجات الإلحاد المادي المدنية، التي تلت الثورة الفرنسية، فكل ما عملته النصرانية هو أنها لجأت إلى الوسائل السلبية الصرفة. وهكذا فقد وجهت الكنيسة كل ما لديها من قوة لتسير حملات منظمة من الاضطهاد ضد المعارضين لها. فأوجدت المطاردات للمبتدعين، ومحاكم التفتيش المقيتة. واستعملت « الحرمان »، وأحرقت الكتب الهرطقية، ولو أن الكنيسة الكاثوليكية كلفت أقوى علمائها ليفندوا مغالطات الفلاسفة الماديين عقلياً، وبالحجج المنطقية المقنعة، بدلاً من إصدار قرارات الحرمان بالهرطقة، ووضع كتاباتهم في قوائم الكتب المحرمة، لكان من المحتمل تماماً أن تنجح الكنيسة في استبقاء نفوذها غير منقوص. ولكن لسوء الحظ، فبدلاً من النفاذ إلى عقول أتباعها وقلوبهم، فتبعث بذلك الحب للنصرانية في قلوب النصارى، فإن هذه الأعمال القمعية لم تأت بشيء سوى الكراهية والتمرد، وحتى لو ان هؤلاء الهراطقة كانوا يستحقون ما نالهم من وجهة نظر الكنيسة، فإن وسائل القمع بمفردها ليست قاسية وغير إنسانية فحسب، ولكنها أيضاً غير مجدية، بل وتهزم الأغراض التي عملت هي من أجلها تماماً.

ومع أننا نحن المسلمين بحمد الله لم نرتكب جرائم لهذا الحد في اضطهاد اولئك الذين لا يتفقون معنا، فإننا يجب أن نكون دائماً أمناء مع أنفسنا. فنعترف أن البعض منا قد ارتكب بصورة أخف الخطأ نفسه. فإن مجرد لعن

المدنية الغربية ، ووصمها بأنها مادية لا تعترف بالله ، وشيطانية لا تغني – مع صحتها – بأقل ما يمكن في مقابلة فتنتها المتزايدة لشبابنا العصري المثقف. وان قذف التقدميين عندنا بمثالب الكفر لن يوقفهم . فإن المسألة التي هي قيد البحث ليست إذا ما كانوا يستحقون أن يوصموا بالكفر ، وهم قد يكونون مستحقين لذلك تماماً . ولكن هل يكفي ذلك لعمل شيء بناء لقضيتنا ؟ فالجواب بالتأكيد : لا . فإن الحكم النهائي لله وحده ، وليس لنا ، ونحن كمسلمين نستطيع أن نثق في اننا لو جهدنا أنفسنا لأبعد حد في سبيل الإسلام ، فإن الله عز وجل سيعاقب « الكفار » بما يراه مناسباً لهم .

فالأزمة التي نقابلها نحن المسلمين اليوم ليست جديدة . فمنذ قرون خلت ووجهنا بنفس المشكلة ، عندما شاعت الفلسفة الدنيوية اليونانية التي نشرها فلاسفة المعتزلة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، الذين حاولوا كلهم ، كما يحاول التقدميون عندنا اليوم أن يبتدعوا سمة جديدة للإسلام. ولكن بفضل الله ورحمته بدد الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» جميع حججهم. وهكذا بطريقة فعالة فضح المغالطة المنطقية ، وقلة الأمانة العقلية . حتى أن حركة المعتزلة أوقفت في دعاياتها ، ثم وجه ابن تيمية الضربة القاضية لأصحاب المذهب العقلي . ومنذ ذلك الحين فقدت الفلسفة اليونانية كل نفوذها ، ولم تحظ فلسفة المعتزلة بأي احترام في العالم الإسلامي .

إن ما يحتاجه العالم الإسلامي المعاصر قبل كل شيء هو « غزالي » جديد و « ابن تيمية » جديد. وان عبء خلفائهم لن يكون صعباً كما يمكن أن يبدو كما كان أولاً . وذلك لأن الفلسفة الدنيوية اليونانية القديمة لا تختلف مطلقاً اختلافاً أساسياً عن الفلسفة المادية المعاصرة ، وما الأخيرة إلا تطور أبعد لسابقتها .

إن من أهم الواجبات لرجلنا « ابن تيمية » المعاصر هو أن يفجر مرة ، ولآخر مرة بعبع « التقدم » . وان فكرة « التغير » و « التقدم » و « التحرك مع العصر » ، « لنواجه تحديات العصر » المتسلطة على عقولنا ليست شيئاً إلا عقيدة

عصريــة اشتقت من نظرية داروين في التطور ، وأدمجت في فلسفة اجتماعية كفكرة ماديــة عن التاريخ لكارل ماركس . ونحن كمسلمين يجب أن تستحوذ على تفكيرنا فكرة الخضوع للإرادة الإلهية عن طريق الطاعة التامــة للقرآن والسنة في معانيها الحرفية السهلة . فإذا ما استطعنا الحصول على الاستقلال الثقافي فلن يكون هناك ما نخشاه من التطور والارتقاء الاجتماعي الطبيعي التلقائي في إطار قيمنا ومثلنا الإسلامية الخاصة ، ولكن ما دمنا عبيداً للفرنجة ، فإن التغير لا يعني شيئاً سوى الهجر المتواصل لقيم الاسلام ، مقابل نمط العيش الغربي . وهذا هو السبب الذي من أجـله – في الظروف الراهنة – يكون كل تغير من وجهة النظر الاسلامية ضرراً علينا .

فليس هناك ما هو جديد أو تقدمي في الفرنجة . فبالرغم من العــلم والتكنولوجيا والتطور الاقتصادي ، فـإن المدنية الغربية في مثلها لم تتغير منذ عصر بركليس قبل ٢٥٠٠ سنة تقريباً .

ويجب على خليفة ابن تيمية الجديد أن يفضح الاعتقاد التقدمي المتعلق بمــا يسمى « حرية البحث التامة » الموجود عند طلابنا ومعلمينا في معاهــد التعليم العليا ، على أنها « بعبع » آخر ، وهــذا المطلب « للحرية التامة » في البحث «العقلي» ليس إلا اعتقاد آخر من معتقدات «التقدمية»، أخذ من فلسفة سقراط كما دونها تلميذه أفلاطون . ولا تزال باقية ليومنا متقنعة بالحرية ، فإذا جردت هذه المسماة بالحرية العقلية من سفسطائيتها ، وجدنا أن المقصود منها هو غرض وحيد ، هو التشكيك في أسس العقيدة ، والهزء بهـا ، والسخرية من « الله » – جل وعلا – ومن وحيه ومن الآخرة . ذلـك القصد الذي عُبّر عنه قانونياً في دستور الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٣٦ ، الذي يكفل لكل المواطنين السوفيات الحرية التامة في الدعاية المضادة للدين . فالحرية بمعناها الحقيقي يجب أن تكون حرية في كل اتجاه . إلا أن مـا يسمى «بالعقل» برعاية المدنية الغربية ، يجب دائماً أن يحرض ضد «الوحي» وليس بجانبه أبداً ، وبالتالي فإن ما يسمى بالبحث

« العقلي » « والعلمي » يسمح له بـــأن يتقدم في اتجاه واحد فقط — في طريق المادية . وان هؤلاء القوم لا يعلون أبداً من شجب الثقافة الاسلامية التقليدية ، لافتقارها للتفكير الناقد الخلاق المستقل ، ولكننا سوف نكون في ضياع تام إذا حاولنا التفتيش عن أية أصالة أو استقلال فيما يتعلق بثقافتهم .

وهناك أسلوب بارع للمتحضرين عندنا في إثارة «الروح» ضد « النص الحرفي» في الاسلام . وكأن الاثنين لا يمكن التوفيق بينهما، فهم يدعون أن نص الشريعة الحرفي عندنا يقتل روحها . وبالتالي فقد زعم « سيد أمير علي » أخيراً في كتابه المشهور « روح الاسلام » ان التعاليم الحرفية للحجاب أكثرها غير إسلامية . ولكن الاعتقاد الغربي في الاختلاط الحر ، والمساواة التامة بين الجنسين هو «الروح» الحقيقية للإسلام ، ونص الشريعة الحرفي يبيح تعدد الزوجات . ولكن الاقتصار على زوجة واحدة ، والزواج كما يعرفه النصارى المتحررون هو مـــا يوافق « روح » القرآن . وان تعاليم القرآن الواضحة تحث مراراً وتكراراً على الجهاد ضد الكفار المعتدين . وتجعل ذلـك كأقدس واجبات المسلمين . ولكن أمير علي يقول : ان « روح » الإسلام تعتبر جميع الحروب باسم الدين خطيئة فاحشة ، ويفضل السلم بأي ثمن . وهذه القائمة يمكن أن تزاد إلى مـــا لا نهاية . والمغالطة القائلة ان النص الحرفي يقتل الحياة ، ولكن الروح تعطي الحياة . هو فكرة نصرانية صرفـة ، أخذت من رسائل القديس بطرس في العهد الجديد . ونحن كمسلمين يجب أن نتحلى بالشرف الاخلاقي ، فنقرر ان كل ما تقوله التعاليم النصرانية هي اعتقادات غريبة بالكلية عن القيم الإسلامية . فكما أنه لا يستطيع مخلوق أن يعيش دون شكله الخارجي ، فكذلك في المجتمعات البشرية . فإن تنظيم اللوائح القانونية شيء أساسي . إذ أننا لا نستطيع ألا نعيش كأرواح بـلا أجساد ، وإذا تغير جسد كائن بشري إلى جسد مخلوق آخر فإنه لا يعود بشرياً . وكذلك فإن نصوص الإسلام تعيش في روحه ، وروحه تعيش في نصوصه ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر كما لا يمكن فصله عنه .

فمنذ قيام التقنية الحديثة قامت مناقشات تافهة لا تنتهي داخل حدود كل دين حول انسجامه أو تنافره مع التقدم العلمي الحديث . فإن كانت الحقيقة واحدة فإن العقيدة الحقيقية لا يمكن أبداً أن تتعارض مع المعرفة الصحيحة ، أي بمفهومها المستقيم المحايد . ولقد ثارت المشكلة بسبب أن العلم الحديث لم يكن محايداً من الناحية الخلقية ليس إلا ، ولكنه وقع تحت تأثير الفلسفة المادية ورعايتها مباشرة على أنه أكثر نتاجها أهمية وأقوى سلاح في يدها. وان أوجب الواجبات الأساسية على علماء المسلمين أن يميزوا المعرفة الأصيلة المفيدة البناءة ، من النظرية والفرضية المادية العلمية المزعومة . كتب السيد المودودي في كتابه « تاريخ الحركات التجديدية في الإسلام » :

« في رأيي ان المجدد المثالي ، أو المهدي ، سيكون قائداً عصرياً لزمانه في أعلى درجة ، وستكون عنده بصيرة عميقة نافذة في كل فروع المعرفة الجارية ، وفي كل مشاكل الحياة الرئيسية ، وبالنسبة للحنكة السياسية ، وإدارة الدولة ، والمهارة الحربية . فإنه سيفاجيء العالم بأسره . وسيثبت على أنه أكثر المتحضرين عصرية ، ورأيي أن المجدد المثالي سوف يكون قائداً عصرياً جداً لا يعني أنه سيحلق لحيته ، أو يلبس الملابس الأوروبية ، أو يعيش بالطريقة الغربية . إنني أعني فقط أنه سيكون ملماً تماماً بفنون عصره وعلومه ، بأحواله واحتياجاته . وسيستعمل كل الوسائل العلمية والمبتكرات التي اخترعها العالم لأقصى درجة من الفائدة . وكل ذلك طبيعي. فإنه ما لم يستطع حزب من تملك كل وسائل القوة الممكنة ، وما لم يستفد من كل الفنون والعلوم الموجودة ، والابتكارات والتطبيقات ليوسع من دائرة نفوذه ، فإنه لن يستطيع الوصول إلى أهدافه وإلى السيادة على العموم » .

ان هذا يعني أن لا بديل لنا سوى الإمساك بالزمام من عدونا ، وأن نحارب بكل ما في يدنا ، كما يجب علينا أن نمتلك بعض الأسلحة الفعالة لنحارب بها ، ولكن هذه كلمة للتحذير : فإن الإمساك بزمام « العصرية » لا يعني التعاون

معها ، بل يعني محاربتها . وفي الوقت الذي ندير فيه رحى الحرب مبدئياً ونفسياً فعلينا أن لا ننسى أنـــه إن تهاونا ولو مرة ، على أساس « مقتضيات الحال » ، وبـــدأنا نمثل خصومنا فإننا سنصبح كافرين كما كانوا ، وسنفقد كل مبرر لمواصلة الكفاح .

كتب محمود بريلفي في كتابه « ايدلوجية الإسلام » يقول :

« إن عقيدة الخوف من الله لا يمكنها أن تعيش تحت قيـادة لا تعترف بالله . ولذلك فانــه لا مناص للأناس الذين يخشون الله من أن يوجدوا القيادة التي تخشى الله في العـالم . وإن المسلمين لا يريدون القيادة لدوافع أنانية ، وان نضالهم ضد الماديين ليس على مجرّد سلبهم القيادة . فالمسلمون يريدون استرداد القيادة لمسألة تتعلق بالعقيدة . فالماديون يجرون العالم إلى التنكر لله والثورة العلنية ضد خالقهم وإنه لمن الصعوبة بمكان على نظرية « تقوى الله » وغاياتها ومعتقداتها في الحياة ، أن تصل إلى عقول الناس وقلوبهم ، في هذه البيئه للثقافة والمدنية المتنكرتين لله . وذلـك لأن المنحى الكامل للحياة المعاصرة متعارض معها تماماً ، والمسلمون ، لأنهم يعارضون هذه النظرية وهذا التطبيق لها ، هم جماعة من الناس تخشى الله ، ويضعون عقيدتهم في طاعة الله ، وهـذا الإيمان يفرض على المسلمين لا أن ينزووا بأنفسهم عن عقيدة الغرب المادية بـل أن يعرضوا للعالم مسلكهم في تقوى الله . وهذا الواجب لا يمكنهم أن يؤدوه بنجاح مـا لم يأخذ المسلمون زمام القيادة في هذا العالم من الماديين » .

– تم بحمد الله –

محتويات الكتاب

إقرأ في هذا الكتاب

- مسيرة النفس الإنسانية من الحيرة إلى الطمأنينة ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإسلام ، كما عاشتها مؤلفة الكتاب .
- دفاعاً قوياً عن الإسلام ومعتقداته وآدابه ، وعن الشبهات التي يثيرها الغرب الحاقد ، والشرق الجاحد والصهيونية الماكرة حول الإسلام والعقلية المسلمة ، والنظافة ، وأدب السلوك ، والثقافة ، والفن ، والمرأة ، في الإسلام .
- عرضاً للحركات الإسلامية المعاصرة ، وتطبيقها للإسلام : الحركة الوهابية ، والسنوسية ، والإخوان المسلمين ، والجماعة الإسلامية .
- جهاد المجددين والمفكرين الإسلاميين في العصر الحديث ، محمد بن عبد الوهاب ، محمد بن علي السنوسي ، جمال الدين الأفغاني ، محمد اقبال ، الشيخ حسن البنا ، أبو الأعلى المودودي ، وغيرهم .
- وأخيراً ، رسماً لطريقة الدعوة إلى الإسلام ، وكيف يجب أن تكون نقية خالصة من كل شائبة ، وتأكيداً على أن جهود المصلحين المجددين لن تضيع : « لقد وجدت العزيمة على حفظ الإسلام ونشره نقياً صافياً كما جاء بالفعل على مدار التاريخ الإسلامي وفي جميع بلدان المسلمين في وقت واحد على أيدي المجددين المتتابعين ... وإن الغالبية العظمى من مراكش إلى اندونيسيا تريد الاسلام ، فإذا ما وجدت لهم القيادة المحركة مرة ، فإنهم سيكونون مستعدين للسير وراءها بكل حماسة » .